من إحدى الزوايا

يحيى حقي



هذا العدد..

• شبكة اريد لها أن تخرج من البحر بما تشتهيه النفس ، فخرجت كما تخرج كل الشباك : شيء أراده الصائد ، وشيء أرادته الشبكة ، أو أرادته الصدفة ، أو أرادته المقادير • تلك هي العدد الذي بين يديك • كان مأمله أن يدل دلالة دقيقة على ملامح القصة العربية اليوم ، لكنه وقف دون الغاية • لأنه تعرض لما يتعرض له كل عمل يعتمد على انتظار مبادرة الآخرين ، وتيسر المطلوب منهم • يقبل واحد ، ويعتذر الآخر • ثم لا مناص للذي يقبل من تحكيم ذوقه • فكان لابد من نقص : ان لا يفي العدد بتمثيل كل أقطار العربية ، وأن لا يكون المنشور أصدق في التمثيل من غير المنشور • على أن أرجو للسماحة أن تغلبك ، فتنظر في جلالة المطمح حتى تهون عليك المثالب • لم نعتد نحن عمل المختارات • عندنا طائفة منها ، ولكن عنايتنا بها دون عناية الغربيين ، مع أن أسلافنا انتبهوا الى خطرها من قديم ، في الشعر والنثر ، فتبعناهم في حاضرنا ، الا أنا اهتممنا بعض الاهتمام بالشعر وانصرفنا عن النثر ، ولم تحضنا غلبة القصة في العصر الحديث واتساع مذاهبها على تجميع طوائف منها لمختلف الأغراض • فكان هذا العدد أول محاولة عندنا ، في تجميعه لنماذج من القصة العربية • أقول عندنا لأن الغرب ــ وأعجب لهذا ــ قد سبقنا اليها • فهل يشعرنا هذا التجميع بالحاجة الى المختارات النثرية ؟ وبالحاجة أيضا الى مجلة للمجلات العربية نشهد فيها وجه التطور والتنوع في آدابنا ؟ عسى أن يفعل •

تعال الآن نلقى نظرة على العدد نسأله بها ماذا يقول لنا بعيدا عن تلك الغاية التي قصد اليها :

١ ــ اضطررنا في قصة عراقية أن نترجم الحوار العامي الى الفصحى حتى يفهمه غير العراقيين • فاذا كنا أبناء أمة واحدة ، وأدب واحد ، ولغة واحدة ، فكيف يجوز أن يترجم بعضنا لبعض ؟! لقد آن لتلك القضية التي عاشت بيننا زمنا طويلا ، قضية التنازع بين العاميات والفصحى ، أن تبلغ مستقرها • اننا لم نعط هذه اللغة القديرة التي يفهم عنها كل ناطق بالعربية كي نهملها مختارين الى رطانات ان لم يعبها غير قصر المدى فما أقبحه من عيب • ولعل قلة الالتجاء الى العاميات ــ وهذا واضح في العدد ــ راجعة الى ضعف فيها عن أداء المطالب المعقدة المتجددة مع الأزمان التي يشغل بها كل ادب عظيم ، أو يريد أن يكون عظيما • أنقول ان الفصحى هي القادرة على

الوفاء بتلك المطالب ؟ نعم ، ومن أدلتنا اقبال القصة فى العصر الحديث عليها • فالقصة بطبيعتها هى العرق النابض الذى يخبرنا جسه ـ أكثر مما يخبرنا الشعر ـ عن مقدار طواعية اللغة ، ووفائها ـ فى الماديات والمعنويات ـ بالحاجات الطارئة ثم ان كتاب القصة عندنا يقعون كثيرا تحت تاثير موضوعات وأخيلة مستقاة من الادب الغربى • فاذا أضفت الى هـذا استخدام مترجمينا دائما او غالبا للفصحى فى نقلهم للقصص الأجنبى علمت أن فصحانا ساعية أجد السعى الى ادراك غاية تتقطع دونهـا أنفاس جميع العاميات •

٢ ـ هناك رغبة فى التجديد توشك ان تكون شهوة جامحة ، والتجديد فى ذاته لا بأس به ، فهو حاجة لابد للنفوس الحية الناهضة من استشعارها ، ولذلك فهو غرض نبيل • أما اشتهاء التجديد فشىء آخر • أنت هنا لا تستجيب لطبيعة الموضـوع ، ولا لجدة إحساسك بالأشياء ، بل لهوى مضر ، يلقى بك فى أسر الارتجال ، ويبقى عملك قائما فى فراغ ، ويعرضك لخطر البراعة الخاوية : أن يعمل الذهن ويعمل والقلب ساكن والصـدق غائب • بدا التجديد واضحا فى ايثار الرمز ، وربما كان ظاهرة مرحلية ، كما بدا فى نمو الاتجاه الى وصف الأشياء وصفا دقيقا • ونحن فى هـذا مقتدون لا رواد • فهل عن انسياق مع تيار غربى حديث ، او عن رغبة فى اكتشاف العالم برؤية جديدة ؟

٣ ـ غلبت على الهموم التى يعالجها الكتاب مشاكل المعيشة • فهل نحمد هـذه « الواقعيـة » أو نراها نظرا قانعـا بالتلفت حـوله ، عازفا لسبب ما عن استشراف الآفاق ، والاشتغال بما هو فوق ، اى بالميتافيزيقا ؟ ودعك من أول وقع للكلمة فى نفسك • فانا اعنى بها كل موضوع يتحرر من اسار الواقع الراهن سـعيا الى الواقع الباقى • صحيح انك تستطيع أن تلمس ميلا الى استشفاف الحقائق الأساسـيـة التى تمثل وجدان الأمة ، ولكنه لا يزال فى مراحله الأولى • لا يزال الاهتمام بالفرد الذى هو هذا أو ذاك دون الاهتمام بالفرد العام ان صح التعبير • ولعل هذا الايثار هو السبب فى تطامن حدة الخلافات المذهبيـة (السياسية) بين اليمين واليسار •

٤ ـ ننتبه الآن ونحن نوشك ان ننهى قراءة العدد الى غرض آخر حققه عرضا : الجمع بين طائفة من الأدباء العرب فى مكان واحد •

ينبغى التوسع فى العمل على التقاء بعضنا ببعض ، فنعود الى تلك السنة الحميدة القديمة ، حينما كان الرجل يقطع الفيافى على قدميه لكى يقبس من رجل آخر بعض علمه أو ادبه • ما أجدرنا فى هذا العصر ـ وقد تهيأت الوسائل ـ الى تجـديد ذلك العرف القديم •

تشكر المجلة كل من اسهم فى اخراج العدد ، وتعد بنشر ما تخلف عنه فى اعداد قادمة ، وتامل أن يلقى عناية النقاد • ان النتائج التى اسفر عنها هـذا الاختيار والتجميع جديرة بالبحث • والمجلة تعتبر كل دراسة تاتيها عن العدد مكملة له ، لازمة فى تحقيق الغاية منه •

العراق

الغراب

بقلم: فؤاد التكرلي

حملت الفانوس عاليا بيدها اليسرى ونزلت درجات السلم المظلم وهي تنصت الى همهمة أمها الغامضة . كان ضوءه ضعيفا ورائحة النفط تنبعث قوية منه . ملأته قبل دقائق ، حين عزمت أمها على الانصراف أخيرا . لم تعد هناك فائدة من الالحاح عليها . انها لا تستطيع فراق حمودى ليلة واحدة . سمعتها .

عيني نجوبة شوية على كيفج . يا الله . شوية على كيفج عيوني أنت (١) .

كان صوتها رقيقا حنونا لا يلائم ضخامة جسمها وثقل حركاتها . لم تجبها وتوقفت قليلا وهي تقرب الفانوس من موطىء قدم الأم . كانت أنفاسها ثقيلة مسموعة وهي تسحبها بمشقة من صدرها العريض . قالت لها - لو باقية عندى ها ليلة يا يوم . شيصير . دشوفيني آخر بهالحال (٢) .

أجابتها أمها وهي تضع يدا فوق كتفها .

- شواكع بيدى يا عيني يا نجوبة . اللهم يا أرحم الراحمين . هذا أخوج واكع فد نوبه وينرادله مداراه ليل نهار . والا آني أجوز منج يا عيني . يا الله . يا محمد (٣) .

لا جدوى من الاصرار . لن تبقى بعيدة عن ذلك الطفل الكبير حمودى ، وعليها أن تبيت وحيدة في غرفتها ليلة أخرى . قالت لأمها :

- ديرى بالج يوم . هاى الدرجة شوية عالية . هوشلون بيت مصخم . تاليها حظى خلانى أكعد نزل بكبة (٤)

أجابتها الأم بين أنفاسها المتقطعة :

- ميخالف عيني نجوبة . جم يوم وتنكضى . ميخالف .. ميخالف . يا ربى عليك (٥) .



فؤاد التكرلي

- من مواليد بغداد عام ١٩٢٧
- حاصل على ليسانس الحقوق ـ تخصص سنتين فى جامعة باريس .
- يعمل حاكما فى محاكم العراق المدنية .
- صدرت له مجموعة « الوجه الآخر » من منشورات الثقافة الجديدة ١٩٦٠ .

سارتا تخترقان باحة الدار المظلمة متجهتين نحو الباب الخارجي • كان قبقابها يطرق الأرض الحجرية الصلدة طرقات شديدة ونعال الأم تمسحها من بعدها • سألتها أمها •

ـ أشو ماكو أحد جوه عينى نجوبة ؟؟ (٦) •

فقالت متذمرة

ـ هاى الغرفة فارغة ، وأهل هـا لحجرة مسافرين ، وهذوله ينامون من وكت ٠ ورا وذان العشا (٧) •

ثم وجدت نفسها تقول رغما عنها :
ها ليلة بس • ما أدرى شيصير بى آنى وهذوله الأطفال (٨) •

فأجابها الصوت الحنون •

ـ لا تحجين هيجى حجى خاطر الله • شـكو عليكم • منو يكول ما يرجع بعد شوية ؟ رجـال كل شيء يصير له • ليلة واحدة ما رجع للبيت ، قابل كل ليلة ؟؟ أتوكلى على الله عينى • وهاذى فضيلة يمج نفس ، أحسن من الماكو (٩) •

ـ ليش هى وينها هالفضيلة الخير (١٠) •

ـ ترجع عينى ، غير عند أهلها ؟ وين تروح قابل ؟ ساعة ساعتين وتصير يمج • (١١) •

فتحت الباب الخشبى الكبير دون كلام وأنارت لها الطريق •

رأتها تسرع فى حركاتها كأنها تحاول التخلص منها بأقرب وقت • مرت بجوارها •

ـ مسلم عليج عيونى نجوبة • دخشى أخـاف باردة عليج • آنى أشوف دربى • لا يظل بالج عينى (١٢)

ـ مع السلامة يوم • سلمى لى على حمودى • عنده العافية • شفايتلى لو جنت يمكم(١٣)

كانت أمها قد ابتعدت بأنفاسها الثقيلة ، ولم يستطع نور الفانوس الأحمر أن يفرق ظلمة الدرب عن عباءتها السوداء • بقيت تسـتمع الى وقع أقدامها الخفيف وهى ذاهـلة • لم تملك الجرأة الكافية لتخبرها ، ولعلها لو فعلت لبقيت أمهـا معها ولدفعت عنها شر الوحدة • كان الدرب ضيقا لا تنعكس على جدرانه أية ظلال • لم يعد بوسعها سماع حركات أمها فاستدارت ودخلت •

* * *

كان الجو باردا والهواء يلسع أنفها وأذنيها • سارت متجهة نحو السلم وهى لا تحاول تهدئة ضربات قبقابها على الأرض فخيل اليها أنهـا ترى شخصا يقف وراء المحجر . رفعت الفانوس وهتفت :

ـ منو هاى ؟؟ (١٤) •

ثم ميزت ابنتها الصغيرة •

ـ ولج حمـدية ، ليش طالعـة برة بهالبرد ؟ (١٥) •

... فأتاها صوت ضعيف •

ـ ستار كام يبجى يوم (١٦) •

ـ زين جيت . خشى للحجـرة ولج بالعجل(١٧) •

ثم اسرعت فى سيرها وارتقت الدرجـات الخربة •

نام ستار فأحكمت تفطيته باللحـاف والبطانية ثم جلست قرب السرير تستريح • لم

يسكت خلال الساعة الأخيرة ولبث يصرخ بكل قوته حتى خيل اليها أن حنجرته ستنفجر . ولكنه نام أخيرا ليتركها وعظام جسمها تؤلمها كلها . ما جدوى كل هذا الارهاق ، وماذا يمكن أن ترتجى من ستار حين يكبر ؟؟ كلهم سواسية، كلهم سواسية تنهدت بصوت ناعم ثم انتبهت الى الستائر تهتز هزات خفيفة . كانت الغرفة دافئة منذ ساعة ، لكن الجمرات قد خمدت فى المنقلة والريح الباردة تدخل من ثقوب الشباك . لفتت نظرها حركة من حمدية . كانت متكومة على المنقلة كأنها تريد أن تتدفأ بالرماد وهى تنظر الى أمها بعينين لامعتين . سألتها .

– لويش ماتكومين تنـامين ؟؟ فات الوكـت ولج والجمر خمد (١٨) .

– ما نام . بعد وكت (١٩) .

– طبـج مرض . مـالى خلك اليـم اثنين اثنين(٢٠) .

فأخفضت الصغيرة عينيها وأخـذت تعبث بالرماد .

شعرت بارتياح لرفض ابنتها النوم . كانت تتحاشى البقاء وحيدة ، ولقد أخبرت أمها بذلك الا أن هذه لم تستجب لها . وكان بقاء حمدية مستيقظة يعنى أنها لن تعانى خوفا شـديدا . هكذا كانت منذ طفولتها ، وأمها تعلم هـذا . لكنها لم تفض الى أمها بحقيقـة الأمر ، وهى لا تعلم علم اليقين ما هى هذه الحقيقة وهـل يمكن أن تفهم . هناك أشياء غير معتادة لا يسهل الحديث عنها . وكانت أمها ، فوقذلك ، تتعامى كى تستطيع الرجوع الى البيت . لماذا لم تسلها بالحاح عن أسباب غيبته يومين متتالين ؟ لقد تعامت وتغـابت لتتمكن من العـودة سريعا الى حمودى ، ابنها المريض . تركتها هكذا منفردة مع أطفالها دون أن تتـردد . حتى تلك الامرأة فضيلة لم تعد الى غرفتها . وكان هذا مما يزيد وطأة الخوف عليها .. أن تشعر أن الغـرفة المجاورة خالية وأنها وحدها فى الطابق الثـانى كله . كيف يمكن أن تعود بعد كل ما حـدث ؟؟ تلك الامرأة الفاجرة زوجة أخيه .

نظرت الى حمدية . لم تزل تعبث برمـاد المنقلة دون أن يصدر عنها صوت . كان السكون متكاملا حولها ، سكون الغرفة وسكون العالم من حولها . وكانت تحس اضطرابا خفيا مجهول الأساس . كلمت ابنتها .

– لا تلعبين بالرماد ولج . مو تبولين جواج تره . شوكت راح تنامين ؟ (٢١) .

فلم تجبها حمدية ، فاستمرت تحدثها .

– كومى نامى خاطر احجى لج حجاية (٢٢).

فرفعت الصغيرة رأسها . رأت فى عينيهـا الغامقتين تساؤلا وفضولا .

– ما أنام .

ثم أردفت بعد لحظات .

– يا حجاية تحجيلى ؟؟ (٢٣) .

فقامت اليها ثم أمسكت بيدها وقادتها الى فراشها .

– كومى . احجى لج سالوفة السـعلوة والغراب (٢٤) .

ادخلتها تحت اللحاف وجلست على حافة السرير تراقبها وهى تستقر فى ضجعتها . كانت مدورة الوجه بعينين سوداوين صغيرتين وشعر طويل فى مثل سواد عينيها . سكتت بعد لحظات ووجهت بصرها نحو أمها بانتظار حكايتها . كان الضوء بعيدا عنهما فوق الباب ، والفراش ناعما مريحا ، وكانت تحس بارهاق النهار يضغط على جسمها ويبعث فيه الرخاوة . لو لم تنصرف تلك العاهرة فضيلة الى بيت أهلها ، لأمكنها أن تهدأ وتنال بعض الراحـة . ولكن ، كيف يمكن أن تعود ؟؟ تلك العاهرة ، تلك العاهرة .

سمعت حمدية .

– يالله يوم . احجى عاد . لويش صافنـة هيجى ؟ (٢٥)

فاستجمعت فكرها لتتذكر بداية الحـكاية

– أى يوم ، أى (٢٦)

ثم أخذت تربت على ظهر ابنتها وهى تتكلم بصوت لين .

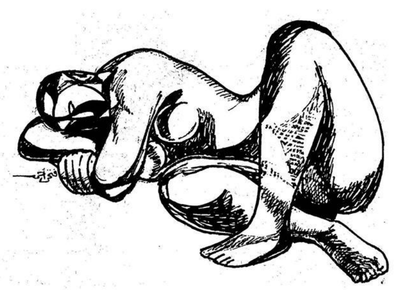
– جان ماجان ، الله ينصر السلطان فد غراب صغير كلش اسود . هذا الغراب ما جان أحـد يحبه من الغربان بصاية هو اسود هـواية . حتينـه أمـه وأبوه كالو له فد يوم « يا ولد يا غراب الاسود كلش ، روح شوف لك عيشة بغير هالديرة . انت جماعة الغربان مـا يردون يشوفوك » كال لهم « يا يـوم ويابا ، عـدلو بدلو ، انتو والجماعة هم سود مثلى والله ما يرضى تسوون وياية هالسواية ، شـلون اعيش وين آكل وين أشرب »

ارتفع صوت حمدية تقاطعها :

– يوم ليش الغربان تحجى ؟ (٢٧)

فاستاءت وشددت من ضرباتها الرتيبـة على ظهر ابنتها

– نامى عد ولج . ليش الغربان مو خلقـة ربنا ؟ ليش ما تحجى ؟ (٢٨)



ثم سكتت برهات قليلة . كانت متعبة ،تود لو تستلقى على فراشها اللين وتستغرق فى نوم عميق . لم يبق لها ما تعمله غير هذا ، فالرجل لن يعود هذه الليلة أيضا ، وليس لديهـــا ما تتغلب به على خوفها سوى النوم . ولكن ،هل يأتيها هينا بدون كوابيس ؟ أحست بأصـــابع حمدية تضغط يدها وسمعتها

ـ أى يوم ، تالى ؟ (٢٩)

فعادت الى حكايتها ـ

ـ أى يوم ، وين وصلنا ؟ (٣٠)

فأجابتها ابنتها ـ

ـ وصلنا لما الغراب الصغير كام يحجى ويــه أمه خطية (٣١)

ـ كال لها .. ليش يا أمى ما عندج حنية على ؟ آنى بعدنى صغير ما أفتهم من الدنيا شى . الا ماية كامت تيجى من هالحجى وكالت له .. ابقه يا ابنى ، البيت بيتــك والأهل أهلك ، واحنا شيفيدنا حجى الغـــربان ، كليمن يشوف اللى يصرف له . لاكت الاب وكف لها سجينة خاصرة وكام سوالها ذاك الفصل (٣٢) .

ـ يوم ، لويش ؟ هو أبوه ما يحبه للغـراب الصغير خطية ؟ (٣٣) .

فتنهدت ـ

ـ ليش هو كلب الأب مثل كلب الأم ؟ ماكو مثل كلب الام ولج . خليها بفكرج هالحجاية ولا تعذبينى بعد (٣٤)

ـلا يوم ، بعد ما أسوى شى (٣٥)

وساد بينهما صمت شمل الغـــرفة . ليس هناك مثل قلب الأم ، ولو شعر هو بحنان على ولديه، لما تركهما هذه الايام والليالى دون أن يراجعهما أو يراهما على الاقل . تبدل شخصــه كله خلال ساعات معدودة . صار بعد تلك الليلة غريبا عنها ، غريبا عن حياتها وعن هذا العالم بأكمله . كان ذلك بسبب انهـــا فقيرة شريفــة يتيمة الاب . لو عاملته مثل ماتفعل تلك العاهرة فضيلة مع أخيه ، لتبدل مسلكه . تلك العاهرة الرخيصة . لم تعد الى غرفتها هذه الليلة أيضا لم تعد من زيارتها المزعومة الى أهلها . سمعت حمدية تتكلم بصوت خافت ـ

ـيوم ، بعد والله ما أسوى وكاحة (٣٦)

ـ زين يوم زين . آنى بس اريدج تعــرفين قدر امج . لو أبوج عنده حنية بكلبه ، جـــان كال هنولة شصار بيهم .. ماتــوا أحتيـــوا . لاكت ماكو حنية ولا شـــفقة . والله ذب كل مصايبه على راسى . ما كفانى الفكــر ورزالة الصغار ، هنوبه درده الجبير (٣٧)

ـ يوم ، ليش وينه بابا ؟ (٣٨)

فتملكها غضب مفاجىء ـ

ـ بجهنم ، بالنار الكبره . هو وهنيجى ام .. أعوذ بالله .. اسكت ياحلكى . ولج ليش ماتنامين وتخلصينى عاد ؟ ما يكفينى كل هالدرد والشكا ؟؟ (٣٦)



ــ والغراب ؟

ــ ولج يا غراب ؟ (٤٠)

فلم تجبهــا الصغيرة ، وسمعتها الأم تنشج ببكائها المكتوم . قالت :

ــ سكتي عاد ، لا تنتحســـين . انت أنكس منه (٤١)

ثم عادت الى ضرباتها الرتيبة ــ

ــ وين وصلنا ؟ سكتي ، راح أكمل . الغراب الصغير ما كدر يبقى بالبيت بعد ما طرده أبوه منه ، فكام لف راسه وطار . ظل يطير ويطير ، ما يدرى وين يحط رجليه . الجوع داسه وكلبه ساح وهو باقي طاير . فات النهــار وخلص والشمس احمرت ، والغراب الصغير أيس من نفسه وكال يا روحي هيجي عيشة ماتنراد . هذيج الساعة شاف فد جبل اسود كبالة ، كام وكر عليه وكال ياروحان .. استراح شوية وأبات الليل هنا والله كريم للصبح . (٤٢)

رأت ابنتها تغمض عينيها فسكتت . كـانت حمدية تتنفس بعمق وانتظام فخفت من ضرباتها أحست بظهرها يؤلمها ، لكنها لم تتحرك خشـية أن توقظ الصغيرة . كانت متعبة تهوم ويكاد رأسها يسقط على صدرها . لا يمكنها أن تبقى ليلة أخرى هنا . ستأخذ صغيرتها لتذهب الى بيت أهلها . ليتركوها في أحقر حجرة لديهم ، فلن تبالى . يكفيها أن يزول ثقل قلبها وان تعيش بين بعض الناس .

أغمضت عينيها ثم تحركت قليلا فصـــدر عن السرير صرير مزعج . سمعت حمدية ــ

ــ يوم ، يوم (٤٣)

ففتحت عينيها ــ

ــ شبيج ؟ لويش كعدتى ولج ؟ (٤٤)

ــ يوم أريد ماى (٤٥)

ــ أنجبى ، مو وكت ماى . نامى هسه ١٠كو واحد يشرب ماى نص الليل ؟ شماكله ؟ (٤٦)

كانت مستيقظة تتلامع عيناها فى الوجـــه البرىء المدور ــ

ــ يوم وين راح الغراب الصغير خطية ؟ (٤٧)

ــ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .. بعده واكف على الجبل (٤٨)

ــ يوم ، يا جبل ؟ (٤٩)

ــ اسكتى . آنى اكمل . غمضى عينـــج أول نوبة (٥٠)

ــ زين يوم (٥١)

ــ لمن وكف الغراب الصغير على الجبل الاسود شاف يمه على الكاع هوايه دبيب ، فكام يلكط ويأكل يلكط ويأكل الى أن خلصه وشبع فلف راسه ونام . كعد من الصبح على فد صوت عالى يصيح .. هاذه منو واكف على راسى (٥٢)

رأت حمدية تفتح عينيها فقالت لها بصـوت ناعم ــ

ــ ليش فكيتى عينج ؟ غمضى (٥٣)

فلم تجب ورأت طابع فزع خفى على وجهها ــ

ــ تردين اكمل باجر ؟ (٥٤)

ــ لا يوم ، الله يخليج . هاى منـــو كام يصيح ؟ (٥٥)

ــ هاى السعلوة . أثارى الغراب الصـــغير جان نايم على راسها (٥٦)

فانكمشت الصغيرة على نفسهــا ، ورفعت اللحاف لتغطى قسما من وجهها . انتبهت هى الى الريح تلعب بالستائر وأحست برجفة بسيطة فى ظهرها . كانت عظامها تؤلمها والنعاس يثقل أجفانها .

ــ يوم ، تالى ؟ أكلته السعلوة للغـــراب خطية ؟

ــ لاع . الغراب صار شاطر كام يتوســـل بيها . حجالها حجايته من الاول للتالى . شلون

أبوه طرده بصاية هو اسود هوايه وشـــلون بقه طاير النهار كله وشلون هو تعبان وجوعان لاكت السعلوة ما صدكت بحجايته أول نوبـــة وكالت له ٠٠ ولك يا غراب البين أسويك علجة علجتين ، الليل كله ما كدرت أنام ، وأكف انت على راسي وتنكر بيه يا ظالم ٠ كال لها ٠٠ آني بن أيديج ، يتيم وما عندى أحـد ، وانت كل ما تفصلين آني البس ، لاكت ياسـعلوة خاتون تره آني ٠٠

– يوم ، ليش هى السعلوة خاتون ؟

– ولج دنامي عاد ٠ لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ٠ يا ربي شوكت راح تخلصـــني من هالشكا ؟ غمضى عينج ولج (٥٧)

كان السكون مطبقا ، ثقيلا على نفسها ، ولم تكن تدرى أتحسن صنعا باجبـــار حمدية عـلى النوم ٠ عدلت من وضع جسمها واضطجعت قرب ابنتها متكئة برأسها على راحة يدها ٠ لم تكن الغرفة دافئة فجذبت حافة اللحاف وغطت بـه ساقيها ٠ رأت حمدية تغمض عينيها نصــف اغماضة ، فـعـادت الى التربيت على ظهرهـا برفق وبدأت حديثها بصوت متقطع رخيم ٠

– نامي يوم عاد ٠ آني هسه اكمل الحجاية ، بس لا تنطين كل ساع ٠ وين وصلنا ؟ ها ، لمن الغراب كام يحجى ويه السعلوة كال لها ٠٠ آني أكلت الدبيب الي جان يمشى فوك راسـج وآني ماجنت انكر راسج ٠ السعلوة هوايه فرحت لمن شافت الغراب ماكل الكمل الي جان مالي راسها فكالت له ٠٠ ألك الرأى والامان ٠ وكامت نفخت عليه وسوت لونه أبيض أبيض مثل الثلج وكالت له ٠٠ روح لأهلك خلي فرحون بيك ٠ كالت له روح ٠٠ لأهلك خلي يفرحون بيك ٠ كام الغراب ٠٠ لف راسه وطار ٠٠ (٥٨)

توقفت قليلا عن الحديث واغمضت عينيها ٠ لم ترد أن تنام فى وضعها ذاك ، لكنها كانت متراخية الجسم واللحـاف يدفىء ساقيها بشكل مريح ٠

٠٠ كانت واقفة بمفردها ترتجف أمام باب غرفتها المفتوح ٠ مضت عليها الساعات الطوال وهى تتطلع الى الضوء الخافت اللعين فى حجرة فضيلة ٠ كانت الريح باردة تخرق قماش ثوبها وتنغرز فى لحمها ، ولم تكن تدرى هل سـيقع لها مرة أخرى ما وقع تلك الليلة ٠٠ لم يأت فى وقته المعلوم ونام الصغار ، مثل تلك الليلة ٠ وكانت فضيلة تغنى ونور غرفتها يتمايل بلين مع موجات صوتها الداعر ٠ لم تنقطع يوما عن غنائها تلك العاهرة ٠ وها هى الآن تغنى ، مع الريح والنور ، أغنيات تجذب الرجال ٠ ولم تكن هى واثقة هل هو معها ، وكان البرد شديدا والخوف والالم يمزقان قلبها ٠ خرجت ، تلك الليلة ، بنية صافية لتحدثها ٠ ولـكنها الآن تعلم أنه مع تلك المرأة وانها سترى الحقيقة المريعـــة مرة ثانية ٠ كانت واقفة منذ زمن طويل أمام باب الغرفة المفتوح باهمال وهي تزداد ارتجافا لم يعد لها سند فى حياتها منـذ اشتعل الضوء الشاحب الخبيث فى الغرفة المظلمة ٠ وهى تعلم انها ستمضى الى ذلك الباب المغلق لتفتحه على شقائها ٠ لكنها لا تجد ما تعتذر به ٠ ولسوف تكون فى وضع مهين ، مثلما حدث ليلة رأتهما أول مرة ٠٠ لم تصفعهما بأسباب أو مبررات ٠ هكذا بنية صافية ، أقبلت وفتحت الباب الموارب أما الآن فقد فارقتها النية الصافية وامتلأت أعماق نفسها بالقلق والخوف والتوجس ٠ لكنها ستمضى الى ذلك الباب المغلق لتفتحـه على شقائهـــا ٠ وستعتذر بالغراب الأبيض الضـائع الذى أنكره أهله ومزقوه حين عاد اليهم ٠ سـتقول لأولئك المختفين وراء البــاب ان ابنتها حمدية تريد أن ترى جثة الغراب الصـغير المنتزعة الأوصـال ٠ وسـارت مثلما سـارت ليلتئذ ، مرتجفـة الاطراف تصطك أسنانها ويخذلها ضعف شنيع فى جسمها ٠ كانت الريح باردة كأنها الواح ثلج على ظهرها ، والضوء فى غرفة فضيلة يتراقص بمجون ٠ جاءت مع زوجها ، أخيه ، فى احـدى الليالى لتسكن جوارهم ولم تهدأ له روح منـذ رآها ، ذلك المجنون المغرور ، ذلك المخبـول المتكبر ٠ كان الباب ، مرة أخرى ، مواربا ٠ لم يجدا الوقت لأقفاله ٠ ووقفت أمامه ، ليلته ،ولم تدر لمـاذا وقفت ٠ كانت تهم بالحـديث معها ريثما يعود ، ولم يكن فى ذهنها شىء معين ٠ أما الآن فانها تفكر بالحديث وكيف تبدأه وتستمر فيه وتنهيه ٠ وكان عقلها مشوشا مضطربا ، لم يخطر لها أى قول يمكن أن توجهه لهما ٠ كانت ترتجف وترتجف وأصابعها لا تقـوى على دفع الباب ولم تكن لها رغبة فى الدخول ٠ مـاذا ابتغت ليلتئذ ، وماذا ستجنى الآن؟ ماذا ستجنى من آلامها ؟ وفتح الباب فجأة فهمت بالنكوص ٠ لكنها بقيت تنظر اليهما بعينين مبهورتين ٠ لم يشعرا بها تراقبهما ٠ كانا عاريين بشكل فظيـع وهما يعملان عمل الحيوانات ٠ عمل الكلاب ، الكلاب ٠ وتهاوى قلبها وشهقت بعنف وعيناها مشدودتان اليهما ٠ انهما لا يتكلمان ، مثلما فعلا ليلتئذ ٠ انهما ينظران اليها بعيون الموت الجامدة انهما يعرفان بأنهما يعملان عمل الكلاب القبيح عمل الكلاب القبيح ٠٠٠

استيقظت على صفقة الباب من خلفهـا ، فرفعت رأسها واستدارت بنظرهـا • كانت عيناها غائمتين وذهنها في دوامة غير قادر على تمييز الحلم عن الواقع • رأت شـبحه الداكن واقفا تحت المصباح الكهربائي الاحمر • شعرت بالبرد شديدا في ظهرها ، وبذراعها اليمنى متصلبة ، وكان قلبها يخفق بعنف • لم يزل واضعا اليشماغ على رأسه وهو يتكيء على الباب المغلوق • اعتدلت في جلستها وانزلت قدميها من السرير• أرادت أن تتصرف كأنها كانت تنتظره الا أن أطرافها لم تستجب لحركاتها وبقيت جامدة في مكانها • كان ساكتا،ولم تميز وجهه بوضوح أول الامر لكن خوفها ازداد • خطر لها أن تقـوم من محلها الا انهـا خشـيت أن يصر السرير وتستيقظ حمدية • أحدت بصرها الى وجهـه وهي تبذل جهدا لتتماسك • كان متغيرا كابيا ، تتركز حياته كلها في عينيه السوداوين •أفزعها ما تنفثه تلك الجمرتان المتوهجتان ، وأيقنت انه قاتلها لا محالة • كانت ترتجف رعبا وهي تدرك ان هيئته لم تتبدل منذ كبستهما معا • مجنون ثائر • لم تحرز الصدى الغريب الذى تجـاوب في أعماق نفسه بعد تلك الليلة المشـؤومة • وها هي ترى انه الكبرياء ، الكبرياء القاتلة • كلمته محاولة دفع الفزع عن نفسها —

— شبيك ؟ وين جنت ؟ (١٩)

وكان صوتها أجش متقطعا • لم يتحرك ولم يجبها ، وخيل اليها انها تسـمع أنفاسهـا المتلاحقة • كان طويلا متهدل الملابس ، ويشماغه مرميا باهمال فوق رأسه • لم تستطع تحـويل نظرها عن عينيه ولم تلتفت الى الحركة الخفيفـة التى بدرت منه • كانت تسائل نفسها مع خفقات قلبها المذعور •• هل بمقـدوره أن يفعل ذلك ؟ ورأت يده اليمنى ترتفع بهدوء وكانت الفوهـة الصغيرة موجهة نحوها باصرار ، انه يريد قتلها ، يريد افناء شاهد انحطاطه • ولم تلبث الا لحظات عادت لها فيها كل حياتها • مرت في ذهنها أسعد أيامها وأشقاها ، وخطر لها كم ستندم أمها اذ تركتها هذه الليلة بمفردها ، وكم ستبكيهـا •• كم ستبكى بعدها • أرادت أن تقوم والرعب يكاد أن يذهب بعقلها ، لكن النار اتجهت نحوها بسرعة مريعة ، وأحست بحريق هائل فيصدرها فصرخت بجنون • كان الما مخيفا لا بشريا ، لم يستمر غير لحظة أو أقل • رأت خلالها وجهـه الحيواني وعينيه البارقتين • انه مصمم ، غير نادم البتة • كانت متشبثة بحافة السرير وهي تمسك ثديها المثقوب ، فخيل اليها انها تسمع صراخ طفليها يأتى من بعيد • لم تفهم معـنى ذلك وحاولت أن تستدير لتراهما ، الا أن دفقة أخرى من النار اللاهبة اندفعت نحوها والتهمت وجهها بوحشية • لم تشعر الا برجفة عظيمـة تزلزل جسدهـا وتهاوت من السرير ببـطء فاصطدم رأسها بالأرض مرة أو مرتين قبل أن يغمرها الظلام •

الهوامش :

(١) أي : أنت وما تريدين ياقرة عيني يا «نجيبة» ، هيا ، كما تشاءين يا عيني •

(٢) وماذا يحدث لو أنك بقيت عندى هذه الليلة أو يوم (يجرى ايه) ألا ترينني على مثـل هـذه الحالة (السيئة) •

(٣) وأى قدرة لى على هذا يا عيني يا نجية ، اللهم يا أرحم الراحمين ، هـذا أخوك غاية في الفقر ويحتاج الرعاية ليل نهار ، أتركك وحالك ، هيا يا محمد •

(٤) انتبه يا أماه ، هذه الدرجة عالية الى حد ما ، انه منزل بالغ الرداءة ، هو حظى الذى جعلنى في النهاية استأجر غرفة •

(٥) لا يهم يا عيني يا نجية ، بعض أيام وتنقضى ، لا يهم •• لا يهم •

(٦) ألا يوجد أحد بالداخل يانجية ؟؟

(٧) هذه الحجرة فارغة ، وأهل هذه الحجرة مسافرين، وهؤلاء ينامون مبكرين •• بعد أذان العشاء •

(٨) ماذا لو بقيت هذه الليلة فحسب ، لست أدرى ماذا سينزل بي وبهؤلاء الأطفال •

(٩) بالله عليك لا تتكلمى هكذا ، ماذا بكم ، من يقول (يعرف) ما يحدث بعد قليل ؟ ، هل تخلف عن البيت ليلة واحدة أم هذا حاله كل ليلة ، توكلى على الله يا عيني ، وها هى « فضيلة » بجانبك خيرا من لا أحد •

(١٠) أين هي تلك الـ « فضيلة » ••

(١١) وأين ستكون الا عند أهلها يا عيني ؟ أين تذهب بعد ؟ ساعة أو ساعتين ثم تصبح بجوارك •

(١٢) سلام عليك يا عيني نجية ، ادخلي فانى أخاف عليك من البرد ، استطيع أن أرى طريقى ، لا تشـغلي بالك يا عيني •

(١٣) مع السلامة يا أماه ، سلامى الى « حمودى » ، له العافية ، انى سعيدة بقربكم •

(١٤) من هذه ؟

(١٥) بنت يا « حمدية » لماذا خرجت في هذا البرد ؟

(١٦) نهض « ستار » يبكى يا أماه •

(١٧) طيب ، سـأحضر ، ادخلى الحجرة سريعا يا بنت •

(١٨) لماذا لا تنهضى الى النوم ؟ مر الوقت ، يابنت ، وخمدت النار •

(١٩) لن أنام ، لا يزال الوقت مبكرا •

(٢٠) أصابك مرضك •• ليس لى صبر على انامتكم اثنين اثنين •

(٢١) لا تلعبى فى الرماد يا بنت ، لا تبولين على فراشك والا عاقبتك ، متى تنامين ؟

(٢٢) هيا نامى كى أحكى لك حكاية ٠

(٢٣) أى حكاية تحكين ؟

(٢٤) انهضى ٠ احكى لك قصة السعلوة والغراب ٠

(٢٥) هيا يا أماه ، احكى ، لماذا تلوذين بالصمت هكذا ؟

(٢٦) فى يوم

(٢٧) كان ياما كان ، الله ينصر السلطان ، واحد غراب شديد السواد ، وهذا الغراب لم يكن يحبه واحد من الغربان لأنه أسود شديد السواد ، حتى أمه وكذلك أبوه ، قالا له ذات يوم : « ياولد يا غراب يا اسود » ابحث لك عن معيشة بغير هذه الناحية ، فجماعة الغربان لا تريد أن تراك » قال لهما « يا أمى ويا أبى ، مهما فعلتما فأنتما وجماعة الغربان سود مثلى ، والله لا يرضى أن تقترفوا معى هـــذه الفعلة ، كيف أعيش ، أين آكل ٠٠ أين أشرب ٠

ـ يا أمى هل تتكلم الغربان ؟

(٢٨) نامى يابنت ، أليست الغربان « خلقة ربنا » ؟ لماذا لا تتكلم اذن ؟

(٢٩) « وبعدين » يا أمى ٠

(٣٠) أين وصلنا ؟

(٣١) الى أن قام الغراب الصغير يكلم أمه ٠

(٣٢) قال لها ، لماذا يا أماه لا تحملين لى حنانا ؟ أنا لا أزال صغيرا لا أفهم من أمر الدنيا شيئا ، قامت الأم تبكى من هذا القول وقالت له ٠٠ ابق يابنى ، البيت بيتك والأهل أهلك ، وماذا يفيدنا قول الغربان ، كل يفعل ما يتراءى له ، لكن الأب جرد لها سكينا ماضيا ودبر لها هذا الأمر ٠

(٣٣) لماذا يا أمى ، ألا يحبه أبوه على الاطـــلاق ؟

(٣٤) وهل قلب الأب كقلب الأم ؟ ليس لقلب الأم عديل ، لتكن ببالك هذه الحكاية ولا تعذبينى بعد ٠

(٣٥) لن أفعل شيئا بعد يا أماه ٠

(٣٦) لن تصدر منى وقاحة بعد يا أماه وربى ٠

(٣٧) حسنا ، فقط أريدك تعرفين قدر أمك ، لو كان أبوك بقلبه حنان ، لقال لنفســـه : ماذا صار بهؤلاء ، ماتوا ٠٠ أحياء ٠٠ لكن لا حنان ولا شفقة ، لكن الله صب كل مصائبه على رأسى ، ماكفانى الفقر وعبء الصغار ، هذه المرة همه أيضا ، مصائبه الكبيرة ٠

(٣٨) أين أبى يا أماه ؟

(٣٩) فى جنهم ، فى النار الكبرى ، هو وهذه الأم ؛ أعوذ بالله ٠٠ كف يا حلقى ؛ لماذا لا تنامين ، يا بنت ، وتخلصيننى ؟ أما كفانى هذا الهم والشقاء ؟

(٤١) صمتا ، لا تجلبى النحس ، أنت أسوأ منه ٠

(٤٢) أين وصلنا ؟ صمتا ، سأكمل ٠ لم يستطع الغراب الصغير أن يبقى بالبيت بعد أن طرده منه أبوه ، فأدار رأسه ثم طار ٠ ظل يطير لا يدرى بأى أرض ينزل ٠ اعتصره الجوع وساح قلبى وهو لا يزال يطير ٠ مر النهار واحمرت الشمس ويئس الغراب الصغير من نفسه ، وقال لنفسه : هذه حياة لا يحرص المرء عليها ، وفى هذه اللحظة رأى قبالته جبلا أسودا ، نزل عليه وقال : أسترح قليلا وأقضى الليل هنا ٠

(٤٣) أمى ٠

(٤٤) ماذا بك ، لماذا نهضتى يابنت ٠

(٤٥) أريد ماء ٠

(٤٦) صه ، ليس هذا وقت الماء ، من يشرب ماء فى منتصف الليل ؟ ماذا أكلت ؟

(٤٧) اين ذهب الغراب الصغير يا أمى ٠

(٤٨) أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، لم يزل بعد فوق الجبل ٠

(٤٩) أى جبل ٠

(٥٠) صمتا ٠٠ ســـأكمل أطبقى عينيك مع أول مرة يراودك النعاس ٠

(٥١) حسنا ٠

(٥٢) عندما وقف الغراب الصغير على الجبل الأســود رأى بجانبه على الأرض كثيرا من النمل الصـــغير ، فقام يلتقطه الى أن أتى عليه ، شبع ونام ٠ وفى الصباح فزع على صوت عال يصيح : من يقف على رأسى ؟

(٥٣) لماذا فتحت عينيك ؟ أغمضى ؟

(٥٤) تحبين أن أكمل غدا ؟

(٥٥) كلا ، أبقاك الله ، من هذا الذى قام يصيح ؟

(٥٦) تلك هى السعلوه ٠ كان الغراب الصغير ينام على رأسها وهو لا يدرى ٠

(٥٧) وبعد يا أمى ، هل أكلت السعلوة الغراب ؟

ـ لا ٠ كان الغراب بارعا ، قام يتوسل اليها ، حكى لها حكايته من أولها لآخرها ٠٠ كيف طرده أبوه لأنه أسود تماما ، وكيف ظل النهار كله ، وكم هو تعب وجوعان ٠ لكن السعلوة لم تصدق حكايته أول الأمر وقالت له : ولد يا غراب البين ، سأجعلك قطعة لبان أو قطعتين ، لم أستطع أن انام الليل بطوله ، وقفت على رأسى تنقر يا ظالم ٠ قال لها : أنا بين يديك ، يتيم لا أحد لى ، وما ترين أقبله ؛ لكن يا حضرة جناب السعلوة أنا كما ترين ٠٠٠

ـ وهل السعلوة يا أماه سيدة متغطرسة ؟

ـ نامى يا بنت ، لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، ياربى ، متى تخلصنى من هذا الشـــقاء ؟ أغمضى عينك يا بنت ٠

(٥٨) نامى ٠٠ ســـأكمل الحكاية ، لكن لا تهبى كل لحظة ، أين وصـــلنا ؟ آه ، عندما قام الغراب يحـادث السعلوة قال لها ٠٠ لقد أكلت النمل الذى كان يمشى فوق رأسك وما كنت أنقر رأسك ٠ فرحت السعلوة عندما رأت الغراب الذى أكل القمل الذى كان يملأ رأسها فقالت له ، لك الأمان ، وقامت فنفخت عليه وجعلت لونه شديد البياض كلون الثلج ، وقالت له ٠٠ اذهب لأهلك فسيفرحون بك ٠ قالت له اذهب فقام الغراب ، أدار رأسه وطار ٠ هـ

* اليشماغ : « الكوفية »

(٥٩) ما بك ؟ أين كنت ؟

منزل النساء

بقلم : محمد خضير



اقتضت دواعى الشكل فى هذه القصة أن تنشطر الاحداث فيها الى شطرين ، شطر منهما يحتل النصف الاعلى من الصفحة ويحتل الشطر الثانى نصفها الاخر ، وكانت لهذا الشطر دواع فنية فى نظر الكاتب ، فاذا كان القسم الاعلى من الصفحة يمثل جريان الاحداث فى الوقت الذى تحدث فيه حاضرا ضمن حدود الوصف والحوار ، فان القسم الاسفل هو تعليق الشخصية الرئيسية فى هذه القصة على هذه الاحداث، اتخذ صفة مونولوج منظم ، أو حلم من أحلام اليقظة ، امتد على رقعة طويلة من الزمن ، وهو بدوره يكشف عن علاقات أخرى تنمى حدث القصة وتدفعه لنهايته ، وهكذا فاذا كان القسم الاعلى يمثل الاشياء المنظورة بحياد ، فان القسم الاسفل هو اسقاطات الشخصية الرئيسية النفسية على هذه الاشياء . هذا ما يلاحظه القارىء من خلال التوازن المنتظم للقسمين ، والقصة بعد ذلك لابد ان تقرأ مرتين .

صفوف الآجر المتآكل تنقطع بدعامات النوافذ الكبيرة القريبة من الأرض ، وينتشر الضوء من مخرمات ضلف نوافذ الطابق الأرضي المغلقة ومن نوافذ وشرفات الخشب في الطابق العلوي ، كما تلتمع أسلاك الكهرباء بهذا الضوء الداخلي أو بضوء المصابيح الحالية من المظلات المثبته بدعائم في شرفات الخشب وأضلاعها السفلي أو لفسحات الجدول الخالية من النوافذ • تبرز زوايا الغرف القائمة على جدارى الزقاق المتقابلين بقواعدها المثلثة في نتوءآت هرمية متتالية تتعامد أوجهها المشغولة بمستطيلات متجاورة مخرمة أو مقطوعة بأعمدة الحديد ، وتتقارب حتى تكاد تلتقى بما يشبه أسنان منشارين خشبيين ضخمين • ومن بين الأسنان المتقابلة تظهر فيما يبدو انها سماء • تحت سقوف الزوايا الناتئة يغذ رجل السير في قبو الزقاق ، يلتزم جانب اليمين ، وينعطف به الزقاق فيقل الضوء ويزداد تقارب الزوايا الركنية المتعامدة للغرف الناتئة وتبدأ بالظهور بين صفوف الآجر ، بمستوى رأسه ، كوى مستديرة مظلمة تتجمع أعمدتها الحديدية في مراكز مستديرة صغيرة ، وتتوزع الكوى على مسافات ثابتة ، تجاوز الرجل كوة تهدمت واقتلع حديدها وترك معوجا للخارج ، كما أخذت في الظهور على مسافات ثابتة أعمدة كهرباء تتوجها مصابيح تنير رقعاً محدودة في الجدران أو خشب النوافذ العلوية • غير أن الضوء كان يقل خلف مشبكات الطابق العلوى ، وتباعدت المصابيح فيما كانت أرض القبو تضيق وتأخذ في الانحدار الشديد نحو منعطف قادم توازيها في الانحدار قطع الآجر الصغيرة المتآكلة المستديرة الحافات في تسلسل رتيب انقطع في تجويف بوابة تهبط بسلالم داخل الجدار ، ثم تستمر الصفوف المرصوفة وفواصلها الملتحمة الفارغة والمحشوة بالظلمة في الانحدار بعد البوابة تؤلف جداراً عالياً خاليا من أية نافذة أو كوة يرتفع سطحه المتفتت المنقر كدرع مفصص حتى ينطوى في قمته المفقودة في شحوب ظلام السماء لولا أوتاد المزاريب البارزة للخارج أسفل أسيجة واطئة •

أفضى النفق الى رحبة مربعة مكشوفة ، محددة من جهاتها الثلاث بالشرفات والنوافذ الخشبية في الطوابق العلوية وقد حجبت أعاليها أبراج المظلات المخرمة السطوح ، أما الجهة الرابعة فيستمر ممر الزقاق في اختراقها • وهنا تلاحظ النقاوة الداكنة للسماء المنجمة ، وأنتبه الرجل

اسمى على ، من مواليد ١٩٤٥ ، أعمل موظفا في دائرة نائية عن مركز المدينة ، وها انى اخطو في زقاق آخر ، تحت سماء تبين من شق الزقاق كمملحة سوداء تحتوى على ملح اسود ، على أرض غير واضحة ، متغيرة بتلك الاشكال المهشمة المبهمة اللون : مياه وعلب فارغة وكومات من تراب او بقايا اطعمة واوراق ، نفايات ، حياة ثمينة غنية بظلال دخانية متحركة وثابتة في الفجوات وعلى آجر الجدران وتحت الارائك والصناديق والعربات وفي أركان درجات ابواب البيوت واعتابها وفي الاقفال ومطارق الابواب ، واشق طريقى بين انفاس الساكنين الاسلاف وقد تخلفت في ثقوب الجدران وممراتها وبين جسور السقوف وفي شقوق أضلاع النوافذ والاعمدة وفي العلب والقوارير وقطن الافرشة والصناديق السوداء المطعمة بمسامير برونزية وفي داخل الطاقات والكوى ، ومختلطة مع صدأ المزاريب والمسامير والخوازيق وحول المصابيح المختنقة بذرات ضوء تتكاثف في هالات جامدة • في النهار تفتح الابواب وتغلق دون سبب ، يتسرب منها الصراخ واصوات الماء المنهمر من صفائح مبعوجة وروائح الطعام الشهى وافرشة السرر المنقطة بدماء البراغيث وصفرة البول وتلوح خلف هذه الابواب مدة انفتاحها الملابس المنشورة على احبال الغسيل والصور والكتب والسكاكين والاطسات المرغوه بمساحيق الغسيل وأدوات الطبخ والفوانيس المطفئة والاشجار الصغيرة في حدائق مربعة وسط الافنية ، ابواب مشرعة للجيران والضيوف القريبين والبعيدين والعدادى مقاييس الكهرباء ولبائعى النفط ونازحى الفضلات كما تسدل ستائر بيضاء وملونة خلف ابواب واطئة غائرة ومرتفعة بدرجات في جوانبها صفائح الزبالة وتلال البراز واطفال وسخون . سطوح عالية ، سطح اسفل سطح ، وسطح بجوار سطح ، بمستوى الهواء الصباحى المنعش والشمس المبكرة . سماء شتوية اليفة وصريحة أكثر قربا بتلك الكتل الضوئية التى يتبدد نورها الاصيل الوديع في مجار لا مرئية تترشح في الرحبة المكشوفة . ليل بديل لنهار أبدى ، ليل متسع ومتصل يحل دون ان ينتبه اليه أحد ، فاجر وغير علنى ، تؤدى اليه الزخارف والاقواس اسفل القباب والشرفات ، تسيب في أواخره الكلاب في الشوارع والساحات المشوهة . حل هذا الليل في راسى وطرد الليل الآخر المليء بالوساوس الذى رافق نشاتى في الريف . سنوات الاغفاء الجنوبى ، على سقيفة مطلقة تحت النجوم المريبة ، كنت استمع لحكاية احد الملوك من امراة مالعلها أمى وقد ختمت الحكاية بأن كفنت الملك الاسطورى بحرير اصفر ونثرت جسده بالازهار ثم دفنته في قاع نهر اخضر ساكن .

وانهت المراة حكايتها حين بدا الطل يسقط آخر الليل ونهض الآخرون يتثاءبون لافرشتهم فوق اسرة من جريد النخيل وقد بردتها ابخرة الانهار والسعف ، وبقيت في استلقائى اليافع العذب في اغماضة مغتصبة وسط جدث من ازهار الرازقى والاشرفى وقد احاطتنى كستارة بيضاء لا تنتهى عندما مر طائر (الشقرق) ناعقا داعيا للاسرة بالفناء ، ثم كنت اغيب في مسيرات

لكلاب نحيفة طويلة الأجساد والأرجل تخوض في مياه محجوزة وسط الرحبة ثم تتسكع ببطء شديد وتقترب أحيانا من الزوايا المظلمة في أركان الرحبة حيث بالامكان تمييز صفائح القمامة • بقعة الضوء الوحيدة كانت معلقة عبر نافذة علوية ترتفع بمستوى نصف طابق عن نوافذ الطابق الأعلى المستطيلة المتجاورة المستقرة في فواصلها باتساقات متشابهة تشكل قممها المقوسة خطا منحينا بارزا في الخشب قرب حافة كورنيش السطح المقرنسة• تشغل النوافذ المطفأة تلك واجهات ثلاثة بروزات مستطيلة متجاورة تبدو انها تخص ثلاث غرف علوية • كذلك أطفئت نوافذ الطابق الأرضي المطلة على الرحبة في جانبي الباب • يضيء مصباح في طرف قضيب مقوس أعلى الباب الذي يتراجع داخل عقد مدبب من الآجر كنعل الفرس يتدرج من مستوى الجدار ويتحدد بوزرات متعارضة الآجرات ويرتكز على ضلعين من المداميك الملساء المستديرة الحافات يوضح الضوء فيها مسامات داكنة • وفي منخفض العقد تبرز زهرة منتظمة من الآجر الدائري وسط زخرفة من النجوم الصغيرة المتماسكة في حشوات بارزة • كان اختلاف ريازة واجهة البوابة بتنوع مستويات السطوح ويوزع الظلال أسفل حافات العقد المدبب والزهرة المتفتحة بين النجمات الآجرية والمسامير الحديدية الضخمة التي تصفح الباب وأسفل مطرقتي الباب اللتين تمثلان طائرين من البرونز الأخضر مضمومي الجناحين • ولم يحاول الرجل أن يحرك أحد هذين الطائرين من مكمنهما ، اذ كان الباب مواربا يأتي خلاله نور من داخل المنزل ، كما يأتي هذا النور من كوة تنفتح في قمة العقد المدبب •

في الركن خلف الباب كانت الحنفية تصب خيطا رفيعا في صفيحة طافحة بالماء ، فأوقف الرجل تدفق الماء ، ومشى في الدهليز المستطيل على أرض غامضة بالعثرات الوهمية ، وكان نور داخل المنزل يلامس جداري المدخل والسقف المعقود ويتغلغل في الجص المتقشر الذي كان يتهيأ كي يتفتت بالرطوبة ويتجمع بعضه في كتل منتفخة • كان المدخل خاليا من النوافذ والكوى عدا حنية واحدة كبيرة معقودة في نهاية الدهليز بمواجهة المنعطف الذي سيؤدي بالمدخل الى الحوش نحو اليسار ، لذا فان الضوء ينحرف نحو جوفها ويظهر الحفر المشوهة لنظام رصف الآجر المختلف • اكتشف الرجل كلابا دقيقة وطويلة أخرى في فناء المنزل المستطيل المكشوف في

مشعة بين كومات من التراب عبر الانهر حتى اتلاشي تماما ولا اتعرف على روحي التي اندمجت مع الابخرة المتصاعدة من الثقوب المظلمة في صفحات الانهر المظللة باوراق الاشجار الكثيفة التي تصدر حفيفا يرافق روحي في تجوالها خلال الحياة الليلية بين الادغال المظلمة .

الضفادع المتناسلة ، طبول النساء في حلقات الرقص الديني ، أشباح العجائز الساحرات في المقابر ، اللصوص .

حتى اذا كانت روحي تعبر دربا ضيقا بين حائطين متهدمين سمعت الهمس المبهم المخنوق للارواح الاخرى المدفونة سرا في الاسس العريضة تغادر امكنتها فتهز اجراس السعف وتتجول حول ناموسيات واسرة الاباء والاجداد وترقب امهاد الاطفال وأفرشة الامهات ، فاذا نهضت الاخيرات عند الفجر لايقاد التنانير وخبز العجين اسرعت الارواح التائهة لمستقراتها في الخرائب وتجاويف الجذوع الخاوية وفي اكواز الحبوب او الملح وفي قواقع الانهار وزيران الخل وقوارير ماء الورد . يختفي ذلك الليل الغامض في راسي ، كما اختفى وجه امي وابي واخوتي في مفترق سن العاشرة والسنوات اليانعة التي تلت حين خطوت خارج الريف الى داخل الازقة والغرف المستطيلة الواطئة كاسطبلات عثمانية ، عندما هيأت نفسي للدراسة المتوسطة في مدارس المدينة .

آخر وجه لامي كان وجها غير واضح أتت على ملامحه الاشعة النقية للشمس : لاح محاطا باوراق العنب يخترق فواصلها بريق الشمس السريع فيؤجج الحمرة القاتمة في شفتيها المطليتين بصبغة قشور (الديرم) وخضرة سلسلة الوشم الممتدة من اسفل حنكها عبر جيدها مندسة بين الثديين على شكل صلبان دقيقة خضراء تختلط بلون الجلد الفتي المضمخ بعبير الياس وصابون (الرقي) طالما كنت اعبه مع الحليب من حلمتيها مع العجب المبكر الغامض والذعر من التوهج المباغت لفصوص الخواتم في اصابع اليد التي ترفع الثدي .

امحى ذلك الوجه المتالق كوقع شيء يسقط في الماء . تسقط ثمرة (النبق) من شجرة السدر الشائكة وتبقر مستوى السطح الهادىء للماء ثم تظهر عليه ثانية وهي في ارتطامها تترك ذلك الوقع الكئيب القصير وتلك القطرات التي تقفز حول موقع السقوط وتنهار عاجزة عن التعلق جامدة في الفراغ الساخن . وبعد ان فقدت تماما ذلك الوجه المضيء فاجأتني وجوه نسوة اخرى ، وجوه هادئة ومفشاة بالذعر ، ضاحكة وغاضبة ، متورمة ومحتضرة ، وجوه تندمج ملامحها وتضيع كاختفاء المناظر من نافذة قطار سريع ، فقدت فيها ثانية المعنى الاخير للامومة الذي حاولت النسوة ان يفرضنه على ذهني ويفرغنه في جسدي القاصر عن الاستجابات السريعة .

ذلك البطء الذى يجبر أبوازها على أن تتحسس الآجر المربع المرصوف دون صوت ينقض السكون الذى يحل ، (**خشب أخرس**) ، وبعضهـا كان ينتقل فى شحوب الأروقة المحددة بأعمدة اسطوانية ذات تيجان كنواقيس مقلوبة مزخرفة بموشورات ومضلعات تختفى فى ظل السقف الذى يرتكز على هذه التيجان • ومثل هذه الأعمدة تحمل سقوف أروقة الطابق العلوى فى ثلاث جهات وتثبت اليها أفريزا مطلا مشغولا بأعمدة حديدية ذات تنويعات هندسية وزخرفية من الأشكال **البيضوية** المتكررة الملتفة حلزونيا لصق محاور عمودية ، ويلتقى الأفريز بأعمدة ضخمة فى الأركان التى ينكسر فيها الى جهة مغايرة • بينما تطل على الفناء فى الجهة الشمالية نوافذ طولية منزلقة عموديا على فواصلها الجانبية•

أظلمت الأروقة السفلى وأوصدت فيها الأبواب والنوافذ أو تركت دون غلق كى تشير الى هجرة الحياة الى مكان آخر من المنزل • نور مصباح الفناء لا يمس الا حافات الافريز الناتئة قليلا ويعبر جزء قليل منه أشكال الحديد دون أن يكشف فى الرواق العلوى شيئا من المجهولات المظلمة فيه •

كان حذاءا الرجل يتحركان فى الرواق الغربى المتعامد على الضلع الشمالى المضاء وقاربتا نوافذ مفتوحة فى أرض الحوش بجوار حد الظل فى نهاية الرواق • ثلاث نوافذ صغيرة مستطيلة متجاورة على أبعاد قصيرة مشبكة بحدائد فى اتجاه متواز واحد ، هى للسرداب الذى فقد منفذه فى ناحية ما قرب الغرفة الأخيرة فى الرواق التى يرتفع بابها خلاف الغرف الأخرى بعدة درجات وهو مرتج بقفل كبير من الرصاص • وفى النافذة الكبيرة الوحيدة لهذه الغرفة تحطم الزجاج فى نصف دائرة ذات عوارض كعوارض عجلة معبأة بفراغ مظلم ، تتوج مستطيل النافذة •

انتهى الرواق بدهليز قصير معتم ، وعثر الرجل فيه على أول درجة لسلم غير متسع بين حائطين تبقع طلاؤهما الجصى الهش بقبب خشنة السطح تأخذ فى التفتت والانهيار كلما استندت يد الرجل الصاعد فضغطت عليها • وتتسع احدى الدرجات فيما يشبه رحبة مستطيلة تهدم الأسمنت الذى يبلط أرضها ، وينتهى عندها النصف الأول من السلم ، وقد اصطدمت قدم الرجل وهو يستدير فيها بسطح جسم خفيف أفلت من حافة الرحبة وغاب فى عتمة الدرجات

امومة قاسية رهيبة ، تجعلنى ارتعش . كما فقدت كذلك الهدوء العميق الذى جلبته معى فى دمى ، وتسمم دمى بالعنف اللذيذ .

هاهو هدوء مخيف فى هذا المنزل . هدوء من يستلقى بين ذراعين على فراش واسع تحيطه رمانات السرير النحاسية ويشم رائحة الثياب وقطن اللحاف والوسادة المحشوة باشلاء اصوات بعيدة غامضة ومبهمة ، هدوء موضوع على مواعين خزف وفى آنية فخارية ، يغمرنى تحت جذور اشجار الرمان المطلة على نهر اخضر يخترقها مجراه بصعوبة ، تحلق حولى مواعين هواء جامد تلمع كانصال سكاكين معقوفة تحملنى على الاستلقاء فى الفيء المطبوع على تراب خصب متماسك تحت ازهار حمراء كشفاه تزداد حمرتها فى بريق الشمس بين السعف ويرفرف حول تمدد جسدى جلال ساكن ورهبة مرجفة للمناطق الحساسة فيه خيط من هذه الرجفة الغريبة اللذة يقطع جسمى الى نصفين ويحشونى بالغفو .

وفى داخل قبر تلمست حولى التراب الناعم منتظرا ماتوقعته العائلة من قدوم الارواح التى ستعطينى مااكتسبته من حياة قوية سابقة وتصب فى عظامى عصارات الاجناس المختلفة وتضخ فى جسدى العليل النضارة المفقودة لجميع الموتى ، فكبرت وجسدى يمتلك تجارب الحيوات العديدة ، تمردها وتطلعهـا المجنون وعدم استقرارها ، وحتى لو دمر جسدى تدميرا كاملا فان الحياة العطرة فيه لن تكف عن الانبثاق والتدفق وستستمر روحى فى توليد الرغبات المجنونة والطواف فى شعاب غير محددة ، طرق شديدة التعرج ، كطرق الفجر الاقدم ، اجدنى فيها جالسا برهبة على صخرة او تل طينى ، سائرا فى درب ترابى متلو بين النخيل تحده حوائط واطئة ممشطة بالسعف أتبع الفوانيس الباحثة عن حلقات رقص الغلمان بين جذوع النخيل المنتصبة ، اجدنى فى سوق مكتظ تكون جميع الاشياء فيه واقفة للاعلى متوازية ومتداخلة ، محشورا فى مقهى مطلى بدهان لامع ورسوم الازهار فى زهريات ذات عرى وبصور النساء المرتديات الكفافى والعقل وقد وشمت احناكهن بوشم الحلاوة المفتلم ، قابعا بين الارائك على حصر متينة العيدان ، منطلقا فى سيارة على التراب المتصخر يختلط الطعام غير المهضوم فى معدتى للهزات المفاجئة الموخزة ، متدبدبا فى عربة قطار ليلى يجرى فى صحراء ، متوسدا حذائى وحقيبتى فى بنايات المحطات النائية ، اجدنى على السفن والابلام فى جراديق التمر ، فى الخانات الطويلة المرصوفة الاسرة دون حواجز يسمع فيها الغطيط واصوات البطون ، فى الفنادق المنزوية ، الحدائق العامة ، الساحات وتقاطعات الطرق ، سراديب الدور ، دور السينما والملاهى .

حياتى تلك التى انظمها فى خيط رفيع ، فللخرز لون الحياة المتغيرة كل صباح ، وكان للماء الموضوع فى اغلفة الطلع الغضة المبردة فى الظل رائحة الحياة .

هابطا الحافات المتوازية . ونبهت القفزة المفاجئة الرجل لدمية في ركن الرحبة ، ولمسبحة دقيقة الخرز سوداء معلقة بمسمار داخل طاقة مرتفعة لليمين تعلو الرحبة ، منها ينحرف السلم لليسار ، وقد تقشط الجص من الجدران وظهرت السطوح المحدبة للآجرات المستطيلة المرتكزة بعقادة متغايرة ابتداء من السقف وحتى الخط المنكسر للسلم الذى كان يحدد زمن ارتقاء قدمى الرجل بين درجة ودرجة بنقلات قصيرة جدا ، لقله ارتفاع الدرجات ، ويبدو أن الرجل كان يقيس ارتفاع هذه النقلات دون أن ينظر للحافات التى تفاجىء قدميه ، اذ انه يتطلع للفتحة المستطيلة حيث سيجتاز عقادة آخر السلم . وهنا أصبح واضحا صدور أصوات مكتومة لا تتسق فى تتابعها ، كتثاؤب طويل مخنوق أو انين ، من تجاويف عميقة . وشاهد الرجل كرة صغيرة (الجسم الذى انقذف فى رحبة السلم) تستقر على بلاطات الحوش المربعة التى تتصل فواصلها الدقيقة . بمحيطات متداخلة يحصر أصغرها ثقب البالوعة فى وسطه . ومع ان الطابق العلوى لا يرتفع الا خمسة أو ستة أمتار لكنه ليس بالامكان التأكد من صدور الأنين المخنوق عن قطيع الحيوانات المتنقلة فى الأسفل وهى تقيس بخطوات أرجلها المغمدة الطويلة المتمهلة المساحات المتدرجة بالنور ، وتسحب خلفها ظلالا طويلة .

يستمر السلم الرئيسى فى الصعود ولكن الرجل تراجع لفسحة السلم المتصلة بأيوان مستطيل يحفه جدارا حجرتين من الجانبين ، ويخترق نور الفناء النوافذ المشبكة التى تحجز الايوان مجزءا الى عديد من الثقوب على آجر أرض الأيوان غير المفروشة . طغى النور الذى تفجر من مصباح الايوان المحاصر بالأنين . الغرفة الى اليمين : مرآة فى خزانة ثياب عالية وسرير عريض وعوارض خشبية فى السقف المرتفع وأشياء أخرى لا ترى بمعونة الضوء النافذ من الايوان .

غرفة اليسار : أجساد صغيرة تستلقى على الأرض دون نظام ، يسيطر عليها سلطان من الغياب يشل حركتها فى وضع مستقر على الظهر يجعل الوجوه باتجاه السقف مباشرة أو بانحراف قليل للجانب . شرع الرجل الباب بأكمله فاعتلى النور خطافا ذا ثلاثة رؤوس حادة معقوفة يرتكز فى جسر من جسور السقف الخشبية المتعارضة على قطع خشبية متراصفة طوليا . استمر هذا

ثم كانت رائحة الحياة تنبعث من أوانى الفخار المغطاة بقبعات الخوص المنقوش ومن سلال الجريد الملونة التى تحتوى ملابس قديمة متوارثة ، ثم اتضحت الحياة فى نماذج الرجال والنساء ، انبثاق الجديد من رحم القديم ، عمليات الوضع ، موسيقى أبواق العرس والختان ، الدماء الساخنة وعرق الاعضاء الشعرة ، الجلوس فى شمس الشتاء . ثم أجبرت بقسوة على شم روائح الحياة الجديدة ، ولم تكن روائح طليقة بل شديدة العفونة ، لا غفو فى الفىء بل محض ضجيج وصراخ وانين واكداس من الاجساد التى يسيطر عليها نوم ثقيل كالموت ، ولم يشطر خيط الرجفة المحببة جسمى الى نصفين بل هزته الرجات العنيفة المفاجئة ، لقد تكشفت الاسرار ..

«ابحث عن مكانك» .

الويل لمن لا مكان له فسيكون ملاذه في القحوف والجحور والقواقع .

« أين مكانك ؟ »

كانت تتولانى الرجفة عند كل غروب شمس فابحث عن مكانى .

« ابحث عن مكانك »

بذلك كانت تنادينى الاوراق اليابسة وضفادع الانهار وصراصر الحيطان ، ونادتنى بذلك النيران المشتعلة فى جبهات المدينة حين وصلتها أول مرة أحمل صرة ثيابى وآخر ما رأيته فى بيتى السابق كان خنجرا معلقا ومسابح سوداء ولهبا مرتعشا فى رأس قنينة .

أصبحت متلائما مع الرجات الحية ومتداخلا بتبدل الليل والنهار ، مجوفا للصدى وعاكسا للنور ، خاضعا للنظر والمشاهدة ، متهما بوطأة المواريث ، دائرا عبر ممرات مظلمة ذات نوافذ موصدة متكررة فى وحدات هندسية تلتقى وتتداخل كمتاهة خشبية عزلت فيها تماما عن أصوات العالم ، وسادع الفرصة لحواسى كى تستطيل وتأخذ كل الاتجاهات كدورق ماء يندلق فهو يستطيل ويتفرع وتنفرز عنه زيادات طائشة تأخذ كل اتجاه ، بسرعة لاواعية تتوالد وتتشاطر ، انا لا أعرف ماهى حواس التى أطلقتها أمامى كالكلاب المدربة ، حواس همجية فطرية .

امسك الآن فى وضوح بذلك الشعور المبهم الذى يمتلكنى كلما ارتفعت بى السلالم ونظرت من الافريز للاسفل : يهولنى ورم الارض تحت أنفى وينفتح القرار الاسفل للرغبة ، الرغبة فى الاكتشاف والحركة .

الوضع المختلط قليلا ، في الفترة التي كان الرجل يفتح فيها الباب لا يظهر أية رغبة في ادارة زر الكهرباء أو التجول بين السيقان النحيفة المكشوفة والأجساد المستقرة المرقشة بأشكال ضوئية اكتسبتها من ثقوب النوافذ التي تفصل الغرفة عن الايوان ، في ذلك الوضع الذي يجعل أعينها (٠ نصف المفتوحة) مركزة على التواء الخطاف وظله الطويل الذي يعبر عوارض السقف ، أما تلك الرؤوس المنحرفة فهي تميل عن محور الخطاف (وتتنفس بصعوبة في صفير حاد بطيء وطويل) ، وغير الأطفال فالغرفة المتسعة كانت خالية من الأثاث ، لذا اتضح في فيض الضوء الخارجي القليل عرى الجدران والنوافذ المقسمة الى ضلف مستطيلة عديدة مشبكة وممزجة في أقسامها العليا ٠ وفيما كان الباب يستقر مغلقا لاحظ الرجل قشورا جافة تنتشر في رقعة كبيرة أمام باب الغرفة ٠ وانحنى لتلتقط القشور ويتفحصها ، (قشور ثمار النوام) ٠

سار الرجل في الرواق الغربي الذي أضاءه باتجاه الضلع الجنوبي ، واجتاز ممرا ضيقا بين حجرتين مغلقتين ومظلمتين ، وكان يرطم كرات مطاطية صغيرة يفلت بعضها من حديد الافريز ويسقط للاسفل ، وبدلا من ان يواصل الرجل اتجاهه فيصعد سلما ينهى الرواق ، انحرف نحو ايوان مستطيل واسع آخر ، قوام جدرانه بابان لغرفتين على الجانبين ونوافذ طولية متقابلة مغلقة وساكنة ٠

في منتصف الرواق الشرقي اجتاز الرجل ممرا آخر بين حجرتين ، سائرا للأيوان الشمالي بدورة أخرى في الرواق الخارجي وكان يفتح الغرف التي اغفلها بضغط خفيف من يده ، غرف خالية واسعة ، سقوف خشبية شاهقة ، بلاطات منقرة وجدران خشبية أو آجرية ذات طاقات مغروزة بالمسامير المعوجة والمصابيح المطفأة أو ضعيفة النور ٠ وغرف أخرى مفروشة بأبسطة وتحتوي على مرايا كبيرة وأسرة حديدية واسعة مرتبة ذات أغطية ووسائد مطرزة ، اطارات صور وارائك وسلال خبزران وملابس معلقة ٠

عندما كان الرجل متوجها نحو الايوان الجنوبي، ظهر في نهاية الرواق جسد أسود لامرأة ضخمة اسفل الدرج في الركن ونادت على الرجل :

ـ لماذا تضيء المصابيح ؟

توجه الرجل اليها مسرعا وهو يصيح :

امسك بعفونة الممرات الرطبة المظلمة المؤدية الى دورات المياه والتي تنتهي باقبية الحمامات الضيقة ذات السقوف الواطئة والجدران المتحجرة الخضراء الخالية من النوافذ ، تنحشر داخلها الطسات النحاسية والدكات والامشاط الخشبية ذات الاسنان الطويلة وليف التدليك ومنقوع « الطين خاوه »وعلب ازالة الشعر والاحواض الاسمنتية .

امسك بآثار الصراصر على الآجر والخشب ، تقشرصباغ الابواب ، وبآثار الاقدام على البلاط المتآكل وبآثار الاصابع على الافريز .

امسك بروائح الغائط والبول ، بروائح الثياب المخزونة والاتربة المنهارة من الجدران والسقوف ، الخشب المبتل ، الاجساد البشرية .

ها انا امسك بوجه أسود ملفوف بفوط سوداء تنسدل على الكتفين . تكنس ازيال ثوبها خلفها . ازيال الدرجات وطين الاحذية المتخلف على حافاتها . لاتحدث رجلاها المدسوستان في جوارب سوداء مثقبة اى خفق .

في الصيف كانت تمشي حافية ، تترنح كبطة ملطخة بدخان زيتي . اول من عرفت حين دخولي المدينة كانت « عوفه » . قالت :

ـ الست ابن عواشه ؟

ولم اكن اعرف من هي عواشه .

قلت : نعم .

تثرثر باستمرار عن امراة اسمها عواشه . انها تتكلم باستمرار وظننت انها الوحيدة التي ساستمع اليها حتى مماتي . لا يبدو انها تهرم ، وانا اراها الآن كما رايتها اول مرة ، امراة عتيقة من مئات السنين . قطرة سوداء مشبعة بروائح حادة : روائح الادوية المحلية ودماء الولادة وعتق الاقبية والتبغ الذي تمضغه باسنانها . حين اقترب منها يسد وجهها على المنافذ ؟ كخرقة فضلات يابسة او كفلينة سوداء ذات مسامات مسدودة فلا يعرق او يتنفس ، يبكي بلا دموع ، كانت عوفة تبكي باستمرار في بطنها . ولطالما كنت لصق جسدها ، على الافريز .

ـ لقد نسيت تلك الغرفة فوق • هل انتم فوق فيها ؟

ثم وهو يتقدم قال كذلك : ـ لقد نسيت الغرفة تلك تماما •

ثم قال : ـ امى عوفه •• كيف حالك • هل ترانى عيناك بوضوح ؟ أنا ابن عواشه •

صاحت الامرأة السوداء : ـ ابن عواشه • ؟ يا ابن عواشه الناكر • تعال هنا لأراك يا كافر •

قبلته بشفتيها الضخمتين اللامعتين ببلل اللعاب وهى تقول بانهاك :

ـ ابن عواشه •• اين كنت كل هذا الوقت •• تعال فوق عن البرد •

ـ ليس الوقت باردا •

استمرت فى الكلام وهى تقوده من يده ، وبينما يستمر السلم فى العروج الضيق للسطح ، نقلتهما فى منتصفه رحبة عند اليمين الى غرفة مضاءة ، مليئة بالنساء •

تطلعت النسوة للرجل بصحبة الامرأة السوداء بحركات احتماء خفيفة •

وقالت (عوفه) : ـ هذا ابن عواشه • رفيقتى عواشه من زمان راح •

تخلت امرأة عن كرسيها للرجل وجلست على بساط الأرض ، وكان كرسيا اسود واطئا ذا مسند مرتفع فارغ • كن سبع نسوة يتفرقن حول منضدة واطئة اقتعدها طفل مرفوع الثياب حتى منتصف ظهره •

قالت امرأة : ـ لقد احسست بدخول أحد •

قال الرجل : ـ ان كلابا فى الأسفل • باب الحوش مشرع •

قالت عوفه : ـ دعها •• دعها • فقط لاتصعد لفوق •

قالت امرأة : ـ أبواب غرفنا مفتوحة •

قالت عوفه : ـ ستجدونها على الاسرة •

فلم يكن لى اول قدومى فراش لوحدى ، فارى ذلك الوجه القريب جدا من عينى تتموج طياته الرخوة باستمرار وتشكل ظلالا قاتمة ويتجه نحوى منخراه الواسعان وعيناه الفائرتان ، حينذاك اتخيل ذلك الجلد ذا المسامات الواضحة تعبره الهوام والصراصر الحمراء فتترك عليه آثار ارجلها وشواربها ، وبقيت ارى تلك الآثار الدقيقة كلما خرجت « عوفة » من ممر دورة المياه وكانت تخبرنى :

ـ لا شيء يخرج من بطنى .

لم يكن غيرى يعرف محتويات غرفتها ، صناديق عديدة سوداء مقفلة ، حين فتحت احدها بحضورى رأيت الادعية والمسابح والتعاويذ الجلدية والادوية ، وحينما التفت رأيت القنانى الصغيرة التى لم تحركها يوما من امكنتها ، مليئة بالازرار المختلفة الحجوم والالوان وبالدبابيس او المسامير وبالخرز وبالوريقات المطوية وبالتبغ والرماد والادوية والخيوط وباشياء مجهولة اخرى .

وعبر راسينا القريبين كان ينتقل شلال من الاصوات الساكنة الواخزة ، على وسادة محشوة بالنواح وبصراخ الوريث الخفى المستعبد وباحتضارات الكائنات التائهة : شخيرى وتنهدات امى وصرير الابواب وآذان كل فجر وصياح الديكة ونباح الكلاب وهمهمات العجائز ثم تكسير العيدان فى التنور وارتطام العجين بالراحات الماهرة ، بحة الامهات المزكومات الحبالى والمتخمات بغازات الكرات والفجل وماء الانهار المسدودة ، اهازيج جامعى التمر وصفعات الاجسام العارية لماء الانهار المتلئة بالحشائش ، الهلاهل والدرابك والطبول ، الولائم العشائرية وطلقات البنادق القديمة ، انبجاس الدم ، انسحاق الحنطة والرز فى الجاون ونخل الطحين بالمناخل ودوران الرحى الصخرية المنقرة ، صليل الاساور والقلائد والاقراط والخلاخل ، لطم الصدور ، وقع القباقيب الخشبية ، صرير المهد ، الادعية والتلاوات والاهازيج

كان فمانا القريبان يتكلمان معا باستمرار ، فمها الضخم كلمنى عن سم الجرذان والقرمز ولبخات السدر وعن القمل والنساء ، وكنت اندفع فى الكلام عن بولى الدموى وعن الدروس الجديدة وعن الطلاب الريفيين من زملائى الذين قدموا معى للدراسة فى متوسطة المدينة .

فى الاصبحة الشتوية كن يبحثن عن البقع المشمسة فى الحوش ويقعين ناعسات ، ثم تبدا لذاذات النهار ، الطبخ وكنس الحوش ورشه وترتيق الثياب وغسلها ، ثم الاستحمام والانضمام لاحدى حلقات النسوة امام الابواب الخارجية على جانبى الزقاق او حضور مجالس الفاتحة والعزاء وزيارة الاضرحة ومشاركة الاعراس وتفقد الجيران فى بيوت باردة

عجالة عن

القصة العراقية الحديثة

بقلم : محمد مستجاب

فى الطريق من بيروت الى بغداد ـ الصيف الماضى ـ وفى سيارة مصابة بالتواء فى الصدغ الأيمن ، التقيت بشــاب يونانى مرح ســاخر يتعشق الأدب ، سألته عن القصــة القصيرة فى اليونان فقال وهو يضحك : لقد ذبح تشيكوف كتاب القصة فى اليونان حتى الخمسينات ، وأنا متأكد أنه قد مد المذبحة حتى كادت أن تشــمل العــالم ...

ورغم عــدم ميلى الى تعميم الأحـكام ، فان التعبير ظل مسيطرا على ذهنى خلال الفترة التى قضيتها فى العراق ، وقد صارحت بعض الزملاء العراقيين بمدى تسلط هذا التعبير على خــلال قراءاتى لهم ، الا أنهم تحفظوا فى قبول ذلك الحكم (اليونانى) وان لم يتحفظوا فى مناقشته ...

ان الكثير من الأطباء والمحامين والمدرسين وصغار الموظفين قد تهشمت شخصياتهم وانسحقت وهى تواجه مصــيرها محــاوله أن تعبر عن فئتهــا المغمورة (١) ولا يمكن لنا الا أن نكرر ما ردده نقادنا كثيرا من اصابه القصة العربية ـ عموما ـ بهــذا السرطان التشيكوفى ، حتى أنهــا فى محاولتها القفز فوق أســوار تشيكوف سقط البعض منهــا داخل مستعمرات أخرى لموباسان وشتينبك وهيمنجواى وفوكنر ، عدا قلائل فى الوطن العــربى ، هــؤلاء الذين استطــاعوا أن يصنعوا ـ ويقيموا ـ مستعمرات خاصة بهم ، بل أصبح لبعضهم معاطف يمكن أن يخرجوا من تحتها أبطالا (ذوى أحاسيس خاصة جدا بهم) .

وبغض النظر عن الدخول فى التفاصيل فان أرضية الأدب العراقى عانت من نفس المرحلة التى عانت منها ـ وفيها ـ أرضية الأدب المصرى ، (فان محاولات البعض التشبث عن جهل وعدم قدرة واعية للخلق بأذيال التشيكوفية ومحاولتهم اليائسة المضحكة لاستدرار عطف القراء واعجابهم وتأثراتهم السريعة المبــاشرة لكتاباتهم لهى فى الحقيقة تزييف مشين لمفهوم الواقعية كمدرســه أصيلة تتبنى بصدق هموم الإنسان) (٢) هــذه المحاولات هى التى أدت ـ بقواها وضغوطها الى التيه الواسع الذى تشتت داخله القصة العراقية زمنا طويلا ، لا تستطيع أن تجمع خلايا كيانهــا رغم المحاولات البطولية الخلاقة التى قام بها جيان وفؤاد التكرلى .

لكن مذبحة تشيكوف (دعونى أستخدم هــذا التعبــير) تــكاد تــكون قد توقفت تمــاما فى الستينات ، حيث ظهر موسى كويدى وموفق حضر ومحمد خضير والربيعى وادمون صبرى وخضير عبد الأمير ، أقول (تكاد) لأن بقايا المذبحة تظهر أحيانا فى هذه المناوشات الفرعية بين أبطــال قصص حديثة وبين أبطال تشيكوف لكنها لاتزيد عن مناوشات لا يلبث الــكاتب أن يركز جهــده ليعضد أبطاله ويصنع تفرده .

ففى مجموعة موفق خضر (مرح فى فردوس صغير) نجد الشعور بالشلل والاحباط يطغى على أبطال المجموعة القصصية ، حيث يصبح العجز عن الحل هو الحل ، فالدوار يضغط على الرءوس ودقات الملل تفتت الســعرات الحرارية لكيــان الفرد ، هذا التفتت الذى يصبح فى حــد ذاته معبرا رئيســيا لفهم معظم القضــايا الخاصة أو العــامة ، حيث تترك الأمور تنساب فى سلبية لزجة من خلال التعود المؤلم للواقع ، وتعد قصة (العصافير) أنضج وأرقى ما فى المجموعة ، رغم عدم قدرة الكاتب الشاب على المخاطرة باستخدامات لفظية حــديثة أو اضافات تكنيكية خشــية أن تصبح عبثــا على أسلوبه الذى ظــل محافظا على انشائيته الهادئة ..

تناهت اليهم موجة من الصفير ، خافتة ثم واضحة ، قالت امرأة :

ــ انها صفارة انذار .

فيما كان الصفير ينتقل في غرف المنزل ، انقطع التيار الكهربائي ، واختفت الغرفة في سواد تام اتصل بأنطقة الظلام المحيطة من الخارج، والغى الاوضاع الواضحة للنساء وبقية اشياء الغرفة .

ارتفع صوت امرأة من مكان ما : غارة وهمية .

ثم توالت الأشكال السابقة في الظهور بنور شمعة في يد عوفه يضيء لهبها وجهها الداكن ، كانت تقول : ــ أعرف دائما أين أضع حاجياتي

كان الخطاف يخترق حافة دائرة النور بشعبه الحادة ، وكانت تسمع اصوات مدفعية وهدير طائرة قريب وسريع ، وترتعش الشمعة التي تستقر على المنضدة بظل اسود على الصبغة البنية الداكنة لخشبها المشقوق طوليا بشقين متوازيين غائرين الى جانب ظل جسد الطفل الناقص من الرأس . وعلى مسافة أخرى ، اختلاط غائم وضخم لبقع الأجساد السوداء التي ترتقي الجدران .

كان الظلام قد تجمع بعد انسحابه خلف الباب المفتوح ، في حين كانت النيران المحجوزة للطباخ تتسرب من الزاوية في توهجات غير واضحة .

اطلت عوفه تحت المنضدة ، فقالت امرأة : ــ سقط شيء أمي عوفه ؟

قالت عوفه من الأسفل : ــ لا . ظننت أن هناك من يختبيء اسفل المنضدة .

ضحكت النسوة . قالت عوفه : ــ هل نحن بحاجة لنار ؟

قالت امرأة : ــ الوقت دافيء ولا حاجة لغلق الباب أيضا .

قالت عوفه : ــ اني ارتدي ثلاثة اثواب وثلاثة سراويل .

ضحكت النسوة ، وهي تستمر في الكلام : ــ دفئن اجسادكن . وسنشرب شايا بعد قليل .

قالت امرأة : ــ نحن بحاجة لكراسي أخرى نشتريها من المزاد .

اقتربت عوفه من الشمعة وأحرقت أطراف عيدان من البخور .

النهدين وتحت الابطين ، تحت الثياب المعرقة عطر الطلع والقداح ، عروسة ذات اسنان بيضاء واضلاع غضة واظفار دقيقة ، ذات اقدام لم تطأ عتبة الدار ولم تطأ الاماكن الساخنة ولا الرطبة ، لم تدخل الظلمة بدون فانوس ، ولم تسمع غير ما قيل لها بصوت عال ، فتاة من القطن ، محشوة بالقطن ، مسدودة وكاملة ، تخطو باحتراس وتملك الشجاعة والصبر ، لها شعر منسرح لم تعبث به امشاط الشياطين ولا مناقير الغربان ، لم تعرف الا رائحة الازهار البرية ، تحفظ عن ظهر قلب الصلاة والدعاء ، تقعد ببطء وتقوم ببطء ، لجلدها ملمس الحرير ، اذناها بوقا الرحمة لم تسمع بهما غير حفيف الاشجار وخفق اجنحة الطيور ، فمها مسدود على جمر بارد وكلماتها ساخنة ذات رنين ، انفاسها تسيل الشمع ، راحتا يديها بلا تقاطيع شريرة ، عيناها قطعتا ماس ، عروس تسقط النجوم على ناموسيتها كل مساء صيفي وتفيض أشعتها فتعيد اقلبها توقده ، هناك نجمة بعيدة تحمل ماضيها ونجمة تحوي أيامها القادمة ونجمة تخلد لذتها الرقيقة ، ونجمة ستحبسها للابد . حملتها عربة افراس تدرج باجراس جانبية تشق أمواج الليل وترسو عند الجدران ، ترسو باجراس ، ثم تستمر باسواط مظلمة تفتض الاغشية وتفتح الجراح ، جراح باجراس .

في مقتبل العمر خرجت من البوابة الرعوية كي تلج ممرات متاهة خشبية ذات أبواب من المرايا ، كانت تقف أمام كل مرآة وتوجه اليها الاسئلة :

اين امكنتك ؟

ــ لا مكان لي .

ــ ما هو حلمك هذا المساء ؟

ــ لا شيء . لا شيء .

ــ ما هي رغبتك هذا المساء ؟

ــ نسيان ولادتي وعرسي ، فرحي وتعاستي ، اقامتي وتنقلي ، حبي وتبعيتي .

ــ اتحب الجارية ؟ .

ــ تحب وتفنى في الحب ولا تعرف للحب حدا لانها لا تكتفي بالطاعة والاخلاص .

ــ ما الذي يفرق بين الصدق والكذب ؟

ــ الموت واللذة .

قالت : — الليلة جمعـــة • بخور للغائبين والغائبات •
قالت امرأة تجلس على الارض : — أســكب احدكم شيئاً ؟
ولم يكن أحد يملك ما يسكبه بعد ، انما تلك بولة الطفل القريب من الشمعة وقد تعرج خيط السائل الملتمع حولها دون أن يلحظه أحد ، ونفذ من شقي المنضدة •
صاحت امرأة بالطفل : — فعلتها يا جرو ؟
قالت عوفه بصوت واطيء : — كان يجب ان نحضر اقداحنا لذلك •
ضـحكوا ، وانحنت عوفه فقبلت الطفل في فخديه : انه زوجي الصغير •
ضحكوا بصـخب ، قال الرجل : — انك لم تتغيري • لا زلت بذلك الحجم •
قالت عوفه : — ولوني ، ألم يتغير لوني ؟
ضحكت النسوة ، واخذت عوفه تتكلم : — أتصدقون انه كان لي زوج كالحليب •

قال الرجل : — لا نصدق •
ولكنها تدفقت بالكلام : — كنـا اثنين • ولم يترك لي غير هذا البيت الكبير كي اتذكره • قال اني أتركه لك ملجأ وقبرا في نهايتك يا عوفه • قال لو ان الأمـوات يدفنـون في البيـوت التي كانوا يسكنونها • قال انه ربح البيت في لعبه قمار واحدة •
ثم اخذت تتكلم ايضا : — مازلت اذكر آننا معا كعصفورين سكنا عشر دور أو عشرين قبل ان يربح هذا البيت • كنت اغســل الملابس واجمع الفضلات مقابل ان ننام وناكل•لا تسألوني كيف عرفته • ما زلت تذكر انه كان يملك خمسة اسنان ذهبية في مقدمة فكه الاعلى ومثلها في فكه الاسفل •
وفتحت عوفه فمها الاسود ، ثم استمرت في الكلام : — فم من الذهب ، وكان بلون الحليب • كان يدخل في معارك لا أعرف عنها شيئا ولا أراه خلالها عدة ايام • ثم غاب كالنجمة • كان يعرف كل شـتائم الدنيا وكل حلاوة الدنيـا وكل

— ما شكل رعبك ؟
— كاني امشط شعري بامشاط من الحديد المنصهر ،كاني متقيحة الاسنان ومتعفنة الاصابع ، تقطيع لاربطة الحياة في جسدي •
— ماذا ترين ؟
— وجهي المفقود ، وجهي القريب عني •
— ماذا تتذكرين ؟
— الاشجار واعشاش الطيور والعشب الندى وعذوق التمر ، وجه عشيرتي ، الخواتم والاوشمة ، الافرشة النظيفة.
— ماذا تقول الامراة لزوجها ؟
— اني لك ، اني لك بثيـابي وطراوتي وجهـلي حين تمرض وحين تغيب وحين تحضر •
— ماذا قال الزوج ؟
— كل الخدع الجميلة .
— ما هي امنيتك الاتية ؟
— ما يسندني وما يغريني بالبقاء .
— ماذا في قلبك ؟
— كل سكون العالم ، كل خوف العالم ، لا قلب لي .
— من انت ؟
— لا اعرف ، لا اعلم ، بلا لسان واسناني من جليد وحليبي يصب في بطني .
— لمن تتكلمين ؟
— لمن يحضر ولمن يغيب ، لمن يعلم ولمن لا يعلم .
— اين انت الآن ؟
— في كل مكان ، في لا مكان ، لا مكان لي .
وفي تخبطها داخـل متاهة المراة ، في ممرات مصـنوعة متشظية بانوار باهرة ، ثم في ممرات معتمة رطبة ، كانت تلك الامراة التي اجهل اسمها قد هرمت وعجزت عن الحركة .
وها انها قد تلاشت وتفسخت ولم اعثر عليها في هـذه الغرفة الصغيرة المعزولة داخـل الظل الاسـود ، بين وجـوه نسوة سبع بلون الرماد او الشمع .. تلاشت في الظلمة كذلك مع وجه « عوفه » المتسلط ، كما لم اتعرف على وجهي وهـو مختفي ايضا في تيار المجرى المظلم المضمخ بالبخور .

مفاسدها • كنا نبيت أحيانا فى العراء • هكذا تماما • اذكر اننا فى ليلة صيف نمنا على أحد الارصفة ولم نكن لوحدنا • هناك آخرون • لم أعرف حتى ذلك الوقت كم هى الحياة طيبة فى العراء • فوقك النجوم وتحتك الأرض وليس لديك ما تخاف فقدانه أو ستره • كان ينام نصف عريان وكنت انا مستورة •

ضـحكوا بدون حماس ، وكان الغطاء المعتم خارج الغرفة يفرقع بأصوات عنيفة ، وكانت عوفه تتكلم :

– هذه مدافع •• **مجازات وارصفة وجسور وسطوح • كنا ننتقل باستمرار ، ولم نكن نفعل** شـيئا قبيحا • الاعمال الدنيئة تحدث خلف الجدران • كان أحدنا **يعرف الآخر** •

توارت عوفه وبقية الاشخاص واشياء الغرفة، دفعة واحدة ، حين انطفأت الشمعة فجأة • ولم ينر الطباخ شيئا فى الزاوية • تضحك النسوة من امكنة مجهولة وكان هناك من يصدر الحركات،

كما يستمر صوت مظلم صعب النفاذ ، يستغرق زمنا غير محسوب بدقة كى ينتشر ويسمع :

– عرفت كثيرين غيركن • رجالا ونسـاء • سألن ابن عواشه هذا •

تركوا متاعهـم وروائحتهم دون أن اعرف أين سيجدون راحتهم هذه الأيام • كانوا يسكنون الغرف السفلى والغرف العليا ، وفى الصيف كنت أفرش ثلاثين أو اربعين سريرا على السطح •

ثم أخذ الصوت الخفى يقطع مسافات شاسعة كى يصل :

– تمتعن بليلكن ونهاركن • كل شىء زائل • بنـاتى ، زائل كالثلج • ولا يبقى اثر • لن ترحلن • اريد ان آتمتع برائحتكن طويلا • كن قرب قلبى التالف • قلب عوفه • انتن فتوتى الذابلة •• أنا القبيحة الواهمـة •• انا الهرمة القذ •••

فيما يفرقع الظلام ، كان صـوت يبتعد فى غور لا يرى ويفقد نبرته الانسانية السابقة ، كما ان كل شىء تلاشى فى العتمة •



الفنون التشكيلية

فى

البلاد العربية

(عدد خاص)

تعد « المجلة » لاصدار عدد خاص بالفنون التشـكيلية فى البلاد العربية ، وهى ترحب بنشر ما يصلها من صـور ودراسات تعرض لوضع الفنون التشكيلية فى كل قطر عربى، وتحدد ملامحها واتجاهاتها وأهم مدارسها وأبرز روادها •

عجالة عن

القصة العراقية الحديثة

بقلم : محمد مستجاب

في الطريق من بيروت الى بغداد ـ الصيف الماضي ـ وفي سيارة مصابة بالتواء في الصدغ الأيمن ، التقيت بشاب يوناني مرح ساخر يتعشق الأدب ، سألته عن القصة القصيرة في اليونان فقال وهو يضحك : لقد ذبح تشيكوف كتاب القصة في اليونان حتى الخمسينات ، وأنا متأكد أنه قد مد المذبحة حتى كادت أن تشمل العالم ...

ورغم عدم ميلي الى تعميم الأحكام ، فان التعبير ظل مسيطرا على ذهني خلال الفترة التي قضيتها في العراق ، وقد صارحت بعض الزملاء العراقيين بمدى تسلط هذا التعبير على خلال قراءاتي لهم ، الا أنهم تحفظوا في قبول ذلك الحكم (اليوناني) وان لم يتحفظوا في مناقشته ...

ان الكثير من الأطباء والمحامين والمدرسين وصغار الموظفين قد تهشمت شخصياتهم وانسحقت وهي تواجه مصيرها محاوله أن تعبر عن فئتها المغمورة (١) ولا يمكن لنا الا أن نكرر ما ردده نقادنا كثيرا من اصابه القصة العربية ـ عموما ـ بهذا السرطان التشيكوفي ، حتى أنها في محاولتها القفز فوق أسوار تشيكوف سقط البعض منها داخل مستعمرات أخرى لموباسان وشتينبك وهيمنجواى وفوكنر ، عدا قلائل في الوطن العربي ، هؤلاء الذين استطاعوا أن يصنعوا ـ ويقيموا ـ مستعمرات خاصة بهم ، بل أصبح لبعضهم معاطف يمكن أن يخرجوا من تحتها أبطالا (ذوى أحاسيس خاصة جدا بهم) .

وبغض النظر عن الدخول في التفاصيل فان أرضية الأدب العراقي عانت من نفس المرحلة التي عانت منها ـ وفيها ـ أرضية الأدب المصرى ، (فان محاولات البعض التشبث عن جهل وعدم قدرة واعية للخلق بأذيال التشيكوفية ومحاولتهم اليائسة المضحكة لاستدرار عطف القراء واعجابهم وتأثراتهم السريعة المباشرة لكتاباتهم لهي في الحقيقة تزييف مشين لمفهوم الواقعية كمدرسه أصيلة تتبنى بصدق هموم الإنسان) (٢) هذه المحاولات هي التي أدت ـ بقواها وضغوطها الى التيه الواسع الذى تشتت داخله القصة العراقية زمنا طويلا ، لا تستطيع أن تجمع خلايا كيانها رغم المحاولات البطولية الخلاقة التي قام بها جيان وفؤاد التكرلي .

لكن مذبحة تشيكوف (دعوني أستخدم هذا التعبير) تكاد تكون قد توقفت تماما في الستينات ، حيث ظهر موسى كويدي وموفق خضر ومحمد خضير والربيعي وادمون صبرى وخضير عبد الأمير ، أقول (تكاد) لأن بقايا المذبحة تظهر أحيانا في هذه المناوشات الفرعية بين أبطال قصص حديثة وبين أبطال تشيكوف لكنها لاتزيد عن مناوشات لا يلبث الكاتب أن يركز جهده ليعضد أبطاله ويصنع تفرده .

ففي مجموعة موفق خضر (مرح في فردوس صغير) نجد الشعور بالشلل والاحباط يطغى على أبطال المجموعة القصصية ، حيث يصبح العجز عن الحل هو الحل ، فالدوار يضغط على الرءوس ودقات الملل تفتت السعرات الحراريه لكيان الفرد ، هذا التفتت الذى يصبح في حد ذاته معبرا رئيسيا لفهم معظم القضايا الخاصة أو العامة ، حيث تترك الأمور تنساب في سلبية لزجة من خلال التعود المؤلم للواقع ، وتعد قصة (العصافير) أنضج وأرقى ما في المجموعة ، رغم عدم قدرة الكاتب الشاب على المخاطرة باستخدامات لفظية حديثة أو اضافات تكنيكية خشية أن تصبح عبئا على أسلوبه الذى ظل محافظا على انشائيته الهادئة ..

لكن عبد الرحمن الربيعي في مجموعاته المتتالية (السيف والسفينة ، الظل في الرأس ، وجوه من رحلة التعب) يمارس حزنه الخاص جدا من خلال أبطال منبطحين على الأرض مستسلمين للهزيمة ، حيث يملكون القدرة على المواجهة لكن بادوات وأجهزة بلمه · لا يستطيعون – بهذه الادوات والاجهزة – أن يحددوا الاتجاه أو يعرفوا ما يريدون ، وبطريقة سردية – مقصودة – يحاول الربيعي ان ينفذ حلالنا – كقراء – وأن يجهد أصابع أبطاله لكي يتركوا بصماتهم على قلوبنا ·

ويناقش أدمون صبري في مجموعة (عندما تكون الحياة رخيصة) أشياءه بوعي وبادراك ، ويلقى بلسانه – العراقي – أو العربي ، وقودا للاحداث ، وقودا رخيصا لموتور يصيح ويصنع هذا الصوت العالي الذي ينزع عن الكاتب غيبوبة الفن الذهنية التي تصنع للفن عبقريته ، أن الوعي والادراك محسوبان على الكاتب لا له مما حول معظم قصص المجموعة الى أفكار تناقش لا أحاسيس تحس وتدرك ·

وفي (اعوام الظمأ) لمحمود الجميلي : نجد رصانة النفط وسيطرة الكاتب على لغته ، وتكاد تكون موضوعات المجموعة هي هذا التيه الرهيب الذي يفصل المدينة عن الريف ، مما يذكرنا فور قراءة المجموعة بكاتبنا الشاب زهير الشايب (المطاردون) ، فبشاعرية حزينة يضيع الكاتب أفراده الريفيين في المدينة (دون رحمة) حيث تتحول خطاهم الى مجرد وقع مهموم والمدينة تفترسهم في بطء أو في سرعة – مستوعبا خلال كل ذلك معاناته الشخصية لقضايا الفرد العراقي المعاصر ·

واذا نحينا جانبا تلك المجموعات التي اخترناها ، وحاولنا التعرض لقصص محددة فانه لابد لي أن أتعرض لقصة نجيب المانع المنشورة في مجلة الكلمة (سبتمبر ١٩٦٩ تحت عنوان (الدفن) ، والقصة تحكي – ببساطة حلوة ساخرة – أنه أثناء قيام البطل بأجازته (الريفية) وردت اليه برقية من بغداد من جاره يقول فيها (مات كلبنا نونو والدفن غدا) ، وقد سافر البطل لحضور جناز كلب جاره ، فلم يجد الكلب قد مات ، ولكنه تعرض لمحنة ساخرة وقاسية اذ أن ابن الجار – وفي وجود محكمين – دخل معه في مناظرة لتحديد أي منهما الأذكى ، ومن خلال هذا الحدث يتداعى عالم نجيب المانع المغرق في المفارقة واللمحات الذكية والذي يشع الحزن من خلفيته في فن راق وهادىء وهامس وصادق ·

كما أنني يجب أن أنوه بقصة محمد خضير (الشفيع) المنشورة في العدد الرابع من مجلة الكلمة ، اذ يحرك محمد خضير امرأة حبلى وينزلها من فوق السطح لكي تغامر مندمجة في احتفال (عاشوراء) ، ويحرك معها عالمها الخاص كله ، ويصف لنا المهرجان الديني الكبير بكل دقة (مما يذكرنا بعبد الحكيم قاسم في روايته : أيام الانسان السبعة) حيث تموج كربلاء بكل الاعلام والتحركات والتظاهرات الدينية ، ويصل بالمرأة الحبلى الى أزمتها التي دبت بينها وبين عالمها الخارجي الفواصل واصبحت البطنة الكتروها في كل نشاط وتحرك دري ، واذ بالمرأة : (حركت رأسها المرتكز على حافة الدكة ، كانت المرأة الحبلى كرة ملفوفة بالسواد يستند عليها الرأس بصورة مائلة ، وكان الرأس كتفاحة محترقة الجوانب بقي وسطها المتورد سالما غير أن السكون العجيب الذي يطبعه يوحي بان الحريق سيأتي عليه كذلك · ودون أن تحرك رأسها راقبت الاظفر التالف وهو ينط على بلاط الممر حتى اختفى خلف ظهرها ، وكأنها تكتشف ذلك الالتواء القبيح للاظفر اول مرة · وعادت المياه الصافية المتدفقة من فواصل الممر تسيل بحفيفها الناعم وانتظرت المرأة الحبلى أن يعرفها نهر الممر ثانية بلذته الغريبة وتوهجه المضيء) ···

ان محمد خضير في هذه القصة قدم لنا الحياة كلها في حركتها الدائبة المستمرة المنهكة القاسية في لغة يسيرة متفردة ومريحة حيث نواجه لحظة الميلاد الملتفة ذات المعاناة الخاصة ·

أما موسى كريدي فاني حائر تماما معه ، أحيانا يكتب ما أفهمه وما يفهمه الآخرون ، وأحيانا يلجأ الى هذه التهويمات المبالغ في اغرابها وغموضها ، ففي قصة : طقوس العائلة (عدد مايوم ١٩٦٩ من الآداب البيروتية) تأخذ هذا الجزء :

(كانا في نقطة لتجمع الخيول ، ودخلا معا خلال الحركة ووجدا أنهما بسبيل وضع غير مألوف بدأ يتشكل ببطء عبر أصوات تضج ومصابيح صغيرة مثبتة في بضع مثلثات خشبية مرفوعة ينتظمها سلك كهربائي طويل ·

– هل تهدأ ؟ ·

– انها لا تهدأ · ان أصداءها المتبقية في الريح تظل تخاصم أسماعنا حتى النوم · اننا نحلم بها · فالليل هنا وخلال هذه الأيام لا حدود له ، أبيض رغم سواد منتشر ودافر في أمكنة ضاجة تكاد أن تحل في الرءوس ·

— والرءوس ؟

— تهرب بينما يسيل الدم خيوطا غليظة ٠

— لم أشهدها من قبل ٠

— تعال معي ٠٠

وسارا معا ٠ وحولهما كانت بعض الرءوس حليقه تلمع تحت الاضواء الساقطه من مصابيح سيارة تمر بطيئه وسط المرائي والشموع المتوقدة وقد صفت على شكل دائري وهي محموله فوق مئات من الصبيان) ٠

ان موسى كريدي جعل من الغموض موضوعه المفضل ٠ ورغم ان الغموض والابهام قد يعطيك — تعاريء احساسا ما ، أو محصله احاسيس دون فهم — احيانا ، الا أن موسى كريدي — وبجرأة أيضا لا أفهمها — يسلبك الاثنين : الاحاسيس والفهم ، وقد جرني الحديث عن موسى كريدي — في بغداد — الى طرق موضوع اعادة صياغه اللغه لكي تساير هذا الارتباط المضني المجهد الذي يعاصرنا ، وفي رأيي — وهذا الكلام موجه الى محمد ابراهيم مبروك عندنا — أن اعادة صياغة اللغه يجب الا تكون أبدا على حساب قدرتنا على العطاء ، لابد أن نفهم الجزئيات الصغيرة التي تعطينا الاحساس الحر بالتكوين الكلي ، ان غموض — وابهام — الجزئيات الصغيرة هو طمس كامل وقاتم للتكوين الكلي ، انني الطرف الثاني في المعادلة ، الكاتب طرف أول ، العلاقة بيننا سواء أكانت حسية أو حدسية هي التي تصنع للكتابة — وجهد الكتابة قيمتها ٠

ان الاغتراب وممارسته في الكتابة وما يتبع ذلك من ضغوط الحلم على رؤانا وتأثيره على علاقتنا بالاشياء موضوعات مفضلة لدى الكثيرين ، لكن موسى كريدي غير قادر على أن يوصل لنا قضاياه حيث تتحول قصصه الى تهويمات لا لون لهـا ولا رائحة ولا طعم أيضا ٠٠ رغم أن موسى كريدي في مجموعته (أصوات في المدينة — بيروت) أعطانا انطباعا (واضحـا) بأنه صاحب الباع الاكبر في محاولات التجديد والتجديد الشكلي فقط ٠

ان قضية الوضوح — اذا كان للوضوح قضية — يطرحها محمد كامل عارف في أقاصيصه ففي قصته (ثلاث قصص من ليزا البولندية — مجلة الكلمة — اذار ١٩٦٩) نجد الايقاع الهادىء الذي يكثف العلاقه — الواضحة — بين البطـل — وبين البطله ، بين العراقي الشرقي والبولنديه الاوربية البـاردة التي تفهم أمورها بوجه اخر مختلف ومنافض لمفاهيمنا لنفس الاشياء ، كما أنهـا — قضيه الوضوح — تظهر — بوضوح في مجموعات خضير عبد الامير (الرحيل — عودة الرجل المهزوم)

— حيث نلمس — ونحس — ونعاني من هـذه الحساسية الفائقة لدى أبطاله من ضغوط الصراع الطبقي ، فالموت والسلطة والاستعباد والارتماء في أحضان الفرق بين ما نريد وما نستطيع ، عناصر رائعة وجديرة بالكتابة عنها — مهما كتب عنهـا من قبل — وخضير عبد الامير قد جعل ذلك قضيته الشخصية حيث من خـلالها قد أنضج تفرده وأوصل لنا قضـاياه ومعاناته الممزوجه بمعاناة أبطاله المختارين بعناية من بين الطبقه الكادحة في العراق ٠

***

ان ما تعيش فيه القصة العراقية هو نفسـه ما تعيش فيه القصة المصرية ، حيث يكاد يكون الوسط الاجتماعي واحدا ، حتى ردود الفعل الناتجة عن هزيمة يونيو تكاد تكون واحدة ، ان النكسة التي واجهناها جميعا أصبحت أعين الحمراء التي تشع بالموضـوعات والابطـال والاساليب والاشكال ، حيث اتضح لنا أنه من الممكن أن (نرى جيدا) وأن (نفهم جيدا) وان (نغوص في واقعنا جيـدا) وأن نحاول أن نتذكر أن أسهل أنواع العوم هو العوم على الظهر ، حيث لا اجهاد وايضـا لا تقدم ، وفي الوقت الذي يستسهل فيه بعض القصاصين العوم على الظهر ، فان آخرين — قليلين — يغوصون في الاعمـاق ، ويجاهدون للطفو ، ويجاهدون لكي يشقوا التيار ، ويجاهدون لكي يوصلوا لنا معاناتهم ٠٠٠ بكل أشكال الفن القصصي العظيم ٠

وهؤلاء — الذين يغوصون في الاعماق — جدير بنا أن نحتفي بهم وأن نشعرهم دائما أننا نشعر بهم ٠

سوريا

الإعدام

بقلم: زكريا تامر

يتدلى عمر المختار من أعواد المشنقة ، منكس الرأس ، مغمض العينين ، مطمئنا ، صامتا ، وقورا ، غير آبه للحارس المكلف بمراقبته والمسلح ببندقية .

وكانت الشمس المشرقة آنذاك ثلجا أصفر ، فحاول عمر المختار البحث عن شمس أخرى تمنح الدفء لدمائه الباردة ، فتخيل عصفورا صغيرا جائعا يرفض الذهاب صباحا الى مدرسته مترقبا تهطال الامطار كي تبلل رغيفه اليابس ، وتخيل وردة بيضاء غافية على سرير حديدي ترتجف مقرورة ولا تملك من المال ما يكفي لشراء مدفأة ، وتخيل قطنا سجينا في الصيدليات يحلم بامتلاك عاصفة من أجنحة ، وتخيل غيوما تركض في الأزقة مغبرة الثياب وتتشاجر مع الصغار وتحطم بحجارتها زجاج النوافذ .

وعندئذ صاح الحارس مخاطبا عمر المختار : « ما بك ؟ لماذا تبتسم ؟ أتسخر مني أم تفكر بالنساء ؟ » .

فقوبل سؤاله بالصمت ، فأردف قائلا بلهجة متذمرة : « تكلم . لماذا لا تتكلم ؟ الى متى ستظل ساكتا؟ ألم تسأم؟ لا تكن متعجرفا فجدي لم يكن خادما لجدك . أف ! يا له من عمل شاق يخلو من التسلية ! » .

ومر في تلك اللحظة ولد صغير يحمل بنتا من شمع ، فتوقف عن المسير ، وحدق بذهول ورهبة الى المشنقة ، فصاح به الحارس بصوت خشن :

ــ امش . ممنوع الوقوف .

لم يتحرك الولد من مكانه ، وبدا عليه وكأن أحدا لم يخاطبه ، فاغتاظ الحارس ، ودنا منه ، وسأله بحدة : « لماذا تقف هنا ؟ » .

قال الولد : « انى أنظر » .

قال الحارس : « الى أي شيء تنظر ؟ الى مطعم ؟! » .

فأشار الولد بسبابة صغيرة الى عمر المختار ، وقال : « انى أنظر اليه » .

فقال الحارس متسائلا بفضول : « ألست خائفا منه ؟ » .

فهز الولد رأسه بالنفي ، فقال الحارس وقد ازداد غيظه : « الأولاد المهذبون يخافون من المشنوقين » .

ومد يده بحركة مفاجئة وانتزع الدمية من الولد ، فصاح الولد بصوت رفيع متهدج : « أعدها الى .. أعدها الى » .

فضحك الحارس وقال : « قبل يدي أولا . هيا قبلها . لا تريد تقبيل يدي ؟! » .

« ــ أعدها الى .. أعدها الى » .

فقال الحارس : « اسكت . لقد صودرت عقابا لك على عدم احترامك للقوانين . هيا اركض والا سلخت جلدك وحشوته قشا » .

فلم يركض الولد انما مشى بخطى متمهلة حتى صار على مبعدة من الحارس ثم توقف وصاح : « سأحضر أخي ليضربك » .

فانحنى الحارس على الأرض والتقط حجرا ، وقذف به الولد وهو يقول : « واحضر أمك أيضا » .



فقفز الولد متحاشيا الحجر ثم انطلق يعدو مبتعداً .

وتنهد الحارس بأسى ، وقال لعمر المختار: « انه جيل ملعون لا يحترم أحـدا . أتعرف لماذا أخذت الدمية مع انى لست متزوجا ؟ » .

لم يجب عمر المختار ، فأضـاف الحارس قائلا : « اياك أن تظن انى سألعب بهـا فقد صرت رجلا منذ زمان طويل » .

ثم خاطب نفسه بصوت مرتفع : « مـاذا سأفعل بها الآن ؟ » .

وفكر لحظات ثم صاح بفتـة وبمرح : « سأحاكمها . لماذا لا أحاكمها ؟ » .

ورمق عمر المختار بنظرة حانقة ، وقال له : « أنت مخطىء اذا توهمت انى لا أصلح لادارة محاكمة » .

ورمى الدمية على الأرض صارما متجهما وصاح بصوت أجش : « محكمة » .

والتفت الى عمر المختار ، وقال له محذرا : « اياك والضحك والا شنقتك » .

وقطب جبينه ، وقال للدميـة : « انت يا بنت متهمة بـ .. لقد نسيت التفكير بالتهمة. حسنا . أنت متهمة بارتكاب جريمة سأنبئك بها فيما بعد فهيا اعترفي ولا تحـاولي خداعي فأنا اتقن اطلاق النار . أنت لا تريدين الكلام؟ افعلي ما يحلو لك ولكنك ستدفعين ثمن تحـديك للمحكمة » .

وتطلع فيما حوله بعينين قاسيتين ، وقال مخاطبا جمهورا خفيا : « الضجيج ممنوع » .

وصمتت الثياب المغسولة المعلقة على شرفات الأبنية بينما كان الحـارس يزعق آمـرا : « اعدام » .

وأضاف بصـوت خافت حـائر : « ولكن كيف أعدمها ؟ سأطلق النـار عليها . لا لا . سأخسر عددا من الرصاصـات . سأذبحها . لا لا . سأدخر قوتي لذبح دجاجة أو خروف . ماذا أفعل ؟ » .

وحملق حينا فى البنت الصغيرة الشـاحبة ثم تهلل وجهه فرحا ، وسارع الى أحضار حبل، وربطه بأعواد المشنقة التى يتدلى منها عمـر المختار ، ثم سأل البنت بلهجة حانية : « ما هى رغباتك الأخيرة ؟ ماذا ؟ أتريدين مشاهدة فيلم مضحك ؟ انى أعتذر لعدم تمكنى من تلبية رغبتك فساعة الموت لا تؤجل ويجب أن تجابه بخوف ودون مزاح » .

وشد قامته وصرخ : « الموت للخونة » .

وحمل الدمية ، ولف الحبل حول عنقها ثم تركها لتهوى فى الفراغ متارجحة بجوار عمـر المختار . ورغب عمر المختار فى الصراخ غير أن الدموع بللت حالا وجهه المتجعد ولحيته الطويلة البيضاء ، فها هو العصفور الصغير يطرد من مدرسته لأنه لا يتقن سوى الغنـاء ، وها هى الغيوم تمنع من السير فى الشوارع العريضة لان ثيابها عتيقة مهترئة ، وها هو القطن يؤكل بدلا من الخبز ، وها هى الوردة تلعق دمها ، وها هو عمر المختار ينبذ حبل مشنقته ويعدو نحـو المقبرة بينما شـموس الأرض تتوارى وتنطفىء شمسا تلو شمس .

الخامس الدائم من حزيران

بقلم : هانى الراهب

عين طويلة خضراء . تخفق . تلمع دونما وهج . لو كانت أكثر اتساعا لشابهت عين صندوق الدنيا . سحر فى بؤرة ربيعية . عبر شريط صغير يأتيها النور واللون والحرارة .. وحده الشاب ذو السالفين المتهدلين يعرف السر . يستطيع انتزاع الشريط آن يشاء . أو يضغط بسبابته على زر أشهب فيتوقف كل شىء . عندئذ تخبو العين وتصير الى بقعة رمادية مستطيلة . ولكن لماذا الضغط ؟ سيلتفت العازفون وتقول أعينهم : دع الصندوق يعمل ان الحانه ادق وأصفى .

النور واللون والحرارة ، والأصوات أيضا . الصندوق اللماع يجثم على حامله . لوحة عصرية متلامعة . يمزج بالأسرار والتكنولوجيا . اله وثنى صاغته أنامل القرن العشرين . يتكئ على أكداس من النوتات الموسيقية . شدة أصبع ويصفر النغم . « افتح يا سمسم » ، بالرمز لا بالكلمات . المجد للكهرباء والعالم الجديد ، فالحضارة كلها لأجل فرح الانسان ..

صندوق دنيا ، لكن الصور فى الخارج . صور من لحم ودم وصبوات . تنحل فى الشعاع الموسيقى للعين الطويلة الخضراء فى ستة أمتار مربعة . تتلاصق وتفترق . تسبح فى يم الأصوات . تمد أجنحة وسيقانا . ترتعش مشلوحة الهامات الى الخلف ، ملتوية الجذوع . تميل مع عناق النحور .

ينطفىء الضوء فوق الرءوس . تشف الأجساد . تستحيل الى أعمدة قاتمة من دخان ، تتلوى وتدور ولا تتلاشى . ضباب من نفثات السجائر يلفهم بالابهام كضوء القمر . أية خواطر ورغبات ازدحم بها خيالهم الفنى فأرسلوها فى أجسادهم . دوى الطبول يرجها والمكان الضيق عتمة ودخان ، وابتسامة عازف الجيتار . الموسيقى تنهمر بين صليل وفحيح وعواء . صوت المغنى يصرخ وحشيا من جوف الصندوق الأبكم . الصنوج ترن رنينا أصم ، والآذان لا تنثقب : تمتلىء ، ترتج بالطنين ، ويريحها صراخ الكهرباء من صراخ الحياة . الأصوات أيضا تعبر أجسادهم . مزيدا من الصخب والقرقرة . مزيدا من الحلول والتقمص والنسيان .

المغنى الآدمى يمد فمه نحو منخل الميكروفون هو أيضا يطلق صراخه الوحشى ، ويداه مستمرتان فى قعقعة الصنوج . فجأة : تتلاشى الموسيقى ويعود الضوء . تجمد دورتا الزمان والبشر . عينان شاردتان سدرتا فى حلم هنى. يد أبنوسية توقفت فى منتهى امتدادها . تنورة موجزة تهوى فوق منتصف الفخذين . كتفان عاريان تعلق بهما خيطا قميصه فضية الابط والكاهل العبل وبعض الخاصرة تلمع فى الضوء الأشهب . بنطال أنشد على الردفين والخصر وتفضفض حول الساقين . شارلستون ١٩٧٠. سفح من الشعر الأشقر ترقرق فوق الوجه الوضىء ، كغمر من السنابل . معرض الجسم البشرى آن تضاعفت الدورة الدموية وانبهرت العروق .

نقرتان على الجيتار . ضربات العصى على الصنوج . الزر مرة اخرى . اللهيب . القامات تخفق وتصطفق . العيون حالمة وباسمة ومشدودة . الأيادى أجنحة واقواس . الجسد منغوم ومهموم . هو سادر فى حلم أو فائر فى

حميا . يترنح ترنح المساطيل أو ينفجر كشريان جريح . شهى أو جميل أو الاثنان معا . سهم نافذ فى أسوار السكون والملح والكلس . منطلق يتلوى أو يدور حول ذاته . يهتز فينفض عن خلاياه غبارا وعيونا متربصة . ينفض ثقلا . الثياب نفسها حمل وركام . يراوغ التصاقها به ويدفعها . لحم النفس يسيخ ويتعرى . مطبة ارهقتها الرغبات والتابوات . هاربا من غـرف النوم والتفكير يرتجل حياة وعافية . مشيحا بوجهه عن القباب والأبراج يقبع فى عتم عينيه المغلقتين . العيون تغفـو . الأفواه تنفتح . الأزياء تتبارى .

عشر أصابع كثيفات الشعر ينفرشن على مؤخرتها ، ويداها تشدان عليهن . يسحبنها الى الخلف ، ويدفعنها الى الأمام . صـورة ناقصـة للطبيعة البشرية ، زخرفاها بالرقص والتصورات حركة تنسى سجنها اليومى بدلا من سكون تذكره كان الوجه الآخر للساعات أنشوطة تلف الأعناق، يقطعان حبالها بالتأرجح والاحتكاك

شاب وفتاة يتركان طاولة ويندسان فى حشد المرسح . نصف امتـداده لساعديها ، قبـل أن يلفها بزنديه .. يتعانقان يلتحمان . ببطء يرقصان . رأسها فوق نحره ، ووجهه مغيب فى الشعر السكوب . السيقان فقط منفصـلة ، وهمـا جذع واحد . أهلهما يراقبون بابتسامة يابسة . والوالدتان تشدان فستانيهما الطويلين على ساقيهما : صمت فى الشفاه وكلمـات فى العيون : تلك هى الحياة الجديدة ، فى الزمان الاول لم يكن ثمة شيء من هذا ، لكن الخاتمين يـرقان بنصريهما ولا بأس ، والمأذون أنهى عمله ، تاركهما زوجين وبعد شهور يسكنان معا .

الطفلة المتوجفة فى الحارة والمدرسة تتـحرك كقطة برية . عينـا حـدأة ولكن لا تريان ما حولهما . لعلها لو فوجئت لتطايرت العينان شررا . قدماها تخبطان على الأرض والذراعان ممدودتان . فجاة واذا هى امراة . عالم مفعم وعاصـف . لا صـديرى المدرسـة يختصره ، ولا الكتب فوق الصدر ، ولا نظرات الكبار المبهمة الوقور . سـياق عرق وارهاق . واذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام .



العينان الشاردتان شـاردتين ما تزالان . والوجه الأبكم صار صفيحيا . كل الحـركات والانفعالات لم يغـير من سيـحان الوجـه .. تسترسل النظرة فى خط مستقيم ، ولا تصافح شـيئا . والجـذع ينثنى وينتصـب ، ينثنى وينتصب ، ينثنى وينتصب . شيء ما فى ساحة الوجه المحرور طفا فوق ستة أمتار مربعـة . الحلقة لم تغلق تماما . بين الحين والحين تقطعهـا نظرة متحرية نحو الطاولات المشبوهة : من تراه يجثم هناك ويملك عينين جاسوسيتين ؟ وحدها تفصح عن الخوف . وحدها تفكر بالفـد . وحدها ترقص .

دومينيك الفرنسية الحلوة مبتسمة دائما. طويلة وراسها يعلو على جميع الرءوس . واثقة من نفسها وترقص بأصالة . عينـاهـا تتالقـان بنشوة ساحرة . بين الحين والحين تفلت منها نظرة الى الجالسين : تعرف أين هى وماذا تفعل:

اللعب للكبار والصغار ، الرقص ، وبعدئذ النوم، وفى الصباح العمل .

الكتفان المنبوذان يترنحان تحت رأس مترنح . السترة الكحلية تعلو وتنخفض ، تروح وتجيء . الأجفان نصف مطبقة . الأصابع تتحسس الفراغ الضئيل كأصابع أعمى . لعل الرأس المتهزهز أن يحمل صاحبه الى أجواز السماء . لعل النور أن يهبط الى قلبه فيصيح: الحق ، الحق .. تباركت الموسيقى . هناك دائما ما هو ابعد . لحظة انتشار عبر العالم وفوقه ، تجبل الحواس بالطين والنجوم .

أديب وعايدة جنيان . الصبا والجمال وخفة النسيم . رشيقان كالزنابق . حاران خافقان كلهب الشموع . سيدا المرسح . يرقصان لنهاية العالم . يرقصان لرقص ما بعد الرقص . عبر حركاتهما السحرية تتحول الدبكة الى جيرك والجيرك الى دبكة . هاربان من أعين الكراسى والطاولات . يخشيان المواجهة . كل من لا يرقص سيقول كلاما . لن يصفيا . الرقص وبعدئذ الطوفان . لن يخوضا معركة ضد أحد، حسبهما أن يعيشا . الآن عدوا يتصيد مسرة حياتهما عليهما أن يتقدما نحو الموت ؟

ثم يلج من مدخل الكهف شاب كثيف الشعر طلق المحيا . عيناه ينبوع فى هدوء الظهيرة . شارباه الدقيقان محض رمز لفتوة البشر . بجانبه الأيسر يتعلق قراب تعلوه قبضة سيف. وبعنقه يتعلق شال حريرى مقصب ، ينسدل على منتصف الظهر ويتدلى حتى الفخذين . سترة سماوية اللون بأزرار معدنية كالفضة . جيبان على الصدر وآخران على الجانبين ، عليهما أغطية مزررة أيضا . نطاق جلدى منشد على وسطه . بنطال محزم على الفخذين عريض حول الساقين . سماوى اللون هو الآخر . الحذاء خف عربى . لابد انه نسى الخوذة فى مكان ما . فارس أطل من غيب حطين أو قرون أوروبا الوسطى ، وكانت « الكرامة » آخر معركة شهدها :

بدرو (بدر) مجد الدين ، هاوى جمع القطع الأثرية .

فجأة : تخفت الموسيقى وتتلاشى . يتوقفون عن الحركة . لا أحد يريد أن يغادر المكان . يتوقفون بثبات وصمود . لن يفرطوا بشبر واحد من المرسح . الابدان تنتظر بدء العمل ، ساعة الصفر . والوجوه نافدة الصبر . العيون الشاردة والباسمة والمحترقة تضطر الآن لرؤية الجدران والطاولات والكراسى ، والمتفرجين . ينبثق فيها نزق وعصبية . جدول انحبس مجراه فاختنق .. حلم رخى قطعته اليقظة . عودة الى العالم المثقل والمتعب .

قبل أن تعود الموسيقى الى صليلها تنسل منى من بين الحشد . أكثر الوجوه براءة :

ـ بدرو ، كيف سننتقل ؟ أنقذنا ، يجب أن نغير الجو . بعد قليل يصيبنا الملل .

ـ ميمى ! تجربة مدهشة مثيرة ! سننتقل بالباص ! أسلوب شعبى رائع . ستنهد أجسامنا مثل العمال . تصورى ! لماذا لا نجرب مشاعرهم اليسوا بشرا مثلنا ؟ يا الهى ! هذه أخيرا ليلة سعيدة . يجب أن يكون الآن أمام المدخل . هيئوا انفسكم .

ينسحب . الشال المقصب يتطاير وراءه .

تصهل الموسيقى وتعود منى . تعود الأجساد الساكنة الى الحركة المستطيرة . العالم الخارجى ينهار . يسقط رمادا تدوسه الاقدام المنهومة . رماد الهياكل والألواح والكتب . تتناهى الشوارع والعمارات والجبال والأفق. الخبز والسمك فى ستة أمتار مربعة . الماء والهواء والمناظر . صبوات الانسان الاول فى كهفه العتيق . الصدور مفضوحة ومعراة . قرع الطبول انفجارات وصليل الصنوج أزيز رصاص.. رقصات اغرقت هموم البشرية فى قاع البحر واطفأت مجمر الذاكرة .

يتقدم بدرو متلكئا . وجهه الوسيم معتكر وحاجباه مقفلان .

ـ كل شىء جاهز ؟

ـ كل شىء . ولكن هذه البلهاء المرعبة .

ـ اية بلهاء ؟

ـ هل جاء الباص ؟

ـ اية مرعبة ؟

ـ فلاحة . ظنت التمثال عند الباب رجلا وجعلت تستجديه . وبعدئذ تحولت الى وامسكت ببنطالى مكشرة عن أسنانها بالبكاء : يعطيك الهنا يا ولدى ، فرنكين للاجئين اليتامى يأكلون بيهم خبز .



وليد اخلاصي

- عضو اتحاد الكتاب العرب
- من مواليد الاسكندرونة فى ٢٧ آيار (مايو) ١٩٣٥
- حاصل على درجة البكالوريوس فى العلوم الزراعية ، ودبلوم الدراسات العليا من جامعة الاسكندرية .
- يعمل في هيئة تسويق القطن ، ويحاضر في الاقتصاد الزراعي بجامعة حلب .
- صدرت له :

قصص (مجموعة قصصية) دار مجلة شعر ، بيروت ١٩٦٣ .

ـ العالم من قبل ومن بعد (مسرحيتان) دار الفن الحديث العالمي بدمشق ١٩٤٦ .

ـ شتاء البحر اليابس (رواية) دار عويدات للنشر ببيروت ١٩٦٥ .

ـ دماء فى الصبح الاغبر (مجموعة قصصية) دار مكتبة الشهباء بحلب ١٩٦٨ .

ـ احضان السيدة الجميلة (رواية) دار الاجيال بدمشق ١٩٦٩ .

ـ زمن الهجرات القصيرة (مجموعة قصصية) حركة فتح ١٩٧٠ .

ـ الايام التى ننساها (مسرحية) قدمها مسرح الشعب بحلب ١٩٦٩ .

ـ الطين (مجموعة قصصية) دار عويدات للنشر (تحت الطبع) .



بقلم: وليد إخلاصي

لا أعلم على وجه الدقة والتحديد متى وصلتني تلك الرسالة ، ولما كنت من هواة الفصول الأربعة، فقد حصرت الزمن الذى قدر لهذه الرسالة ان تصل فيه ما بين نهاية الشتاء وبداية الربيع ، ولما فضضتها كنت اجلس فى غرفتي المعتمة استمتع بنور ضئيل وموسيقى صادرة عن مسجلة اختلطت فيها الوجوه فباتت تعطى بين فترة واخرى الحانا لا معنى لها ، جعلتنى اغرق واصحو فى حلم عجيب مريع .

« التراب الذى تحمل ذراته الضخمة ريح عاتية قادمة من كل اتجاه ، التراب كان يملأ فتحات وجهى فيما الوح فى الفضاء بسيف عريض النصله ، حتى اذا بدأت قواى تخور هدأت الريح فجاة فتلفت حوالى لأجد رؤوس اطفال مقطوعة تتناثر على الارض وسيفى يقطر دما . فاصرخ واتراجع ثم احاول ان اهرب فلا اجد لنفسى مهربا سوى كوخ ، فاطرق بابه .. ثم اصحو واقفل المسجلة ، واعود الى الرسالة التى لبثت زمنا طويلا دون قراءة ، وأفجع فيما تقرأ عيناى .

« انت يا قاتل الأطفال ، كيف أبحت لنفسك قطف الرؤوس ورأسك فى خطر ؟ »

لم تكن الرسالة مذيلة بتوقيع ، ولكن الذى اسقط السيجارة من فمى هو ذلك الترابط ما بين الحلم والرسالة • بعد قليل تحسست رقبتى وتساءلت :

ـ كيف عرف كاتب الرسالة ما يدور فى ذهنى قبل ان يدور ذلك الشىء فى ذهنى ؟

الرسالة الثانية :

قبل ان اتسلم الرسالة الثانية بأيام زرت صديقا لى اثق بطبه رغم حداثة سنه وسألته :

ـ هل يأتى الجنون فجأة ؟

ـ يفترض فى الجنون المسبب المادى والملموس

ـ اعيش حياة هادئة ، وحياتى مقسمة ما بين الوظيفة والمقهى والبيت ، وفى المقهى كما تعرف أحادث رفاقا اسوياء يقرأون الجرائد بانتظام ، ونتحدث فى هوامش الأحداث فلا نتعب • وفى البيت استمع الى الموسيقى وانام فى مواعيد محددة ولا الزم نفسى بكتابة الرسائل الكثيرة ، ولكنى مع كل ذلك أجد نفسى مدفوعا لرؤية احلام مفجعة ، وقد أتتنى ••

ورن جرس الهاتف فى العيادة فحمدت الله انى لم احدثه عن الرسالة الغريبة ، وعندما التفت الى من جديد قلت له :

ـ هل ابدو لك سويا ؟

ـ سويا ! أنت اعقل من سقراط

والذى أذهلنى فعلا عندما تسلمت الرسالة الثانية ، أنى غرقت لثوان عديدة فى حلم آخر •

« كانوا ينادوننى بسقراط فيما أجلس على كرسى قديم وبيدى كأس السم• وتحسست لحيتى المفتولة كعناقيد عنب غير ناضجة• ثم بتسمت فى وجه فتاة صبية العينين كهلة الشعر وقلت لها قبل أن أتجرع السم •• من أجلك أموت •• ثم صحوت •• »

وقلت لنفسى :

ـ لابد أن هذه الرسالة تكملة الاولى فالخط الذى كتب به العنوان لا يختلف عن سابقه وجعلت أقرأ بكل حواسى •

« قد يبدو على يا سيدى انى أقتل الوقت بالتسلية ، ولكنى أحذرك بأنى جاد فيما أقوله •• كيف تسمح لنفسك بانتحال صفة سقراط وتقنع نفسك بأنك شهيد الحكمة وما أنت الا تافه تستحق عقوبة قاسية ، لم يحن الوقت لتطبيقها • انتظر منى رسالة جديدة ، واحذر من أن يطلع أحد على ما يصلك منى •• »

وثار الدم فى راسى ، يقول بأنى تافه ، ومن هو حتى يقيم الناس من وراء حجاب • صرخت فى الغرفة :

ـ ان كنت رجلا فاظهر نفسك •

الرسالة التى يقول انها الرابعة

وهى فى الحقيقة الثالثة :

أعطتنى السيدة الصغيرة التى تقطن بقربى ، والتى كثيرا ما كنت أشتهيها فى وحدتى ، أعطتنى مغلفا صغيرا فيما تقول :

ـ وضع فى شق الباب وهو لك ••

وجدت عينى تحومان على ثوبها الضيق وتلتمسان طريقا عند ثدييها ، وكأنما شعرت باللص متلبسا بالجريمة فابتسمت حسب الأصول وأغلقت الباب ، فلمت نفسى على كشف مشاعرى بصورة فجة ، وفيما أحاول وضع المفتاح فى ثقب باب البيت الذى بدا لى لأول مرة وسخا ولا يطاق كانت عيناى تقرآن الرسالة ••

« رسالتى الثالثة لم تعط مردودها كما يجب ، وهذه ظاهرة لم تعجبنى وقد خلفت عندى أبشع الآثار، أكرر فاقول ان حياتك يجب أن يوضع لها حد فهى غير مجدية ، ولحسن حظك فانى أخيرك بين أمرين • أن تنتحر أو ننفذ فيك حكم الاعدام• أمامك اسبوع واحد للاختيار • »

أسبوع واحد ! تذكرت الآن ، بعد أسبوع سأحتفل مع أصدقائى بعيد ميلادى • لابد أنه واحد من أصدقائى يحب المداعبات المرعبة ، وتذكرت أمر الرسالة الثالثة التى لم تصلنى ، فعدت لتوى أنقر باب الجارة الشهية ، ولم يطل



انتظارى فقد أطلت الصبية التى يبدو انها عادت لتوها من عمل المطبخ ، وقالت لى بحزم :

ــ نعم ..

ــ أنت تعلمين ان الرسالة الثالثة لم تصلنى .

قبل أن تتكلم استدارت عيناها العسليتان ، ثم هتفت بصوت حاد :

ــ رسالة ؟ أية رسالة !

ــ الرسالة الثالثة وأخشى أن تكون مازالت عالقة بشق الباب .

فلم تلبث أن تمتمت « وقح » ثم اختفت وراء الباب المغلق ..

يا لحماقتى اضعت آخر فرصة لى فى أن أكسب ود المرأة التى أريد ، وانكفأت على نفسى أحاسبها : خوف من مجهول ، حماقة لا حدود لها ، استبسلام لخطر الوهم الذى يخلفه فراغ عابث . وشرعت أفكر فى تمزيق الرسالة الا أن فكرة طارئة تبدت لى فيما أرتب الرسائل الثلاث على الديوان مفترشا البساط الاحمر الذى تركه عندى صديق ولن يسترده بعد الآن لأسباب كثيرة ، أولها أن البساط ما بات يعنيه فى شىء وثانيها أن الرجل لم يعد له بيت وثالثها أن الغائب قد قتل على حدود الأرض التى احتلت .. كان يشاطرنى البيت والعمل ، ولكنه رحل فجأة بعد أن ترك لى رسالة وداع وبساطه الاحمر الذى جلست عليه أفكر فى الرسائل الثلاث التى شدت حياتى اليها . وبالرغم من انى ما كنت مقتنعا تماما بجديتها فقد بدأت أحس بالخطر يحوطنى من كل جانب .

ليس امامى سوى اسبوع واحد ، لذا فان الفكرة التى طرأت على كانت تتعلق بوضع خطة أتعرف بواسطتها على جميع انواع خطوط اصدقائى فاعثر عن طريقها على الفاعل الثقيل الظل الذى خيم على وجودى كالرطوبة . بعد قليل احسست بالملل القاتم فاقلعت عن الفكرة السخيفة ، فالفاعل لن يكون حتما من بين أصدقائى الذين سيحتفلون بعيد ميلادى بعد أسبوع . وانا بدورى لن أهاب أوراقا مجهولة المرسل غير مذيلة بتوقيع . وأغفوت على البساط فرأيت صديقى الذى استشهد يلوح لى بيده فيما يقف على الشاطىء

الآخر من نهر صغير تجرى الدماء فيه دون توقف .. علمت انه ينادينى ، فحاولت أن احمل ساقى على التحرك لكن حذائى كان حديدى الثقل فلم أستطع أن أتحرك .

ثلاثة أيام لم تصلنى فيها رسالة

شغلت بأعمال اضافية فى وظيفتى درت على تعويضا مغريا ، وكنت أعود الى البيت فى ساعة متأخرة فلا أفعل شيئا سوى النوم ، وبعد مرور أيام أربعة أحضر الاذن بريد الصباح فوجدت رسالة فميزت خطها الذى أصبح مألوفا لدى من بين عشرات الكتب والرسائل، فاختطفت الرسالة من بين الأوراق . وسارعت الى ركن فى الغرفة يختبىء وراء خزانة حديدية وجعلت التهم الأسطر.

« بعد أربعة أيام تنتهى المهلة ، أرى انك لم تتخذ بعد قرارك هل تظن أن الاهمال أو التجاهل سيعطى نتائجه .. لقد ثبت لنا خلال انهماكك فى كسب المال انه مهما حاولت الهرب فان أيامك تقودك الى اللحظات الحاسمة » .

من هو الذى يفيد من موتى ؟ لم أسبب ضررا لاحد ، لم اعط رأيا فى حياتى يزعج انسانا أو يناقض رأيا آخر ، مسالم كحمل وديع ، محبوب من رؤسائى ، مطيع وطيب ، وعندما غادرنى الصديق ليحارب تألمت ، وحين بلغنى نبأ موته بكيت فعواطفى طبيعية .

الرسالة القاسية .

« لأنك طبيعى الى حد لا يطاق فاننا قررنا ، بعد ان تمت محاكمتك وأدانتك ، فتلك ستحدد الطريقة يوم غد عند مدخل المدينة الشمالى قرب الجسر الذى جف نهره »

واطلت التمعن فى حروف الرسالة كما لم أفعل من قبل ، وضعتها بالقرب من الرسائل الثلاث السابقة ، يا الهى . وكأنى رأيت مثل هذا الخط من قبل ، الحبر أعرفه . وطريقة التنقيط المائلة لحرف الياء . جلست على البساط الأحمر وحصرت تفكيرى فلم اهتد الى حل . غدا يوم ميلادى ولن اغادر الاصدقاء الذين سيجتمعون فى منزلى وسأفقد توازنى من السكر وسأنسى وسأحرق الرسائل المرعبة بشموع كعكة العيد وسأهتف من كل أعماقى « أنا لا أخاف أحدا » . ورنت فى اذنى كلمات الصديق الذى مات ، كانت تختلط بصوره يتحرك فى الغرفة نزقا يقول لى « يجب ان نفعل شيئا فالذين يموتون هم الذى يعيشون فعلا » . ونظرت الى البساط أتحسسه بحنان كما لم أفعل من قبل وكأنى عاقر تعانق طفلا لاتحلم به .

الرسالة التى لم تأت

توقعت صباح ذلك اليوم ان اجد رسالة الرحمة تحت الباب ، ولكن انتظارى حتى الظهر لم يفد شيئا . وابتدأ القلق ينتاب حواسى الست . ان صاحب الرسائل جاد ولم يعد الأمر مجرد مزاح ، وخطرت لى فى ثوان فكرة الانتحار ثم تلاشت لتحل محلها فكرة جديدة سرعان ما أصبحت ثابتة . ارتديت ملابسى وتوجهت نحو المدخل الشمالى للمدينة وقد قررت أن اتحدى ذلك العابث بأرواح الناس ، سأقول له انى لا أخاف الموت وسأقنعه كذلك بسخف عدالته .

وفى اللحظة التى اتكأت فيها على حافة الجسر الذى جف من تحته النهر ، جعلت أحملق فى الماء الذى كان من الممكن ان يجرى فتظهر صورتى فيه . استعرضت كل حياتى ، مرت أيام عمرى أمامى متلاحقة بثبات لايطاق فاغمضت عينى مشيحا عن الماء الذى لم يعد يوجد . كان الافق خاليا ، ولم يحضر أحد . حسنا فانى سأنتظر حتى ساعة المغيب ولن يضيرنى الانتظار فانى ازداد قوة لمجابهة التحدى . بعد قليل جعلت أتسلى بالكتابة على رمل مجرى النهر القديم ، رسمت طيورا وأسماكا ، خططت مدنا مسورة . كنت أستمتع كطفل فيما اكتب اسماء أصدقائى الذين ينتظرون عودتى لبدء الاحتفال ، حزنت فيما اكتب اسم الصديق الذى مات ، كتبت بالخط العريض « حياتى طبيعية وهادئة » وتأملت ما كتبت بسرور فالمغيب الذى يقترب عكس ألوانا جميلة على الأشياء المكتوبة على الرمل . فجأة توقفت مذهولا ، يبست العصا فى يدى وأنا أحملق فى الكلمات التى رسمتها بيدى ، الخط مألوف والنقط المائلة لحروف الياء ، والحقيقة أصبحت ماثلة أمامى بوضوح رغم ان الشمس كانت قد غابت تماما .

لم أعد انسانا طبيعيا ، هل جننت ؟

اطلالة على القصة القصيرة فى سورية

خلال ربع قرن

بقلم : حيدر حيدر

فى البدء لابد لى من القول : اننى لست ناقدا . ورغم اننى حاولت مجربا فيما مضى أن اسير بعض الخطوات فى هذا الدرب الا أننى توقفت .

ليس مبالغا ذلك القول : أن فى أعماق كل ناقد فنانا خالقا يسمونه بأنه فاشل . لكن عكس المقولة يمكن أن يكون صحيحا أيضا .

اننى أؤمن بأن عملية النقد هى عملية خلق، بينها وبين الأثر الفنى وشائج قربى . كما أؤمن أكثر بان الكاتب الأصيل يتحرك فى أعماقه الناقد والشاعر والروائى والمسرحى والفيلسوف والسياسى ، وهو بهذا المعنى يحتوى عصره ومعطيات هذا العصر بنسب متفاوتة ، وفى جميع هذه الأبعاد اذ يتحرك فبكل زخم اصالته وبكل الصدق والوضوح والعمق دون أن يسف أو يهوى . فثمة مستوى معين يمكن تسميته تجاوزا بالرائز الموضوعى لا يهبط الكاتب الأصيل الى مادونه ، غير أنه فى فن ما يتجلى أكثر ويتجاوز هذا الرائز ، وفى هذا التجاوز الفذ يحتاز هويته: شاعرا أو روائيا أو مسرحيا أو ناقدا .. الخ.

هل كان على أن أسوق هذه المقدمة وهل هى مقنعة وهل ستبرر لى التقص فى دراستى هذه عن القصة القصيرة فى سورية والتى حملتنى مشقتها مجلة « المجلة » فى عددها الخاص عن القصة القصيرة فى الوطن العربى ؟

لست أدرى سوى أننى قبلت المهمة اسهاما منى فى محاولة كسر حلقة من الطوق الاقليمى المضروب على الثقافة فى وطننا العربى .

مع ندرة من الدراسات ومحدوديتها حول القصة وغياب الناقد الأدبى المتخصص غيابا شبه كلى فى القطر السورى ، ليس سهلا تقديم دراسة متكاملة حول هذا الموضوع .

ان ذلك سيكون ضربا من المجازفة التى تعتمد بالدرجة الأولى على قراءة المتوفر من الانتاج وبعض المراجعات الصحفية القديمة وبخاصة انتاج المراحل الأولى منه أو أواسطه



حيدر حيدر

- من مواليد ١٩٣٦ .
- تخرج فى معهد دار المعلمين بحلب عام ١٩٥٤ ، عمل بعدها معلما فى الريف .
- انتقل الى مدينة طرطوس عام ١٩٦٢ لدراسة اللغة العربية فى القسم الأعدادى من مدرستها الثانوية .
- طلب للجندية فى عام ١٩٦٣ وامضى فيها ضابطا اربع سنوات عاد بعدها الى عمله فى وزارة التربية .
- صدرت مجموعته القصصية الأولى « حكايا النورس المهاجر » عن وزارة الثقافة عام ١٩٦٨ .
- صدرت هذا العام مجموعته القصصية الثانية «الومض» من اتحاد الكتاب العرب .
- يعمل حاليا فى اتحاد الكتاب العرب منتدبا من وزارة التربية .

الأربعينات حتى مطالع الستينات ، وملاحظة الواقع الأدبي من خلال التماس اليومي مع الأدباء .

سيكون تعسفا لو بدانا بتقسيم زمني لأجيال القصة القصيرة في سورية وذلك لسبب أساسي : ان قسما من أجيال أواخر الأربعينات وبداية الخمسينات ما يزال مستمرا في الكتابة ولو كان ذلك بوهن .

لكن سيكون عادلا لو قلنا ان هذه الأجيال المتتالية حاولت وتحاول أن تؤسس لهذا الفن الجديد على الأدب العربي ، دون أن يكون هذا التأسيس معزولا عن تطور ونمو القصة القصيرة في الوطن العربي والعالم .

من حيث النشوء والتقاليد الحضارية والأصول الأساسية المرتكزة على أرض ممهدة سابقة ، تبدو القصة القصيرة كالمسرح رغم أنها أرسخ قدما منه في سورية .

فعلى مدى ربع قرن تقريبا ما يزال هذا الفن الجديد منفعلا متأثرا من الصعب منحه هوية متمايزة عن القصة في الوطن العربي والعالم ، كما انه لم يمتلك بعد مكتبة يمكن تصنيفها والعودة اليها على عكس هوية ومكتبة الشعر المتنامية والمميزة .

ولعل هذا يعود أساسا الى ان ثقافة العرب الحضارية الأولى بدأت بالشعر .

لهذا يمكن القول - مع الاحتفاظ باستثناءات نادرة - ان البدء في كتابة القصة القصيرة كان في ملامحه العامة نزوعا تجريبيا اكتسب في كثير من الاحيان طابعا هامشيا ومؤقتا . وقد غذى هذا النزوع التصور الخاطىء عن سهولة تناول هذا الفن والمناخات التي كانت متوفرة في الصحف والمجلات الكثيرة التي كانت تصدر في سورية طيلة الخمسينات ، أضيف الى هذه العوامل عامل المنافسة والتوكيد الذاتي وحب الشهرة .

ان الانقطاع والصمت والتحول نحو دروب أخرى فيما بعد ، احدث خللا في ذلك الازدهار الشكلي والكمي على الأقل ، والذي كان ناميا في مرحلة الخمسينات . ومهما كانت العوامل الذاتية والموضوعية التي صنعت هذا الانحسار مقلصة تلك الطفرة ببداية اصطفاء نوعي ، فالنقطة التي كان الانطلاق منها وهي التجريبية والهواية تظل صحيحة بل ويؤكدها هذا الانحسار والتوقف .

بدأت القصة القصيرة السورية في الأربعينات بأسماء لم يبق منها في مطالع الستينات غير عبد السلام العجيلي أحد الرواد الأوائل الذي انتهى الى أدب الرحلات والتجارب الشخصية التي عاشها أو راقبها خلال تجواله كسائح في العالم .

أما لماذا انطفأ اسم فؤاد الشايب ونسيب الاختيار وعلي حقي ومحمد النجار وميشيل عفلق وسامي كيالي ومظفر سلطان ، الرعيل الأول للقصة القصيرة في سورية فان الأسباب يمكن تلخيصها بالعوامل التالية :

١ - ان القصة القصيرة كانت في حياتهم شيئا طارئا أقرب الى الهواية منه الى الاحتراف .

٢ - العامل الوظيفي الذي امتص وقتهم وربما كان فؤاد الشايب واحدا من ابرز الضحايا للوظيفة .

٣ - لأن كتابة القصة القصيرة لم تكن أصيلة في أعماقهم اختاروا مجالات أخرى في الحياة سياسية أو صحفية أو وظيفية تؤمن لهم مجالا افضل ماديا ومعنويا .

٤ - الشعور بلا جدوى هذا الفن .

٥ - الاحساس بالقصور في مجال الابداع .

ان هذه العوامل المعيقة لم تكن وقفا عليهم ، فثمة أجيال تلتهم من كتاب القصة القصيرة صمتوا فيما بعد للأسباب نفسها مضافا اليها بعض العوامل الأخرى .

غير أن هذه الطليعة الأولى رغم قلة تأثرها وقصورها عن تأسيس مدرسة محلية بالمعنى التاريخي والأدبي ، الا أنها قد وضعت بعض الصوى على طريق القصة القصيرة التي نمت وازدهرت فيما بعد .

ما هي التأثرات العربية والعالمية التي لعبت دورها في قصص هذه الطليعة ؟

وضمن أي اتجاه فني كانت تتحرك قصصهم ؟

يقول فؤاد الشايب : «لم يكن لي أستاذ في القصة العربية . أحببت الف ليلة وليلة في سن المراهقة وأول الشباب وأحببت رسالة الغفران ثم قفزت لأقرأ توفيق الحكيم . وقد يكون لي بين الغربيين أستاذ من أمثال : دوهامل وأناتول فرانس، وستاندال وأندريه جيد وموباسان وغوركي ودستويفسكي ومورياك والأسطورة الاغريقية وأحب سارتر » ويذكر نسيب الاختيار أسماء أخرى منها : سرفانتس وبيرل باك ودانتي وتولستوي وطه حسين وتشيخوف وفاليري وهمنغواي وموروا .

ويقول عبد السلام العجيلي : « التنويع فيما أكتبه ليس مفتعلا . فأنا أغرف من منابع كثيرة في الحياة . فقد نشأت في جو البادية الغنية باحاسيسها والغريبة في تقاليدها وعشت

فى أجواء المدينة المعقدة الحياة المزدحمة المواقف . ودرست العلم وهويت الادب كما انى مارست السياسة سلما وحربا (اشترك العجيلى فى حرب فلسطين ١٩٤٨) وتنقلت فى أرجاء العالم الواسعة فتوفر لى من كل ذلك دخيرة من التجارب والذكريات والأفكار ما أعاننى على كتابة قصص متباعدة المرامى والأمكنة والمواضيع اننى لم أتتلمذ على قصاص أو روائى بعينه وقد يكون أثر فى كل من قرأت له . أنا أدين بلذة القراءة لكتاب قصص العرب القديمة الادبية منها والشعبية ولقصص المغامرات المترجمة حتى البوليسية منها » .

ان الحديث عن التأثر قد لا يختلف كثيرا بينهم جميعا وهو يتوس بين التراث العربى والقراءات الأجنبيه ، وهذا التماثل ستصطدم به فى التجربة والأسلوب واللغة . ولعل اغتراب الشايب والعجيلى قد أعطاهما بعض التمايز عن الآخرين . فقد قدمت تجربة الغربة والرحيل اضافه ذات نكهة خاصة ومثيرة فى «تاريخ جرح» لفؤاد الشايب « والحب والنفس » « والخيل والنساء » لعبد السلام العجيلى .

فى تلك المرحلة التأسيسية كان الاتجاه الفنى هو الواقعية التى تتمحور حول حادثة وبطل يفرزهما الكاتب من الحياة الاجتماعية اليومية ، وكانت القصة القصيرة فى عصرها الذهبى الكلاسيكى ، بداية فعقدة فصراع فخاتمة تحل الصراع ، وغالبا ما تكون النهاية مأساوية .

وكان الولع بالتيار الواقعى فى القصة يصل الى حدود دمج العامية بالفصحى أو التقديم للقصة بأنها واقعية جرت حوادثها فعلا وأبطالها ما زالوا أحياء ، وكان الكتاب فى تلك المرحلة يعتقدون بأن أقصى الجودة والتمايز والابداع يتجلى فى القدرة على التقاط صورة أو حكاية شعبية أو ايهام القارىء عن طريق التبسيط والحوار العامى بواقعية قصصهم . منذ الأربعينات حتى مطالع الستينات ــ باستثناءات متفردة ــ كان هذا الاتجاه الساذج هو المسيطر ، ولهذا فان تلك المراحل من تاريخ القصة القصيرة فى سورية قدمت نماذج قصصية متماثلة لقصاصين مختلفين الى حد كبير .

كانت ثقافة العجيلى وتجربته البيئوية نافذة وعى اضاءت بعض قصصه بالأسطورة والتحليل النفسى ، كذلك أتاح الاغتراب لفؤاد الشايب أن يقدم بعض القصص التحليلية ، ولكن ذلك ظل داخل الاطار الفنى الواحد المتكرر الذى يعتمد الرد والتسجيل والاسهاب والاستطراد والوصف . كما تميزت تلك القصص وفى مراحل تالية بموضوعات متشابهة تقريبا عن التقاليد والزواج والحب الفاشل والحجاب والدفاع عن الشرف والفقر والتباين بين أخلاق الشرق والغرب والقبيلة . كانت بمجموعها متميزة بحس أخلاقى بورجوازى مسالم . وكان محمد النجار فى مجموعتيه « فى قصور دمشق » و « همسات بردى » الاستثناء الوحيد فى تلك المرحلة الذى خرق تلك الأخلاقية المسالمة بقصص جنسية قال عنها شاكر مصطفى فى دراسته « القصة فى سورية » : « لقد كان نشر قصصه فى كتاب فضيحة . فقد كانت له بين جماهير المتادبين هزة . ولقد هوجمت قصصه بمثل العنف الذى تهاجم به الفضائح » .

لكن تلك الجراة فى قصص النجار كانت على حساب الشكل الفنى الردىء الذى كان سائدا فى تلك المرحلة .

فى الحقبة التى تلت منذ صدور مجلة «النقاد» الاسبوعية فى تشرين الثانى عام ١٩٤٨ حتى توقفت فى عام ١٩٥٨ لقيت القصة القصيرة مناخا فسيحا لا مثيل نه فى التجريب والكم والهواية والتنافس .

وخلا أسماء قلائل من ذلك الطوفان القصصى لم يستطع أحد ان يقنع الآخرين أو نفسه بأنه متميز وانه سيستمر .

لقد كانت القضية على ما يبدو من خلال أكثر ما كتب خلال السنوات العشر قضية آنية وطفيلية أحيانا . قضية عنصر الاصالة والنضال من أجل الاستمرار والتطور الجدى مفقودان فيها .

فاذا أخذنا كلمة اليوت : « لولا تلك القلة من الناس الذين تجتمع لديهم الحساسية الفذة والقدرة الفذة على الكلمات لانحطت قدرتنا لا على التعبير وحسب بل على ان نحس شيئا سوى المشاعر الجافية » على انها جوهرية فسنكون مضطرين الى اخراج وتنحية الكثير من اولئك الفاقدين للحساسية والقدرة الفذة الذين على ما يبدو كانوا بحاجة الى ثقافة وتجربة وموهبة ولغة لم يحتازها منذ البدء .

ان القراءات الواهية والسطحية والسريعة وغير المنظمة والتى لم تتمثل فى مخبر النفس ، الى جانب ضحالة التجارب الذاتية التى عاشها الكثير من كتاب القصة فى محيطهم الضيق ، أفرزت خلال سنوات الخمسينات قصصا وقصاصين متماثلين فى الأسلوب واللغة والمضمون . لقد كانوا استمرارا ليس للمتميزين كالشايب والعجيلى والنجار وانما للأنماط العادية الأخرى التى عبرت كغيوم صيف فى سماء القصة السورية . ان هذه المسالة تفسر

التشابه والتماثل بين مجموعة لا بأس بكثرتها من كتاب القصة بحيث يصعب التمييز بينها وخاصة من الأسلوب واللغة والبناء الفنى العام .

كانت « النقاد » منبرا حرا وميدانا موسميا يشبه سوق المربد أو عكاظ وآخر ما كانت تسعى اليه او تفكر فيه هو عنصر الاصطفاء ، وكان حيادها الفني انعكاسا لحيادها السياسي ، فكما كانت تنشر قصصا رديئة لكتاب من الدرجة الخامسة وقصصا لكتاب من الدرجة الأولى ، كذلك كانت تنشر لكتاب يمثلون اقصى اليمين واقصى اليسار .

يقول ماثيو آرنولد : « ما ليس بممتع هو الذي لا يضيف أى شيء الى معرفتنا . هو ذلك الذي يتم تصوره فى ابهام ويتم عرضه فى تفكك . هو عرض عام غير محكم . واه بدلا من ان يكون خاصا محكما ثابت الأركان » .

فاذا ما طبقنا هذه الكلمة المركزة والعميقة على نتاج القصة القصيرة فى سوريه خلال تلك الحقبة من الزمن ، فسنكون مضطرين بلا ندم الى اعدام تسعة أعشار النتاج القصصى الذى كان بينه وبين الاضافة والامتاع والاحكام مئات السنوات الضوئية . ان بعض الكتابات النقدية التى نشرت فى كتيبات أو فى الصحف والمجلات والتى اشتملت على المزيد من التقريظ واللاموضوعية ، كانت منطلقاتها الثقافية افقر من ذلك الركام القصصى المفكك والمقلد والمتسم بسذاجة وأحيانا بتبلد ذهنى واضح .

كانت الواقعية كتيار فى البدء مرحلة انتقالية من الرومانسية ، لكن الرد على الرومانسية المفرطة بواقعية جافة وشكلية وأكثر افراطا تتمثل على نحو ساذج فى معظم القصص القصيرة فى سورية فى حقبة الخمسينات .

ومع أن احدى كاتبات القصة القصيرة فى سورية وهى قمر كيلانى تقول فى محاولة رد على الواقعية الكلاسيكية : « فى العصر الحديث تحطم مفهوم القصة القصيرة ومفهوم الرواية من حيث اشتمالها على الحوادث والعقدة والمفاجآت والحل وما شابه من مقومات القصة أو عناصر الرواية . تحطم هذا المفهوم مع السيل المنهمر من الأدب الوجودى واللاعقلانى على تيار الوعى واللاوعى كما يعتمد التداعى النفسى والرجوع الى اعماق النفس الانسانية فى كهوفها وزواياها الغامضة حتى غدت معه القصة أو الرواية نوعا من التجربة النفسية لا أكثر لا ترتبط بالأحداث ولا تتعمد العقدة ولا تهتم بالخاتمة » .

الا أن هذا التصريح يظل فى مجال التجريد والأمنية الكامنة فى أعماق نفس الكاتبة ، وتظل قصصها أقصر وأجدب من أن تحقق النسبة المعقولة من القصة النفسية أو قصة تيار الوعى . لقد كان قسم كبير من كتاب القصة القصيرة وفى تلك المرحلة مهووسا بالذات باطلاق المواعظ والأحكام والكلمات الارشادية التى استقاها من خلال بعض قراءاته أو من خلال مشاعره الداخلية ، لكن الندرة من هؤلاء استطاع أن يجسد فى قصصه شيئا من هذه المواعظ والأحكام .

فى القصة أو الرواية أو المسرحية أو اى فن آخر ليس صعبا على كاتب يتمتع بثقافة وسطى، مع ادراك أولى لواقع المجتمع ، أن يعبر عن أزمة هذا الواقع وأزمة انسانه ، وأن يحلل المشكلات الأساسية فيه ويرصدها . ان السؤال ليس فى معرفة الخطأ والصواب وانما السؤال هو : كيف نتحدث عن هذا الخطأ وهذا الصواب ؟ وهذا السؤال ليس ثانويا على الاطلاق فى العملية الأدبية . ان القضية الفنية فى الأسلوب واللغة والبناء مطروحة هنا بحدة وهى مشتبكة بشكل عضوى مع المضمون . ثم انها التى تمايز فى النهاية بين كاتب وآخر فى عصر واحد .

ان قصاصا معروفا ومستمرا حتى الآن فى الكتابة هو حسيب كيالي يقول : « أنا كاتب واقعي واجد الواقع أعمق من أى خيال وابعث على العجب . والقصة مهما يكن نوعها يجب أن تكون قطعة ، جزءا دافئا نابضا من الحياة . والبراعة فى أن يجعل القاص (الكل) يتراءى من خلال هذا الجزء » .

ويقول عن الواقعية التى ينتمى اليها بأنها : « واقعية الدهشة وهى اعادة استكشاف العالم . هى رؤية جديدة للعالم ! رؤية بعينى طفل » .

ان هذا الاطلاق يذكرنا بالاطلاقات الأخرى من حيث الرغبة التجريدية الكامنة والتى لم تخرج الى الضوء . فتعبير واقعية الدهشة واعادة استكشاف العالم تعنى اعادة صياغة الواقع بطريقة جديدة وتقديم قصص أبعد ما تكون عن النسخ الواقعي لما هو قائم . واذا كان الفن يهدف فيما يهدف اليه الى النضال الحاد ضد البؤس بؤس ومرارة الوجود الانسانى بحثا عن الضوء والخصب والفرح ، فما الذى سنجنيه فى تقليدنا الغبى للواقع ضمن العمل الفنى أكثر من التكريس المضجر للبؤس والمرارة القائمين فى وجوهنا .

ان اللجوء الى الالتحام العضوي بالواقع لنقله فقط واستعمال اللغة الدارجة واغفال الجوانب الواقعية أيضا من حياة الانسان كالحلم

والأسطورة وتيار الشعور واللاشعور وحركة الزمن ، هذه الجوانب المحرضة بفعالية فى حياة وواقع الانسان نسيانها والتغاضى عنها لا يقدم لنا أكثر من لوحة منقولة من الحياة بدقة وأمانة، لكنها لوحة ناقصة مع الأسف .

تقول ناتالى ساروت : « هناك نوعان من الواقع والواقعية بالنسبة للكاتب . الواقع الذى يعيش فيه ويراه الناس جميعا منذ الوهلة الأولى وهذا الواقع هو الذى تعيش فيه الحياة اليومية . وهو أيضا الذى درسته واستخدمته وعبرت عنه مرارا الأشكال الأدبية المطروقة . وهذا الواقع اليوم مجال الصحافة ويعتمد التعبير عنه على الوثائق والتحقيق الصحفى ولكن هذا الواقع ليس المجال الذى تعمل فيه طاقة القصاص الخلاقة . فواقع القصاص هو ما لم يعرف بعد ، وهو بالتالى لا يمكن التعبير عنه بالأشكال المطروقة والمعروفة بل يقتضى ابداع طرق جديدة للتعبير وأشكال وقوالب فنية جديدة . ان الفن كما يقول بول كلى : لا يرينا ما هو منظور بل يجعل ما لا نراه منظورا » .

ان مدرسة تشيخوف وغوركى وزولا فى عصرها كانت واقعية مبدعة مليئة بالحرارة والنبض الانسانى النابعين من أعماق الكاتب الذى كان يضيف و يكتشف ، الا أن هذه المدرسة وهى تنقل من أرضها الى أرض أخرى بدأت تفقد حرارتها ونبضها وتتحول الى واقعية ذاتية مفرطة ، بليدة وساذجة . لقد كانت الواقعية فى معظم القصص السورية بلا أصالة ولا مرتكزات ثقافية . وكانت الموهبة مجدبة بشكل يدعو الى الرثاء .

ان عشرات القصص التى نقرأها لياسين رفاعية وناشد سعيد وفارس زرزور وعادل أبو شنب وسلمى الحفار الكزبرى ونصر الدين البحرة وجان الكسان وجورج سالم واسكندر لوقا وعادل سلوم ، فى تلك المرحلة الخصبة كميا تفتقر الى ما أسماه « آرنولد » الاضافة والتمايز والاحكام . وهى تقليد مشوه لمدرسة تشيخوف وغوركى وزولا وتتناول موضوعات عادية ذات أثر آنى قليل الأهمية .

كان عنصر الابداع شبه مفتقد فى عدد كبير من القصص ، هذا العنصر الذى شع وانبثق بشكل واضح عندما ظهرت قصص محمد حيدر وزكريا تامر ومصطفى الحلاج وسعيد حورانية وغادة السمان وصدقى اسماعيل .

ان التحليل والمراقبة الدقيقة للنوعية الفنية لنتاج القصة القصيرة فى تلك المرحلة يفضيان الى نقطة جوهرية هى : ان الموروث القصصى السابق كان ضحلا وفقيرا ، وان الذين تحدثوا باعتزاز ذاتى عن أن كل كاتب هو مدرسة قائمة بذاتها وهم يعنون أنفسهم بطريقة لا مباشرة . كما يصرح القاص نزار مؤيد العظم بأسمائهم ، معلنا ذلك تحت ستار لافتة فيها الكثير من الكبرياء غير المقنع : الموهبة والاصالة. هؤلاء ربما كانوا فى الطرف الآخر المناقض تماما

ليس من شك ان الموهبة والاصالة أساسان جوهريان فى عملية الخلق الفنى ، ولكن أن يكون اى كاتب وخلال مدة قصيرة من عمره الأدبى ، مدرسة مستقلة وهو مغرق فى تقليده الأبتر لتشيخوف أو غوركى أو زولا أو غيرهم من العالميين ، فهذه موضوعة غير منطقية لاتقنع حتى أولئك الكتاب ذوى الظلال الكبيرة .

فالى جانب الاصالة والموهبة توجد أمور اخرى أساسية هى الأخرى اذا لم يحتوها الكاتب تظل موهبته واصالته غيما فى صيف قائظ يعد لكنه لا يمنح مطرا ، وفى مقدمة هذه الأمور الوعى العميق للجذور التاريخية والنفسية لواقعه وللانسان داخل هذا الواقع التاريخى فى الماضى والحاضر ، وعلاقة هذا الواقع والانسان القومیین بالواقع والانسان فى العالم ، بمعنى آخر فهم واستيعاب الوجود البشرى ومحركات هذا الوجود ضمن مراحل تاريخية باطاراتها الاقتصادية والسياسية والنفسية والثقافية ، فهما واستيعابا عميقا واضحا مركزا . وهذا الفهم والاستيعاب هو حجر المسن لصقل الموهبة وخلق كشوفات جديدة شديدة الدقة شديدة التركيز والكثافة ، كما انه يحدد بدقة الفرق الجوهرى بين أدب عميق خالد وأدب سطحى آنى.

وبهذا المعنى يقول كولردج : « ان الفكر العميق لا يصل اليه الا رجل عميق الشعور وأن كل الحقائق هى نوع من الكشف والالهام » .

لقد كانت تلك المرحلة الخطرة من حياة القصة القصيرة فى سورية والتى لايزال عدد كبير من كتاب تلك المرحلة يزهون ويتباهون بها، تفتقر الى هذا الفهم والاستيعاب الشمولى والعميق ، وكلمة اليوت تصح تقريبا من أن : « بعض الذكريات المستمدة من القراءة والحياة تصبح فى بعض الأذهان مفعمة بالقيم العاطفية ويستغل الكاتب هذه الذكريات جميعا فاذا بما يكتبه يكتسب الحدة على حساب الوضوح » .

ففى قصص كتاب تلك المرحلة الكثير من الذاتية والذكريات الشخصية التى تتسم بفيض عاطفى ذى طابع تراكمى مشحون بالأسى والحزن الفرديين بحيث لا ينفذ الى الحزن العام الذى ينبغى أن يحسه القارىء . وهكذا كانت الكثير من القصص تدور حول مدارات عاطفية

واندفاعات نرجسية وعلاقات يومية عابرة لا تشد أحدا ولا تعنى الا شخص الكاتب . كما كان واضحا أن هناك اتفاقا لاشعوريا مبرما بالمحايدة عن الأمور السياسية ، وتغاضيا عن السلطة الحاكمة وهى سلطة بورجوازية ذات ايديولوجيا دينية رجعية ، وكأن تواطؤا مقصودا أو غير مقصود بين الكتاب والسلطة كان يتم فى كثير من الأحيان على حساب الجرأة والاحتجاج وفضح الطغمة البورجوازية الرجعية التى امتصت دم الشعب تحت ستار المفهوم الوطنى المزيف .

لقد ظهرت بعض القصص الوطنية التى تمجد الحركة الوطنية المعادية للاستعمار وتمجد الثوار الذين قاوموا فى الماضى الغزو الاستعمارى ، وبعض القصص عن فلسطين فى قصص العجيلى وحسيب كيالى وعادل أبو شنب وسعيد حورانيه وفارس زرزور وعبد العزيز هلال وفاضل السباعى . ولكن تلك القصص كانت تبدو يتيمة ومعزولة عن التيار العام الآخر . فى أواسط الخمسينات تشكلت رابطة سميت (برابطة الكتاب السوريين) تدعو الى ما سمته أدب الشعب) ردا على النظرية التى كانت سائدة آنذاك (الأدب للأدب أو الفن للفن) ، وقد دعا الى هذا التجمع مجموعة الكتاب الماركسيين ومن أبرزهم : اليان ديرانى وحسيب كيالى وسعيد حورانية وحنا مينه وصلاح ذهنى ومواهب كيالى وشوقى بغدادى ونصر الدين البحرة وفارس زرزور . وقد ضمت بعض كتاب القصة الآخرين من غير الماركسيين .

طرحت الرابطة لأول مرة موضوع الالتزام فى الادب ، وكان واضحا منذ البدء أن مفهوم الالتزام الذى طرحته هو رد مباشر على النزعة الذاتية والرومانسية التى كانت سائدة ، وقد قاوم فريق من كتاب القصة بيان الرابطة وهذه الدعوة التى وسمت بأنها « جدانوفية » تريد ربط الأدب بالسياسة مباشرة ، هذا الربط التعسفى الذى يقتل حرية الأدب ويؤطره ضمن مفاهيم ضيقة والأدب أشمل منها .

ومع ان هذه الرابطة قد تحولت من اطارها الاقليمى الى اطار قومى فسميت فيما بعد (رابطة الكتاب العرب) وضمت عددا آخر من الكتاب ، الا أن الهدف الذى سعت اليه وخاضت معارك أدبية لترسيخه لم يترسخ .

فخلال الممارسة خرق الكثير من الكتاب الماركسيين أنفسهم ، الاطار السياسى والاجتماعى للرابطة ، وظهر فى انتاجهم عدد لا بأس به من القصص النفسية والذاتية ، وبدا للكثيرين ان مذهب الواقعية الاشتراكية الذى أخذ به أدباء الاتحاد السوفياتى والدول الاشتراكية الاخرى والذى انتقل الى الادب فى سوريه بحكم الانتماء السياسى ، بدا هذا المذهب ضيقا ومحاصرا وعاجزا عن تأطير حتى الادباء الماركسيين أنفسهم .

ومع ان نشوء الرابطه يعتبر انعطافة مبشرة وكان يمكن أن يوجه ضد حكم البورجوازيه الحاكمة فى سوريه ويكسر التواطؤ السرى الذى كان قائما بين الكثير من الادباء وبين الطغمه البورجوازيه الرجعيه ، الا أن التكوين الفردى والذاتى وحالة الفصام التى كانت قائمه بين الكثرية الادباء وبين الشعب ومصالحه الاساسيه ، ورسوخ الروح الاقليميه ، والتشرذم السياسى بين الادباء انفسهم ، كل هذه العوامل جعلت من الرابطه مجرد ذكرى فيما بعد .

لقد حفلت تلك المرحلة بقصص جماهيرية وملتزمه لسعيد حورانية وفارس زرزور وحسيب كيالى واسكندر لوقا ونصر الدين البحرة والفه الادلبى وعبد العزيز هلال ووليد مدفعى وجورج سالم .

وكانت تلك القصص نوعا من الارتداد اللاشعورى ضد تيار الاندفاع الذاتى والصمت المبرم بين الكاتب والسلطة . الصمت الذى كان يحمل الخوف واللامبالاة معا .

غير ان قضية الشكل الفنى فى هذه القصص ظلت قائمة ، كما ظل موضوع عنف المواجهه للسلطة والاخلاق البورجوازية الرجعية مطروحا فى ميدان القصة فى سوريه .

فى النصف الثانى من الخمسينات ومطالع الستينات بدأت قصص محمد حيدر وزكريا تامر ووليد اخلاصى ومصطفى الحلاج الذى فاز بالجائزة الاولى لمسابقه «النقاد» عن قصته «كل الرجال الا هذ» تظهر كظاهرة جديدة فى أسلوب القصة ، وتنامى تطور العجيلى وسعيد حورانية الذى فاز بالجائزة الثانية لمسابقة النقاد عن قصته غير الملتزمة طبقيا «الطفل يصرخ فى الظلام» .

فبظهور هذه المجموعة المتميزة وبخاصة محمد حيدر وزكريا تامر ووليد اخلاصى بدأت القصة القصيرة انعطافا فنيا يؤكد ما قالته ناتالى ساروت عن الواقع الذى لم يعرف بعد ، وتحطيم الاشكال المطروقة السابقة وظهور اللامرئى الى ساحة المرئى أو اللاشعورى الى الشعورى . كما بدأ يتوضح فى بداية الستينات التمرد الواعى على الواقعية التسجيلية المفعمة بالسرد المتسلسل للحادثة والوصف الانشائى الفج والممل . وهكذا دخلت القصة القصيرة وبشكل فنى وصاعق عالم النفس الداخلى لتطل على أحزانه وقهره ووحشيته ، غير

هيابة من لطم العالم الخارجي بقصص حادة شرسة مع قدر جيد من الفنية .

ان عالم الاخلاق القديم المسالم ، ودغدغة طقوس المجتمع ، والمحايدة البورجوازية الوادعة . هذا العالم الذى كان يطبع ويسم قصص الرعيل الاول وما تلاه ، بدأ ينهار .

ففى قصص محمد حيدر وزكريا تامر ووليد اخلاصى سوف نلحظ بوضوح هجوما شرسا ضد القيم التى تسود عالما الانسان فيه مذل ومطعون ومهدد ، كما نلحظ بداية خرق حاد للمحرمات بأبعادها الدينية والجنسية الى جانب صرخة طبقية مغلفة بالعذاب الداخلى . لقد ولد جيل يكتب يغضب مبرر لأنه بدأ يفهم ويستوعب المسألة التاريخية الى جانب المسألة النفسية من خلال التاريخ ، وكأنه رد غير مباشر ضد جيل كان يعانى فتورا بورجوازيا وادعا .

ولم يكن هذا التحول الجديد والبداية الجوهرية . كانت القضية الفنية فى أعمال هؤلاء الكتاب متمايزة وفيها الكثير من الاحكام والدقة .

ان قصص محمد حيدر تضج بمرارة داخلية ، ويتميز هذا الكاتب بحس زمنى ونفسى معاصرين لا يمكنك الا أن تدهش وانت تقرأ له رغم انه قاس وعالم قصصه عالم مستوحش صحراوى لا يكاد يقدم لك قطرة ماء .

ان عالمه هو عالم المقهورين والمنبوذين والمتشردين . عالم البشر الذين يبدو أن الارحام قد حبلت بهم خطأ فى لحظة نزوة حمقاء ثم ولدوا ونموا غير متوافقين مع العالم .

فهو يقول فى قصته (المتفرج) : « كنت طفلا وكان هناك أطفال كثيرون كانوا يلهون بألعاب مختلفة يقدمها لهم آباؤهم . أما أنا فكنت محروما من كل هذا . انكم تعرفون الانسان بانه حيوان ضاحك ولكن اسمحوا لى أن أقول لكم باننى أمثل نقصا صريحا لحكمتكم الباهتة ، فروحى لم تعرف الضحك ، ولن تعرفه فى يوم » .

ان دمج القضية الطبقية بالجانب النفسى من الانسان يشكل فهما أعمق للوجود القومى والوجود الانسانى ، ومحمد حيدر يقدم هذا الفهم بفنية تتراوح بين الرمز والمباشرة بين العفوية العقلانية ، هذه العقلانية التى تفسد أحيانا جو القصة وتنقلها الى جو المحاضرة والتقريرية .

على النقيض من مجموعات كبيرة من كتاب القصة الذين كانوا لا يزالون فى الساحة ، هذه المجموعة التى كانت تتقن التحدث عن فن القصة والمدارس الادبية والموهبة والاصالة وسخونة ارتباطهم بالواقع ، بينما كانوا عاجزين عن تقديم قصة مثيرة وفذة ومتميزة تترك فى النفس ايقاعا لا ينسى ، على النقيض من هؤلاء كانت قصص محمد حيدر وزكريا تامر ووليد اخلاصى وعبد السلام العجيلى وسعيد حورانية قد بدأت ترسخ أساسا متماسكا لبناء قصة قصيرة تخطت الواقعيه السردية الواصفة وتجاوزت الهموم الشخصية الصغيرة .

كانت قصص زكريا تامر التى نشرها فى النقاد وفى مجلة الآداب اللبنانية والتى ظهرت فيمابعد بمجموعته الاولى «صهيل الجواد الابيض» ظاهرة جديدة متفردة فى الاسلوب واللغة .

بشراسة حادة ممزوجة بطفولة غنائية ، وبكثافة شديدة مع حساسية مرهفة يتشكل عالم زكريا تامر مزيجا من الواقع والرمز والحلم والحنين الرومانسى ردا على صلابة الواقع اليومى المشحون بالقهر والبشاعة وفقدان البراءة .

واذا كانت أجواء معظم القصص القصيرة فى المرحلة السابقة علىزكريا تامر تتسم بذلك الهدوء المدغدغ للواقع والعالم ، فان قصصه وقصص محمد حيدر ووليد اخلاصى على وجه التخصيص تجتاحها صرخات موحشة من قبل مخلوقات غير متلائمة مع واقعها ووجودها . مخلوقات هى فى التحليل الداخلى الشخص الثانى المقيم فى اعماق الكاتب والذى يرفض العالم الخارجى لأن تكوينه غير سوى .

يقول محى الدين محمد فى دراسته عن مجموعة زكريا تامر «صهيل الجواد الابيض» التى نشرها فى «الآداب» : «كل شخصيات زكريا تامر تتكلم باسمه وتعلن عن حججه وتحمل اسلحته وذلك خطأ فنى وقع فيه الكاتب وكأننى به غير مستطيع أن يقنع القارىء بمنطق الابطال الغريب . ان عنصر الموافقة على الهرب والسلوك القبيح والانهزامى والشذوذ متفق عليه من كائنات زكريا تامر جميعا فكأنهم يفصحون عن مجتمع مكون له من نسخ متكررة لبطل يتيم واحد» . ثم يضيف : « ان نسفه عن الانسان بازاء الاله كان نسفا تنقصه الدقة والاحاطة والصدق . فنصف المأساة غير مدفونة فى قلب الكاتب وهى فى الحقيقة مستورة تماما » .

لقد قدم زكريا تامر قصصا قصيرة تنبىء عن موهبة لا مجال لانكارها وكانت تلك القصص حتى أواسط الستينات كالشجرة الخضراء الظليله فى عالم صحراوى ، على الرغم من ان تلك القصص تقدم عالما مظلما يحتشد بالسادية والماسوشية والكسل والتسكع العبثى والنشدان المثالى لعالم يلهث البطل وراءه لكنه يظل سرابا .

ومع ان قصص زكريا تامر تتسم بالغنائية الدافئة وبذلك الالحاح الحار على الجانب الفاجعى والحرمان ، الا انه يبهظ الحادثة أحيانا بكثير من

الصفات والاثقال الذاتية والتكرارات راميا الى توليد انفعالات أشد في نفس القارئ كما في قصته الطويلة « رحيل الى البحر » أو « سليمان الحلبي » حيث يتكرر مشهد التعذيب في الاولى ومشهد القتل ، وفي الثانية مشهد الموت البطيء المتكرر عن طريق بتر أعضاء الجسد عضوا أثر عضو • وفي القسم الاكبر من قصصه تمركز مفرط حول مضمون واحد يتكرر هو : الانسان والسلطة • الانسان البريء دائما والسلطة التي تطلبه وتحاكمه وتقتله • وفي الشكل طريقة واحدة متماثلة في العرض ، تشبه طريقا مألوفا واحدا سرت عليه آلاف المرات وفي نهايته ستصل الى مدينة تعرفها من قبل وهي : مدينة القتل والتعذيب • يقول «ماثيسن» مؤلف كتاب «اليوت الشاعر الناقد» : «ان اليوت هو ذلك الفنان (وجويس صنو له في هذا) الذي تتمثل رغبته الحافزة في أن يبلغ بتعبيره الى أعظم اجادة يستطيعها ثم لا يكرر ذلك • واذا رفض الشاعر والقصاص أن ينحبسا طويلا في اطار طريقة مقررة من العرض فما ذلك الا لوعيهما التاريخي الفذ ومعرفتهما بوسائل فنية كثيرة تدفعهما الى أن لا يظلا قانعين بحدود طريقة واحدة » • ان عالم زكريا تامر الذي يدهشك بمفاجآته الاولى والجزئية هو بكليته عالم ضيق ومحدود ومعاد ، ويبدو في النهاية كملعب لكرة القدم مؤطرا بمرميين تقطعه الكرة من الاول الى الثاني ومن الثاني الى الاول ولكن بمحاولات جادة وبراعة قديمة في حركات اللعب •

بدأت لائحة الصمت « بفؤاد الشايب » بعد مجموعته الوحيدة «تاريخ جرح» واستمر العجيلي متطورا ومدهشا في بعض قصصه وخاصة «قناديل اشبيلية» و «كفن حمود» وضمت لائحة الصمت « محمد حيدر » بعد مجموعته « العالم المسحور » تبعه سعيد حورانية بعد مجموعاته الثلاث «وفي الناس المسرة» و «شتاء قاس آخر» و « سنتان وتحترق الغابة » واستمر زكريا تامر الذي نشر مجموعته الجديدة عام ١٩٦٥ ، ربيع في الرماد ، كما صمت مصطفى الحلاج وهاجر آخرون من سورية الى لبنان والبلاد الاجنبية واتجه الكثير من كتاب القصة القصيرة الى الرواية أو الدراسات أو المسرح ، واستمر وليد اخلاصي وحسيب كيالي وجان الكسان واسكندر لوقا وعبد العزيز هلال وقمر كيلاني وعادل أبو شنب وجورج سالم ومراد السباعي •

في أواسط الستينات بدأت مجموعة جديدة من كتاب القصة القصيرة تظهر لتنضم الى قافلة من تبقى واستمر كعبد الله عبد وهاني الراهب وأديب نحوي ونواف أبو الهيجاء الكاتب الفلسطيني الذي هاجر من العراق واستوطن سورية • ومن بين النساء ظهر اسم ناديا خوست وملاحة الخاني وخديجة النشواتي (أم عصام) وانعام سالمة •

كان ظهور هاني الراهب مقرونا بجائزة «الآداب» عن روايته «المهزومون» كما اقترن اسم عبد الله عبد بجائزة «حوار» عن قصته القصيرة «الرجل والعربة» • واذا كانت قصص هاني الراهب القصيرة التي نشرها بعد روايته في المجلات والصحف في سورية ولبنان والتي ضمتها مجموعته « المدينة الفاضلة » فيما بعد تتميز بأسلوب جديد وخاص زاخر بالمرارة والحزن والشفافية الشعرية ، وغير متأثر بمدرسة أدبية محددة ، فان قصص عبد الله عبد التي نشرت في أول مجموعة له « مات البنفسج » تتميز بأسلوب تشيخوفي متماسك فيه الكثير من الاحكام والدقة والكلاسيكية المتقنة •

ان كلمة وليد اخلاصي التالية يمكن أن تسلط الضوء على جانب هام من عوالم الكتاب المبدعين في هذه المرحلة رغم ما في هذه الكلمة من (فانتازيا) مغرقة بالسوداوية : «يقف الكاتب في بقعة تنبذه فيها قوى الرحيل وترده حتمية الوجود • انه يناضل كأسد في سيرك ، يريد أن يمضي ، وهو في حرب مستمرة مع نفسه والآخرين • يهندس عوالم ثانية فينهد للبناء • تلك هي الغربة في أقسى أطوارها • ينظر الى الأشياء فاذا هي في غير موضعها فيعكف على كتابة قائمة الاحتجاج ضد : الكذب ، والنفاق ، والفقر ، والجوع ، وامتهان الكرامة ، وميوعة الفنون ، وتعسف المؤسسات الاجتماعية والسياسية ، وضجيج المدينة ، وانتصار السوقية ، وتسلط التفاهة واضطهاد الحقيقة • الى آخر القائمة المحتوية على عشرات الاحتجاجات الصارخة والباهظة ، والتي تتناثر قتلى بين أسطر القصص » •

ووليد اخلاصي مع زكريا تامر وعبد الله عبد وهاني الراهب وأديب نحوي نماذج مميزة ومختلفة تشكل دروبا واضحة في أرض القصة القصيرة المعاصرة في سورية ، وهذه الدروب تلتقي وتفترق بنسب تحددها التجربة والثقافة والموهبة •

واذا كانت قصص وليد وهاني وأديب نحوي متنوعة في العرض والمماثلة ، فان قصص عبدالله وزكريا تتسم بوحدة أسلوبية خاصة لا تفقدها الأصالة •

يقول اليوت : «قد يمضي نتاج الفنان في خطين على رسم بياني متخيل ، وأحد الخطين يمثل

جهـــده الواعي الدائب في احكام الصنعة أي في تطوير أدواته من أجـل اللحظة التي يحس فيها حقـا ان لديه شيئا يقوله • والخط الثاني هو المسلك البشرى المـألوف في التطور أى حشده للتجربة وهضمه لهـا وأعني بالتجربة نتـائج المطـالعة والتأمل والرغبات والاهتمامات المتنوعة والصلات والعلاقات والشهوة والمغـامرة • وبين الحين والحين يلتقى الخطـان عنـد قمة عالية فنحصل على قطعة فنة رائعة • ومعنى هـذا أن احتشاد التجربة قد تبلور ليكون مادة فنية وان سنوات من الدأب على احكام الصنعة قـد هيـأ أدوات ملائمة وعن هذا ينتج شيء ما لا يستطاع فيه التمييز بين الاداة والمـادة ، بين الشـكل والمضمون » •

ان الموروث القصصي منـذ الاربعينـات في سورية حتى الآن كان متعثرا في الجانب الاكبر منه ، ومع ان التأثر والانطباع المتبادل والمعروف بين من سبق ومن تلا يمكن أن يكون قاعدة ، الا أنه في سورية وفي مجال القصة القصيرة يبدو وكأنه الاستثناء •

ان باستطاعتي أن أؤكد أن نسـبة عالية من كتاب القصة في الستينات مثلا لم يقرأ ما كتبه السلف انطـلاقا اما من الشـعور بالزهو أو الاحساس بلا جدوى تلك الكتابات التي توسـم بأنها ساذجة وقديمة وغير معاصرة •

ان هذا الموقف السلبي نقص فادح لا يغطيه حس الغرور والشعور بالتجاوز •

ولهـذا فكتاب القصة القصيرة المعاصرون والمتميزون في سـورية يبدو تأثرهم بالقراءات الاجنبية واضحا رغم ان اهتماماتهم واحساساتهم ومرامي قصصهم وليدة المجتمع والانسان العربي المعاصر •

ان فكرة التخطي للشـكل والمضمون والتي يطرحها كتاب الستينات داخلة في قضية التطور التاريخي لكل مؤسسات المجتمع المادية والمعنوية، واذا كان المضمون يفرض شـكلا خاصا ، أو ان هناك علاقة جدلية بينهما ، فان الاشكال الجديده للقصة القصيرة في سـورية تسير وفق تطور تاريخي طبيعي •

واذا كانت قصص العجيلي والشايب أصيلة ومتميزة في زمنها ، فمن الطبيعي أن تكون هناك مجموعة مماثلة في الاصالة والتمايز تغطي مرحلة جديدة تالية ، وبذلك يظـل خـط الابداع في جوهره متصـلا كحلقات في سلسلة لا تنتهي الا بانتهاء المجتمع والانسان • وبهذا المستوى يمكن أن نفهم علاقة الاجيال الادبية عبر التاريخ •

واذا كان العصر ككل قد طرح اشكالا حديثة في الأدب من غوركي حتى غريبيه ومن طه حسـين حتى نجيب محفوظ ، فان تطور المجتمع العربي من القبيلة الى بداية مفهوم الدولة الحديثة قمين بأن يفرز كتـابا يدركون هـذا التطور بشقيه العالمي والقومي •

فقضـايا التخلف والتـجزئة واسرائيـل والاشـتراكية مطروحة بكل حدتهـا الآن على المسـتوى الاجتماعي والقومي ، وعلاقة الانسان بالسلطة والمؤسسات التربوية والاخلاقية، والحرية وعلاقة الفرد بالجماعة والانسان بالتراث والانسان بالعالم ، أيضا تتفاعل في أعمـاق الكاتب على المستوى الذاتي والموضوعي •

لقد أدى هضم وتمثـل الأشـكال الجـديدة للقصة في العـالم والوطن العربي ، الى خلق أسـاليب حديثة تستفيد من الاسطورة ومدارس علم النفس ومزج الواقع المرئي والظاهري بالعالم الباطني والاحلام والحوادث التـاريخية القديمة واسقاطها على العصر الحاضر، في القصة السورية المعـاصرة • كما أخذت هذه القصص تعتمد على الجو بدلا من الحـادثة المروية محطمة التسلسل الزمني الذي كان معروفا في القصـة الواقعية السردية والتسجيلية ، وظهر اعتنـاء واضح في اللغة القصصية التي اقتربت من الشعر الى جانب قدر كبير من التكثيف والايحائية المرمزة بعيدا عن المباشرة والتقريرية التي كانت تطبع قصص جيل الاربعينـات والخمسينات • وفي هذه القصص مواجهة قاسـية وغاضبة لكل ما هو قائم وغير صـحي من السياسة الى الجنس الى الدين الى قضية الحرية حتى لتبدو أحيانا مسألة النشر غير ممكنة للقصص الصادمة التي لاتتحمل المؤسسات الرسمية مسؤولية نشرها •

أخيرا لست أدرى ان كنت قد قدمت في هذه الاطـلالة السريعة فكرة واضحة عن نشوء وتطور القصة القصيرة في سورية خلال ما يقرب من ربع قرن • انني أعترف ان في دراستي قصورا وان بالامكان كتـابة مجلد عن الموضوع نفسه ، ومع ذلك فقد حاولت أن أبرز أساسيات الموضوع ، وأن أتحدث بايجاز عن نماذج من الكتاب • نماذج بارزة ومتميزة في حلقات التطور يمكن أن تكون في تاريخ القصةصوى وعلامات أساسية وعميقة•

فلسطين

فصلان من :

السفينة

بقلم : جبرا ابراهيم جبرا

« السفينة » عنوان رواية انتهى منها جبرا ابراهيم مؤخرا ، وستصدر فى أواخر هذه السنة فى بيروت . والرواية الاخيرة التى كتبها قبل هذه كانت بالانجليزية بعنوان « صيادون فى شارع ضيق » Hunters in a Narrow Street وقد نشرت فى لندن عام ١٩٦٠ .

اخترنا من « السفينة » هذين الفصلين اللذين نرجو ان يجد القارىء متعة فى مطالعتهما ، رغم اجتزائهما من كيان الرواية المتداخل بعضه فى بعض .

تقع حوادث القصة عام ١٩٦٤ ، وفيها روايتان مختلفتان . أما الرواية فى كلا الفصلين المنشورين هنا ، فهو المهندس العراقى عصام السلمان ، الذى يلتقى على ظهر السفينة اليونانية هركيوليز ، وعلى غير توقع منه ، بلمى وزوجها الدكتور فالح حسيب ، وكان له بلمى علاقة سابقة . كما يلتقى بالفلسطينى وديع عساف ، تلميذ الفلسفة سابقا ، والتاجر الآن فى الكويت ، ويقع تحت تأثير دفقه اللفظى الذى يسجل بعضا منه فى قصته .

- ١ -

كلما اقتربنا من السواحل ، سمعنا صياح النوارس .

صياح حاد يباغتنا ، يشقشق الفضاء . واذا أسراب النوارس تهوى الى البحر فى اتجاهنا كالسهام ، ثم تنطلق عالية صاخبة ، لتتبعثر وتحوم فى دوائر منداحة ، على أجنحة بيضاء عريضة تنساب انسيابا ولا ترف ، ثم تتهاوى من جديد ، نثارا من حركة لا جهد فيها ، تصل بين زرقة السماء وخضرة المياه ، كلها فرح بحريتها الصادحة .

فى بغداد ، أيام صباى ، كنا نرقب النوارس فى الأيام الربيعية على نهر دجلة تتراشق هكذا فى رحاب الفضاء ، وتسف قرب الشطآن الكدرة حيث نلعب أو نسبح . أو نلقى لها فتات من طعام فى ظل الشناشيل المشرفة ، فتحط متزاحمة عليها حط الكواسر ، ثم تنطلق متنائية عنا الى مياه أخرى وصبية آخرين .

كنا أنا وأميليا متكئين على الحاجز نرقب النوارس الاولى ، وهى تروى لى عن حياتها فى بيروت ، عن زواجها الذى لم يطل ، وعن زوجها الذى أصر ، فى نزوة جنونية ، على الترهب فى أحد أديرة الجبل .

ما أسرع ما تصادق الناس على البحر ، وتتوهم ان صداقتك هذه ستطول مدى العمر . الناس فى السفينة يضحكون بسهولة ، ويحبون بسهولة



ويعترفون بسهولة، ثم ينسون كل شيء بسهولة. ما الذى يستطيع المرء فعله غير ذلك ، وهذه الجزر الاغريقية كالدرر الخضراء ترصع البحر ، وهذا فرنندو يحمل كرشه الكبير برشاقة الراقص على سلالم الباخرة ، واميليا تبدى للعين نصف نهديها، وجاكلين ، دوران تتمشى ، وردفاها كفلقتى فاكهة محشوان فى بنطلون أصفر ضيق ، مع ذلك الاسمر الكث الشعر ، الكبير الأنف ، وديع عساف ، الذى ولا ريب سيغتصبها ذات ليلة فى مقدم السفينة على مرأى من النجوم المتلألئات الكبار ؟ لقد بدأوا يطلعون من السراديب . أطفال يتصايحون باليونانية ، وطلاب مصريون ينكتون ، ينكتون باستمرار ، ثم ينصرفون الى لعب الورق ويغضبون ويتساتمون ، ثم يقهقهون الى ما لا نهاية .

من كل مدخنة ينطلق الدخان أحيانا كجنى عملاق يتعاظم ويتلوى ، ثم لا يبقى له أثر ، ككل جنى . وقد ينطلق نفير السفينة فى عواء غليظ فيجيبه نفير غليظ من سفينة أخرى . والركاب يلتقطون الصور لبعضهم البعض ، عند زوارق النجاة المعلقة على الجوانب ، على درجات «البرج» على حواف بركة السباحة .

وأنا واميليا نتحدث . وندخن . وقد جعل كلانا يعرف الآخر ، وأنا أشغل نفسى بها عن لمى ، بشىء من الاصرار ، وكثير من اللؤم . لقد بدأنا نلعب لعبة العشاق ـ عشاق السفرات الملاح القصار . فاذا وضعت يدى على يدها ، أدارت كفها لتلامس كفى . واذا دنوت منها ، دنت بخدها أكث لانشق عطرها . التصقت بها ، فالتصقت بى . دفنت وجهى فى شعرها الطويل الشذى . وضحكت : «بالنسياغا » ؟ فضحكت : « لوديس » وابتعدت عنها ، وهى تقول « عصام ، انت مغامر » فقلت « ليتنى كنت ! » قالت : « احذر من ورطة كبرى ! » فضغطت بيدى على يدها ثانية ، وقلت: « شكرا للنصيحة » .

بعد العشاء كنا نشاهد فلما سينمائيا ، أو نرقص ، وعشرات من الناس جالسون حول القاعة يرقبوننا راضين بمتعة الفرجة . شوكت أبوسمرة لم تفته حفلة رقص واحدة . كان يجلس فى كرسى كبير عى طرف من القاعة ويتفرج ، وأراه أحيانا ورأسه يتدلى على صدره من النعاس ، فاوقظه ضاحكا ...

فى الاسكندرية نزلنا أنا واميليا الى المدينة ، وركبنا عربة يجرها حصانان نشيطان ، ويسوقها حوذى يعلق بمرح على كل ما نراه . أخذنا طوال الكورنيش الى بلاجات تضج بالبشر والرياح والشمس والرياح تهب على الارصفة المظللة ،حيث تنتشر كراسى المقاهى ، باردة عطرة بعبق البحر.

وعندما نزلنا فى أراكليون ، فى جزيرة كريت ذهبنا الى كنوسوس ، وبرفقتنا فالح ولمى، ووديع وجاكلين ، لنرى على الرابية المخضوضرة قصر مينوس ـ ومتاهة المينوتر . ما أروع الصخور التى هندسها ديدالس وهى ما زالت بخرائبها تتصيد أشعة الشمس قرابة أربعة آلاف سنة

خلت ، لتحفظ سر غرام شبق رهيب ، رغـم انفضاح خفاياها اليـوم ٠٠ تحدثنا عن اريادنه وغدرهـا بأبيها من أجـل عشيقها الغـريب ثيسيسوس ، وتحدثنا عن اكارس ، وتسـاءل وديع : « ترى أين جزيرة أكاريا التى وقع فى مياهها بعد طيرانه ؟ هل سنمر بها ؟ » ٠

قلت : « هارب آخر ! ولكن جناحيه خذلاه » ٠

قال : « اكارس من أبطال صباى : لم يخذله جناحاه بقدر ما خذلته الشمس ٠٠٠ »

وفى بيريوس نزلنا أنا واميليـا وحـدنا ، واستقللنا القطـار الى أثينا ، وصـعدنا الى الاكروبوليس ونحن ننضح بالعـرق ٠ والتقطت صورا لاميليا بين خرائب البارثنون ، وأنا أقول ان معجزة الحجـر الابيض هـذه أروع ما بنى الانسان فى ثلاثين قرنا من عمارة ، ولكأن خرائبه الوهاجة نفسها جزء من فتنته الهندسية ٠ «اذن» قالت لنشكر بحارة جنوى الذين قذفوه بالمدافع! « بل العثمانيين » ، قلت : « الذين لم يجـدوا مكانا أفضل منه لتخزين متفجراتهم ! »

بين الاعمدة الايونية لمحت لمى وفالح ، وتعمدت التقاط صور لاميليا تبدو فيها لمى فى الخلفية ، وقد رفعت رأسها على ذلك العنق الشهى ، تتأمل « الكرياتيدات » وهن يحملن على رؤوسـهن سقف هيكل صغير ٠ وهل كان ثمة ما ينسـجم مع أعمدة البارثنون الشامخة أكثر من قوامها ؟ كنا نلعب لعبة القط والفار ، عن وعى أو غير وعى ٠ كانت اميليا تضطرب أحيـانا اذا لمحت الطبيب وزوجته على مقربة منا ، فكنت أضحك من هذه الايطاليـة التى ما كادت تعرفنى حتى باتت تريد احتكارى ٠ أو هكذا حسبت ٠ وأكثر من مرة تحدثت عن لمى ، وسألتنى عن زوجها : أجراح ناجح ؟ معروف فى بغداد ؟ غنى ؟ محبوب؟ الأسئلة المألوفة التى تطرح دونما تركيز كثير، لتتلقى أجوبة لا تتوخى الدقة ٠

« ألم تمل تلك الفتاة اللاصقة بك كالذبابة ؟ » سألتنى لمى مرة ، ونحن على انفراد؟ فقلت : «انها مسلية ، تحدثنى عن الحيـاة فى بيروت التى لا أعرف شيئا عنها ٠ وهى جميلة ، ألا توافقين ؟» « كذاب ، مراوغ ! »

فقلت مستمتعا غيرتها : « أبدا ٠ انها جميلة وذكية ٠ وتعرف الكثير عن حضارة البحـر المتوسط ٠ » تتحدث مثل فالح ! ما كنت أعرف ان الرجال يحبون الذكيات الى هذا الحد !

ـ فالح ؟ وهل يستلطفها هو أيضا ؟

ـ سأكسر رقبته ان فعل !

وتركتنى وهى تضحك لتنضم الى وديع والآخرين

أما وديع فلم أكن أعرف مدى اهتمامه الحقيقى بجاكلين ٠ انه يفيض بالكلام من كل جانب ، فلا تستطيع فرز الحقائق عن الشطحات فيما يقول ، كأنه يريد افراغ ما تجمع فى ذهنه على دفقـات كبيرة ، ولا يأتى الى نهاية ٠ « ما الذى ستفعل بجاكلين عندما تنتهى السفرة ؟ » سألته ٠

فقال : « أرجو أن أكون قد انتهيت منهما معا ، كحالك مع فتاتك الايطالية ٠ انهـا تريد منى اهتماما ما عدت أستطيع مثله مع أحد ، امرأة كان أم رجلا ٠ »

ـ نرجسى !

ـ غريب ! هذا ما قلته انا لجاكلين ٠ قلت لها : انت نرجسية ، أكبر نرجسية ٠ تشتهين نفسـك عن طريق مرآتى ٠ فقالت : وحضرتك ؟ فقلت : وأنا اشتهيك نرجسيا أيضا ، ولكن كمرآة لك ٠ أعنى ، يلذ لى أن أعكس شهوتك ، فأشتهيك ، أو اشتهيك فاعكس لك الشـهوة التى تترقرق على جسمك ٠

ـ المصيبة يا وديع ، بالنسبة اليك ، الكلمـة هى الجسد ٠

ـ وهل هناك ما هو أطيب من ذلك يا عصام ؟ لماذا نعمى أعيننا بالقراءة طيلة حياتنا ؟ وجاكلين تطرب لذلك ٠ تريد أن تتعلم أسماء أعضـاء الجسد واحدا واحدا ، باللغات الثلاث ! من الشعر الى النهـدين الى البطن الى الفخذين ٠ تتلفظ أسماءها كتلفظ الاغانى ٠ كأكل التفاح ٠كشرب النبيذ ٠ أسمع القرش اللذيذ تحت أضراسها ٠ وأشعر بالانسياب اللاهب حول لسانها ٠ قلت لها ذلك ، فقالت : لم أضحك فى حياتى بقـدر ما ضحكت هذه الايام القلائل ٠ أضـحك لأنك تتلذذ بفضح خفاياى ٠ لا خفاياى النفسية ، بل ـ فقلت : قوليها يا سيدتى ، الجنسية ؟ قالت : طيب الجنسية ٠ ما كان بينى وبين نفسى سرا مكتوما لا أكاد أحدث به نفسى تعابثه أنت ، وكأنك تعابث طفلا بريئا ٠ تجعل الحب لعبة ، والمضاجعة أكلة تفاح ٠٠ تصور ، جاكلين نطقت بذلك ! وهى تعلم انها ستضطر يوم الأحد القادم لأن تعترف بـه لكاهن فى الكنيسة ٠ فيقول لها الكاهن : لمن قلت ذلك ؟ تقول : لعربى على ظهر السفينة ٠ فيقول: عليك بتلاوة « السلام عليك » منه مرة ، «وأبانا الذى » مئة مرة ٠ واحذرى العرب بعد اليوم ، لأن ليس بينهم من يقنع بامرأة واحدة ٠

أغلب الظن أن يوسف رامز حداد ومحمـود شعبان الراشد ركبا السفينة أيضا فى بيروت ،

ولكننا جعلنا ننتبه لهما ، فيما أذكر ، بعد الابحار من الاسكندرية ، ونحن نقترب من الســواحل الاغريقية ، اذ أبدى يوسف أسفه على أن التريث فى كل ميناء نرسو فيه لن يكون طويلا بالقدر الذى نشتهى ، مع ان الهركيوليز ، وهى من سفن النزهات البحرية الطويلة ، كانت بطيئة عن عمد تتيح للركاب الاستجمام والاسترخاء : النوم الطويل اذا أراد ، والأحاديث الطويلة اذا أراد ، والعلاقات المتعة التى قد ينشدها والنفس فى بسطتهــا بين امتداد البحر وغفلة السماء. يوسف ومحمود : دون كيخوتى وسانكو بانزا . هكذا خيل الى أول الامر ، اذا رأيتهما متلازمين . يوسف شاعر ، طويل القامة ، ضامر الوجه ، له لحية مدببة ، فى عينيه بريق من لا يقنع بما يرى بعينيه . ومحمود بدين قصير ، ذو نظارة غليظة ، يكركر بين الحين والحين بصوت غليظ يئز ويصر فوق صوت رفيقه الحالم الهادىء ، وهو يكاد يركض وراءه . ولكن تبين ان من دأب محمود أن يستشهد بأبيات من الشعر فى كل مناسبة ، فى حين ان صاحبــه لا يذكر الا شعره هو ــ ولا يفعل ذلك الا نادرا . يوسف لبنانى. أما محمود، فلم أستطع الجزم من أى بلد عربى هو . فقد كانت لهجته خليطا من المصرية و « الشامية » ، وقد حسبته دمشقيا ، وايدنى وديع فى ذلك . ولكن لما ساله أحدنا مباشرة : « من أى بلد الاخ محمود ؟ » أجاب : « انى أسافر بلبسيه باسيه » (وقد علمت فيما بعد انه يحمل شهادة دكتوراه فى القــانون من جامعة جنيف ، اذ أهدانى كتابا من تأليفه مطبوعا ببيروت ، عنوانه « شرعية السلطة » بين الدستور والثورة » . وبالطبع لم يتح لى عندها ان اقرأ الكتاب .)

هو الآخر أبدى اعجابا بلمى ــ كأنما الاعجاب بلمى أصبح رابطة تجمع فيما بيننا ــ ولكن خيل الى أيضا أن حوارا بدأ بينه وبين الدكتور فالح ينقطع ثم يستأنف ، معظمه سياسى يتناول أحوال الاقطار العربية . غير انه لم يغفل عن عدد من الفتيات كن قد ملأن السفينة على غير توقع منا ، عند مغادرتنا الاسكندرية ، معظمهن طالبـــات يونانيات ومصريات .

« مأساتى هى اننى لم أتشبث يوما بامرأة » قال محمود : « أحبهن جميعا . جميلات ، دميمات سمر ، شقر ، هات ما عندك . تماما كما يقــول الانكليز : أى شىء عليه تنورة . صديقى يوسف هو صانع الشعر ، وله أن يتدلل ما شـــاء له الدلال . اما انا فمستهلك الشعر ، والنساء فى مذهبى شعر ــ عمودى ، حر ، مقفى ، بلا قافية . كل شىء فيهن ، كما فى الشعر ، سحر حلال .

ولكننى لاأتشبث بأى منهن تشبثا خاصا . يقتضينى الجلد على المتابعة . عندما تتفجر الدنيا بكل هؤلاء النساء ، اليس من السخف أن نركز على واحدة منهن دون غيرها ؟ فى السياسة ، أو الفلسفة ، أنا أحادى . أما فى غير ذلك ، فأوثر الجمع . ليتنى كنت فى السياسة كذلك ! ذقت منهــا الامرين ، كمن تجلده زوجته كل ليلة ، فلا يزداد الا تعلقا بها . أما المرأة .. أتدرى اننى لسنين طويلة لم أكتب رسالة لامرأة ؟ السبب ؟ لأننى كنت أخشى ان أنا كتبت لامرأة ، أن أغازلها . أو تحسب هى اننى أغازلها . لا أنكر اننى كثيرا ما كنت أجد الاغراء شديدا بذلك . فادفع يدى بعيدا عن الورقة ، لئلا تخط كلمة تكشف عما فى النفس مما ينبغى .. وأنا عندما أكتب ، على كل ، افضل أن اداور وأحاور ليبقى الكثير طى الصمت ــ طى اللاقول . ولكن ، فلأعترف .. فى المدة الاخيرة زلقت قدمى أكثر من مرة . هناك عذوبة ما ، حلاوة ما حارة منعشة ، تأتينى ، اذ أبدأ بالكتابة ، كشلال يبدأ بالتساقط شيئــا فشيئا حولى ، ويهدد ــ أو بالاحرى يعد ــ بأن يغمرنى من راسى حتى القدم . قد أباعد بين نفسى وبين الشلال ، بهديره الطروب ولمساته الماجنة على الجســد . وذلك بالتشبث بوعيى ومنطقى . ثم أرانى أخاطب هذه التى أخشاها قائلا ، لم لا أقتحم الشلال واستحم فى طربه ؟ فالشلال يا عزيزتى هو أنت . اريد أن أســتحم بك ، بكلماتك بيديك ، بشفتيك. اريدك تتهاوين على وأنا صامد لدفقاتك ، الى آخره ، الى آخره..»

لم يكن يسعنى الا الضحك اذ أتخيل سانكو بانزا هذا وهو يسبح فى شلالاته الشعرية ، فأراه عاريا وراسه المفلطح يهتز يمنة ويسرة ، وبطنه تهتز علوا وسفلا ، وهو يطرطش مياهه الحبيبة على بدنه المكور .. وكان يوسف يضحك مثلى ، ويستحثه على المزيد . فقال : « أتدرى يا يوسف، أعجبت مرة بسيدة شقراء فى بيروت . كانت تنظم الشعر بالفرنسية والعربية وتقرأ على ما تنظم ، وأنا لا أفهم منه حرفا واحدا . فقلت لها يوما : قصائدك جميلة . ولكنك قصيدة أجمل منها كلها ، قصيدة أريدك أن تقرأيها بملء جسدك ، من شعرك الى قدميك . أريد لسانك يدير قصيدتك على لسانى . ترى ما الذى ستقولين عندئذ ، وبأية لغة ستقولينه ؟ فقالت : وهل للقول عندئذ من ضرورة يا محمود ؟ قلت : يداك ويداى ستعبر وتثرثر وتبدع ، وفمى يتصيدك بيتا بيتا .. اهصرك هصر السماء للأرض فى ليــلة مظلمة ، انقب عن كل سر فيك ، وقد استخرجتك كلؤلؤة كبيرة من بين ثيابك .. »

« لا لا يا محمود ، ثخنتها ! » قال يوسف :

ـ المهم ، هذا الذى حصل • اخرجت اللؤلؤة من محارتها •

فقلت : « وانقطعت الشقراء عن قول الشعر ؟ »

« لتلك الليلة على الاقل ! » وضحك محمود ضحكته الصريرية ، والتفت حوله لينظر الى سيقان الطالبات المستلقيات على ظهر السفينة ، وأردف : « اللهم عونك ، اللهم سترك ! »

أما يوسف فلعله كان يروى شيئا من شعره حين سمعته يقول (مشيرا ولا ريب الى لمى ، دون غيرها) :

« اللمى ضحكتها
ضحكة الشفة الشهية
والثنايا اللؤلؤية
ضحكة الوعد بقبلة سكرى
ومضة الشبق البربرية •• »

فى وسط ذلك الجو لحظت أن الدكتور فالح حسيب أقلنا كلامنا ، وأكثرنا عزلة ـ رغم استحالتها • كان يتمشى وحده أو مع لمى وفى يده كتاب وأكثر من مرة رأيته جالسا فى الظل الى مائدة صغيرة ، والكأس أمامه ، وهو يكتب • يمر به الناس ولا يراهم • وعندها تكون لمى بين جمع من الركاب تتحدث ، أو تستلقى على انفراد فى كرسى قماشى ، بمنظرتها السوداء الكبيرة وتقرأ ولكن النوارس كثيرة ، تهوى من حيث لا تدرى على كل ما يمكن لها ان تنشب مناقرها فيه •فكانت لمى ، مهما حاولت الانفراد ، محط المناقير النهمة وأنا أرقبها من بعيد ومن قريب • أرقبها وان لم تكن هناك • تدور فى مخلتى دوران الشهوة والحقد ، والمرارة • واعلم كذلك ان زوجها يرى كل شىء ، وهو يشرب ويعلق ساخرا ، ويكتب • ما الذى كان يكتبه فى تلك الساعات ؟

لم أدر الا فيما بعد ، فى النهاية ، عندما قرأت بعض ما كتب ، ولكنه لم يفته أن يعلق معى على النوارس • « يجب أن تراها فى بحار الشمال ، فى المياه الاسكتلندية • صارمة جارحة ، رهيبة • انها غربان بيضاء • فى العراق كما تعلم ، يسمى الناس النورس « نعيج الماء » ولا أشك أنهم يعنون بذلك « نعيق الماء » • النوارس نعيق • رغم بياضها الرائع ، فانها تتجمع ، وكلها نعيق ، على الفضلات ، على القاذورات ، تجمع الغربان على الجثث • انها غربان البحر • أكرهها •• »

كنت أكاد أخشى الحديث الى فالح ، اذ أبدو معه اشبه بفتى حالم يتحدث الى رجل تعبت أظفاره من الانغراز فى الياف الواقع ، فى زوائد المرض ، فى خلايا اللحم الانسانى ، حيث لامحل للحلم ، أو هراء العواطف • (ذلك الهراء اللعين الذى جرتنى اليه لمى من جديد ، وهى تتظاهر بالجهل ، بالبراءة •) « العواطف يا عصام ؟ اتضحك على ؟ تقصد الجنس • أرجوك حدثنى عن الجنس ، واترك الحديث عن الحب والهيام للأطفال • كيف أمورك الجنسية ؟ »

ـ زفت !

ـ حسنا • الآن فهمت ! لمى ، اسمعت ما قال عصام ؟ قال ان أموره الجنسية زفت • وصعد الدم الى خدى لمى بحمرة الخمر • ثم قالت :

« الم تسمع بمشاكل المثقفين فى بغداد ؟ »

فلم أستطع الا أن أقول ماكرا : « المتزوجين منهم أم غير المتزوجين ؟ »

قالت « المتزوجين وغير المتزوجين ، سواء بسواء ••• »

فقهقه فالح على غير عادته • « بل المتزوجين ، أكثر من غيرهم » •

وجرع بقايا كأسه جرعة واحدة • فقلت فى نفسى : ضحكتك يا فالح غير طبيعية • ترى كيف أمورك الجنسية أنت ؟ كم مرة بلغت بلمى ذلك الجنون الرائع الذى بلغته أنا بها مرات عديدة ؟

- ٢ -

عندما أخذنى وديع عساف الى قمرته والليل قد كان يتنصف لم أرد أنه يريد أن يفاجئنى بسر من أسراره • كنا قد قضينا معظم المساء فى الرقص • انزلنى الى قمرته ، التى يشاركه فيها فرناندوغوميذ ، واذا فرناندو مضطجع على فراشه الضيق ، يقرأ • فاعتذرنا له عن ازعاجه غير انه عبر عن سروره بنا بكرم اسبانى •

أخرج وديع اضبارة على شىء من الكبر • فحسبت انه يريد أن يطلعنى على خرائط أو تخطيطات هندسية قد تهمنى ، لعلمه بأننى مهندس ، ولما فتح البورتفولو ، وجدته مليئا بأوراق سميكة كبيرة كلها خطوط والوان •وأخذ ينشر أمامنا رسوما زيتية • لبضع لحظات وقفت أمام أول صورة أقامها على الفراش الضيق ، مشدوها لا أعرف كيف أستجيب •

سألته وقد جلست على سريره :

ـ من رسمها ؟

ـ أنا •

— أنت ؟ أهذا ما تفعله عندما تدير ظهرك للاستيراد والتصدير ؟
— نعم .
وقبل أن أعلق على الصورة أخرج أخرى أطبقها على السابقة . ثم أخرى . ثم أخرى . جعل ينثر الرسوم ، وكلها على ورق ، ذات اليمين وذات الشمال . لقد كانت رسوما مربعة لا أزعم أنني فهمتها . تعج بالوجوه . وجوه مشطورة ، وجوه نائمة ، ميتة ، خضراء وحمراء وصفراء ، حولها أقمار وشموس ، وأغصان ملتوية يابسة ، وايد كبيرة مخيفة الاصابع .
قال : « من عادتي أن أرسم على ورق ، لأن حمل الصور الورقية سهل كلما احتجت الى سفر »
فقلت : « ولكن رسومك رهيبة . من يعرفك من كلامك ، ودعاباتك ، لن يخطر له ان فى ذهنك خواطر مرعبة كهذه . »
— « كوابيس » أصح من « خواطر » .
قالها وعلى شفتيه ابتسامة ، كأنه يهزأ بى وبفرنندو — أو كأنه يضحك من نفسه . ثم أكمل : « ولذا ، فمن الصعب على المرء أن يعايش رسوما كهذه » .
— ولكنك تحملها معك اينما ذهبت ، رغم ذلك ؟
— نعم ، من قبيل حمل المرء صليبه أينما راح .
كان فرنندو صامتا طيلة الوقت ، يتأمل الصور ، وأخيرا نطق :
« هل هذا ممكن ؟ انت غويا العرب ! هذه « أهوال الحرب » — مرة أخرى . واذا سمحت لى أن أقولها ، وفيها شىء من الجنون . لا ؟ »
فضحك وديع وقال : « الكثير من الجنون . ولكن الذين يرسمون الانهار والجبال وحقول القمح قد يكونون أيضا على شىء من الجنون . والذين يرسمون الوجوه الجميلة ، والعاريات الكبيرات النهود الرشيقات الافخاذ ، أيضا قد يكونون على شىء من الجنون . لا ؟ »
— هذا يدعو الى شىء من الويسكى .
وأخرج فرنندو من الدولاب الصغير زجاجة جديدة وأكوابا بلاستيكية صب فيها الويسكى ، وقال : « لا أشربه الا صافيا . »
قال وديع ، وأنا اتذوق اللذعة الطيبة :
« كلنا فينا شىء من الجنون . باقدار متفاوتة ننسحب من الواقع المزرى الى عالم خبىء فى الداخل ملىء بكل ما نشتهى . وأحيانا بكل ما نرهب . كالمجاذيب » .
قلت : « ميكانيكية دفاعية لا بد منها ، للحفاظ على عقلنا عندما نخرج من عالم المجاذيب ، ولو لحظات العالم الذى ننسحب اليه ، فى نظرى » .
قال فرنندو « ربما كان أعمق حقيقة من عالم الواقع كنت هذا الصباح أتصفح مجلة « فوغ » فى الصالون . عالم «خبىء» ملىء بكل مانشتهى . اناث حريريات لدنات ، واسعات العيون ، عريضات الافواه . أنا ، كما تعلمان ، اعمل فى ملهى ليلى ببيروت . أى انني لست غريبا عن عالم الاناث . ولكن النساء هناك ، كما تراهن نحن وراء الكواليس ، حادات ، صلبات ، كالمسامير . كل شىء فيهن صبغ وطلاء وشعر مستعار ، وتكالب على الليرة . أما عالم « فوغ » فانه عالم الشبق المترف ، حيث الجنس أرفع من العهر . أو هكذا يبدو . أجمل خلق الله ، فى أجمل الاوضاع ، بين الطنافس والزهور ، بين خرائب اليونان وايطاليا ، ولبنان ، أو تحت أشجار انكلترا الخضراء — مرتديات أو شبه عاريات ، لا فرق . وقد تجاهلن ان اغراءهن يثير فينا العهر والشهوة والفحش . انهن يلتهمن الرجال — هؤلاء الحوريات الرقيقات ، دونما عواطف . طريق مختصرة الى الخدر ، والوهم ، والانسحاب من بين شدقى وحش النهار . أعطنى نساء فوغ الوهميات ، وخذ كل ما فى الدنيا من واقع . أجنون ؟ »
قال وديع : « الى حد ما ، ربما . أو وهم ، على الأقل . والوهم تفرضه علينا الطبيعة نفسها فرضا . ما النوم ؟ انه انسحاب الى الدواخل ، الى الظلمات الطرية اللذيذة . فالوهم أخو النسيان . والنسيان بلسم الجراح ، كما يقولون — الى أن تفاجئنا الكوابيس . وهنا بيت القصيد جزء كبير من الحضارة ما هو الا تنظيم الوهم ، والتمتع بالوهم ، والاغتسال بشلالات الوهم . ولكن تبقى الكوابيس . الكوابيس هى الخلاقة الحقيقية فى النهاية . النساء الحادات ، الصلبات كالمسامير ، مضروبات بمئة مليون ، مرفوعات للقوة . »
فقلت : « يعنى رسومك هذه . وحياتى ، وحياتك . ولكن السؤال هو : حضارة الوهم هذه ، انهرب منها ، أم اليها ؟ »
— يبدو أننا من الذين ظلمتهم الطبيعة ، فلم تتح لنا الا النزر القليل من الوهم . ألا ترى كيف أنني أفرغ فى هذه الصور كوابيس ، كما تفرغ الغيمة شحنتها ؟
— ولكن يبقى السؤال الذى يساله الناس دائما : لماذا تفرض كوابيسك على الناس ؟ انهم ينشدون قليلا من النسيان ، قليلا من خداع النفس .
— اذا لم يكن الفن متصلا بجحيم النفس ، فانه

لن يتصل بفراديسهـــا • الفنـــانون الذين يستجيبون دائما لما يريـــد الناس طراشون . صباغون ، بغايا ، سمهم ما شئت • لا يعرفون تلبد السحب السوداء ، وما يتلوه من صـواعق ورعود • من أمطاروخصب • الصورة التيلاتنتهي من صواعق ورعود • من أمطـــار وخصب • الصورة التي لا تنتهي الى الخصـــاب في نفس المشاهد ، كيف يمكن أن تكون أكثر من ضحك على الذقون ؟ مصيبتنا اننا نحاول رفضالحضارة اذا كانت حضارة وهم ، ولكننا جزء من حضارة الفنتزة ، رغما عن أنوفنا • الى أن يفاجئنـــا الكابوس • ويتجسد أمامنا العدو الذي نتحايل عليه لكي ننساه أو ينسانا • فنعود راكضـــين في حلقتنا المفرغة ـ الى بعض من وهم •

ـ ربما الى بعض من حقيقة ؟ انى أرفض ، فأهرب ، لأبحث عن واقع اتكافأ معه • . .

ـ هل انت مستعد لأن تقتل ؟

ـ أقتل ؟ لا أرى للسؤال علاقة بالموضوع • وبعد كل الذي رأيت من قتل •

ـ اذن ، فأنت أيضا تؤثر الهرب من أجل الهرب •

ازعجني باصراره ، وأنا أعلم أنني هارب ،وأنني لا أريد القتل • وتذكرت عندها ما كنت دوما اتخوف من ذكراه : ما فعله أبي وأنا طفل صغير القنا ؟ لعل وديع يفكر بفلسطين • بقتل العدو ـ باك • غير انه عنـدما ذكر القتـل ، نكأ في جرحا من نوع آخر • لماذا قتل أبي جواد الحمادي وأنزل بحياتي لعنة ما زلت اغانيها ؟ تمرد ، وقتل ، ثم عاش منفيا عنا • الكل قال : حسنا فعل • لقد رفع رءوسنا • لا بأس • ولكن الآلهة ظلت تطالب بالانتقام ، وعلى نحو مهين • فرضت عليه الحياة بعيدا عنا ، وجعلت منه مجـــرد أسطورة • ولم تستنكف من ان تفقدني المرأة الوحيدة التي أحببت ـ وتبقيني معلقا بهـــا من بعيد • قلت :

« أؤثر الهرب ، بمعنى ايجابي • هل هـــذا ممكن ؟ كالقائد الذي يتراجع ، لكي يلملم أشتاته ويكثف خطته بالنسبة للظروف التي استجدت ، تهيؤا لهجوم جديد • لست أدري • انك تخلط على الأمور • هل عرفت أنت القتل ؟ »

رفع أحد حاجبيه ، كما كان من دأبه أن يفعل وأزجى الي نظرة غريبة • لم يجب على سؤالي بل قال :

« اتفقنا اذن • الامور مخلوطة عليك ، وعلى ، وعلى كل من في هذه السفينة ، فلنعد الى قضية الجنون »

لما كان بعض حديثنا بالعربية ، فقد اشـغل فرنندو نفسه بالتمعن في الصور ، يتناولهـــا واحدة واحدة ويهز رأسه ، عن رضا أو غـــير رضا • واذا هو يخبط بظاهر يده احداها ويقول بالانكليزية :

« عندما لا أفهم الصورة ، أتمتع بها • هـــذه مثلا • لا أفهمها ، ولكنني أشعر انها تتغلغـــل في ولو عن غير حق • انهـــا تؤذيني • ولكنني أتمتع بها • ماسوكي ؟ لم لا ، ان كنت أتمتع ؟

فقلت وأنا أتأمل اللوحة :

« متعتي ، أنا ، ذهنيـــة صرف • أنا أتلذذ برؤية النسب والعلاقات والتقابل بين الخطـــوط والاجسام • انها المتعة التي تجدها في حـــل مسألة رياضية معقدة • »

« ولكن ، قال وديع : « ليس في الفن من حلول • المسألة ، هي المهمة • أما الحل ، ففي العدد القادم الذي لن تشتريه • أنا اتمتع بمـــا يمزقني من الداخل ـ بما يشعرني بأنني أسير يمينا وشمالا في وقت واحد • أتدري ؟ نحن ، معظمنا كذلك الرجل الذي يحب امراتين في آن واحد ، احداهما سمراء ، والأخرى شقراء » •

فضحك فرنندو ضحكته الضخمة ، قائلا :

« ترتيب معقول ، اذا استطعت أن تدبر أمرك مع الاثنين » •

واستمر وديع بعد جرعة أخرى من الويسكي :

« هذا الرجل يرى في كل منهما مثـــال الجمال الشهي • ويقرن بهما في خلواته كـــل ما يتمناه في المرأة من كلام وأحاسيس • ويرى نفسه متنقلا بينهما ، يقبل الواحدة ولعـــاب الاخرى ما زال نديا على شفتيه • وهو يظن ان الواحـــدة لا تعرف الأخرى ، وأن لعبته سر من أسراره • غير انه في ساعة شيطانية من الخيـــال يراهما تتحدان في غزل غريب • تضحكه الفكرة وتقلقه ، ويصرفها عن ذهنه • واذا هو يومـــا يكتشف انهما تفعلان ذلك بالضبط ، وأنهمـــا مساحقتان شـــاذتان كاذبتان ، تعذبه كلتاهما لتسليتها ولا تجد لذة حقيقية الا في رفيقتها •• انه يرى نفسه يغار على كلتيهما ـ من كلتيهما من امرأة ! من امرأة يعشقها وكان يحسب انـــه يخدعها ويخدع بها عشيقته الأخرى •• وهكذا نحن نتمزق •• نتمزق باستمرار ، بين الأشياء التي تحبها ، أو نتوهم اننا نحبها ، والتي تحب نفسها وتتمسك بمنطقها الخاص وشذوذهـــا الخاص أكثر بكثير مما تأبه بنـــا وبما نشتهى • حياتنـــا في المجتمع مثـل على ذلك • السلطة وتناقضاتها • المال ، المقتنيات ، الزواج الأبناء : كلها تمزقنا ، تمزقنا باستمرار • وفي النهاية

نلجأ الى عالم « فوغ » · لا ألم · لا تمزق ·وحلم قد يدوم بعض ساعة · ·

فقلت

« فلأطلق لحيتي اذن · »

« فلاترهب ، » قال فرنندو ·

واستمر وديع :

ترهب ، اطلق لحيتك · لا باس · قليل من الجنون خير من الجنون المطبق الذى هو نهاية الكثير من الناس · يولدون باكين ، كما قال أحد الشعراء ، ويموتون فى زوبعة من الرعب ·

وما الذى هناك بين الولادة والموت ، سوى زوابع من الرعب متلاحقة ، منها الخفى ومنها الظاهر ، منها النفسى ومنها الجسدى ، مع فترات من الصحو كصحو الظهيرة فى الصحراء ــ سماء لا تنتهى ، أرض لا تنتهى ، وصمت ملء بأحلام المتصوفين ، حتى تهب الزوبعة من جديد · لقد اجتاحتنى الزوبعة اليوم ، فعاودتنى الكوابيس ــ الكوابيس التى أخشاها ، فاتخلص منها برسمها على الورق ، اذا استطعت · يقولون ان الكابوس للرجل امرأة شبقة تهاجمه فى الليل تريد امتصاص حياته للذتها · فيرى ما يرى · ولكن لماذا لا أرى الا مجازر بشرية أكافح لكى أنجو منها ، فلا أنجو الا الى أماكن كلها خرائب وقاذورات ؟ ما معنى النجاة على كل حال ؟ الى أين نحن فارون ؟ أناقد أفر الى هذه الرسوم التى لا أطلع الا الاقلين عليها · أو انكفىء على صمت يلازمنى أياما بطولها ، أغازل فيها أفكارى · انها أفكار تدور حول بلدى وحول الصمت ــ صمت داخلى ، أشبه بليل كونى لاتحد رحابه · صمت مفعم ، هائل ·· قبل سنين كثيرة كتبت شيئا عن أجراس الذاكرة وهى تجلجل فى كهوف جوفية ، صامتة صمت الزمن السحيق الذى يلف تاريخ الانسان ، هذا التاريخ الصارخ الهادر · صمت ملء بالذكرى والرؤى · بأربعين سنة من جلجلة الخناجر ، أربعين الف سنة من الصياح والعشق والغضب ·· والرؤى مهمة مهما تكن غامضة ·· كم من الناس عبر العصور أصروا على رؤاهم ، بل قبلوا بالاستشهاد من أجل ما يرون من رؤى ·· أمس ، والشمس على وشك المغيب ، عبرت بى احدى تلك التجارب الرؤوية التى يكاد يكون الكلام عنها مستحيلا · انها لا توصف ــ غيوم متراكمة تأججت فيها ألوان الغروب كأنها لهب مندلعة وذهب مسفوح كالسماء فى صور تييبولو تعتلج فيها الدرامة لا لسبب مستبين · ولكن ما الذى تذكرت ورأيت؟ أشلالات من لذائذ ، وبحارا من توق وصراع ؟ ربما ، أوليس ذلك بالضبط سديما وغبارا وأضواء وبراكين · الصمت الباهر ، صمت أفراح عنيفة ، ومآس انتهت وهى على وشك أن تبدأ من جديد · الشيطان فى الداخل وقد انفجر ، الشيطان المستقر فى البواطن السحيقة امتقرار الاله ، حيث الشيطان والاله لايفترقان ولا يمسكان · ولا تطردهما صلوات أو قصائد · وأربعون سنة من حياة تضطرم وتتصاعد وتتهافت على أيديهما · والغيوم يمزقها الذهب المسفوح والنيران المندلعة ·

« كانت السفينة صاخبة بالموسيقى · كانوا يروحون ويجيئون ، يتفرجون على الغروب ، يتنهدون ويضحكون ويتغازلون · وأنا كالابله مأخوذ بما أرى ، وبما أتوهم ، أحاور الله والشيطان معًا · قد تقولان ان المسألة جنسية ، على طريقة فرويد · المحرومون جنسيا يتوهمون انهم جبابرة الكون ــ أو حشراته ·ولكن المسألة ليست بهذه البساطة · لقد أصبحت المسألة معى قضية حياتية ، ضرورة من ضرورات البقاء ، أعنى ، بعد أن يزعم المرء ما شاء له الزعم ، يبقى الوهم أمرا لا محيد له عنه ، كأنه يقول : ارفع الوهم ، تسدل الظلام · فليغن عتابا وميجانا · الغناء كله وهم ·

الطيبات كلها وهم · ارفع الوهم ، تضمحل المتعة الاخيرة ، ولا يبقى الا الملح · يجيش بى الوهم ، فأشعر اننى أود الاسترسال بالكلمات الى مالا نهاية وان تكن صامتة · ولكن يعود فينحسر ، فتتعثر الكلمات فى حلقى ، ثم تنقطع ما هذا الذى ينتابنى ؟ ما هذا الطيف الساحر الشرير ؟ هل له نبض ، وأسنان ، وانف ، ويدان وساقان ؟ هل يقرش كحبة اللوز ، كحبة الفستق ؟ هل تتجاوب فيه الاصوات بالكلمات كالاجراس ؟ هل يتصاعد ويتساقط بين ذروة وحضيض ؟ هل يملأ الراحتين بالدراق والعنب؟ لعلها أكذوبة أخرى تأتينى كفاكهة عبر المسافات والشواسع أضيفها الى سلة ملأى بفواكه من كل لون · وقصر الصمت تكدست فيه سلال كهذه· الموسم أخصب مما ظننت !

« فى نفسى دائما ركض على التلال ، وسير طويل بين صخور الجبل ، بل حتى على أمواج بحيرة طبريا · المسيح يلازمنى ، حافيا ، كبير القدمين ، تقطر اصابعه الطويلة بالمعجزات ،وهو يكاد لا ينطق · ثم تأتى ساعات الصحو ، ذلك الصحو العريض ، الفسيح حيث تبرز الناس والاشياء محددة ، صلبة ، واضحة لدرجة الايذاء · ما الذى نحن فيه ؟ أى فردوس مجانين هذا ؟ فى هذه الساعة بالذات ، ونحن فى هذه القمرة الصغيرة نتأهب للخروج الى البحر ثانية وقد أرهقتنا الفلسفات والاوهام ، ربما كان

غيرنا – رحالة انكليزى ، أو فرنسى ، يقطع الربع الخالى مثلا ، يغامر بحياته فى رمال البوادى ، محاولا السيطرة على لغة تعصى على لسانه وحنجرته ، ويجد متعة فى شرب حليب الناقة بعد أن يغسل وعاء الحليب ببولها . ما الذى تعرفه نحن عن صحارينا ، والفيافى المفتوحة للمغامرين من خلق الله ، والمغلقة دوننا ، عن البدو مثلا من أمتنا ، هؤلاء الذين يعينون معالم الطريق وسط أوقيانوس الرمال بكومة من الحجارة كمن يعين مسار هذه السفينة على الموج بفلينة عائمة .. هؤلاء المغامرون ، هل يبحثون عن النفط ؟ ربما . عن المعادن ؟ ربما . يمسحون ما أهمله حتى الله من أرض ليعينوا له خطوط طول وعرض شرقا وغربا على خريطة ؟ ربما . يخدمون أغراضا خفية لدولهم ؟ ربما . المهم هو انهم يقذفون بأنفسهم فى بوادى المجهول ليعودوا بما يمكن أن يعلم ، ويحدد . وفى تلك الاثناء يكونوا قد قارعوا الشمس وعايشوا النجوم ، وقهروا العطش ، وعاشوا على حفنة من التمر ، وهرأوا بعض عجيزتهم على رحال ابل لم تخلق لهم . ولا ريب ، ولا ريب أبدا ، ان بعضهم أيضا هارب من أمر ما . هارب من مجتمع لا ينسجم معه ، أو امرأة يخشى زواجها ، أو راحة تنخر قلبه كالسوس فى الخشب . ولكن الهرب لديه هو نحو الاصعب والأشق – والاجدى . خمس سنوات يقضيها رحالة بين الاعراب يتعلم لهجة من لغة لن يقرأها ولن يكتبها . ويعود الى لندن أو باريس عودة قائد مظفر من معارك نائية ، ليصف طلوع الفجر على خيمة مرعز سوداء ، وكيف تتلقى الحصى أولى الاشعة البنفسجية فتتوهج كاللالىء ملقية وراءها ظلالا زرقاء طويلة .. انه يكتشف الانسان فى جوهره ، وقد اغتنى بالله ونفسه عن كل شىء الا الأقل الأقل : كلمة جميلة واحدة تطربه ، وكلمة حارقة واحدة تلهبه . حيث المروءة تتبدى كل يوم ، حيث الحياة هى الشجاعة المتجددة ولا يبقى للجبان الا موته المتكرر . وفى النهاية يكتب الرحالة كتابه وينشره ، ونقرأه نحن بلغته الأجنبية لنعرف شيئا جديدا عن أنفسنا ، لنعلم منه أين بعضنا منا .

تناول فرنندو الزجاجة ، وصب لنا المزيد من الويسكى . كان وديع وهو يتكلم قد استلقى على فراشه ، وقد قمت أنا عنه وجلست مع زميله على الفراش المقابل . والرسوم مبعثرة عند أقدامنا . وأخذ خط تفكير هذا الفلسطينى يتضح لى شيئا فشيئا : حسبته يناقض نفسه أول الامر ، ولكنه بالعكس ، كان منسجما مع اتجاه منطقة الكثيف .

قلت : « رغم كل هذا ، فان مغامريك هؤلاء ، كما قلت ، هاربون نحو الأصعب ، والأشق ، والأجدى . صحيح . ولكنهم هاربون . انهم غرباء . فى بلدهم ، وفى غير بلدهم . يكتشفون المجاهيل فى الاماكن النائية لينسوا غربتهم . ليقضوا عليها . ليعودوا مظفرين الى عالم يريدون منه احتضانهم . ولكنهم ، ككل المغامرين ، ككل سندباد ، لن يبقوا فى أحضان الناس طويلا . سيستبد بهم حس الغربة ، والشهوة فى الهرب من جديد . »

– ولكن ألا ترى ان لهم مرتكزا يعودون اليه ويقاسون به ؟ هنرى لايارد يعود الى المتحف البريطانى بالثيران المجنحة ، والسندباد يعود الى بغداد محملا بالجواهر . فالغربة نفسها هى غربة عن مكان ، عن جذور . وهذا هو جوهر الامر . الأرض . الأرض هى كل شىء . نعود اليها محملين باكتشافاتنا . ما دمنا معلقين من أهدابنا بالسحب الراكضة ، فاننا فى فردوس المجانين هذا . نهرب ، نهرب باستمرار . وعلينا الآن أن نعود . الى الارض . حتى لو اضطررنا فيما بعد الى انطلاق جديد ، يجب أن تكون لنا تحت أقدامنا أرض صلبة ، نحبها ، ونخاصمها ونهجرها لشدة ما نحبها ونخاصمها ، فنعود اليها .

فقاطعته ، مندفعا باتجاهه : « الارض ؟ كان أبى فلاحا ، فى جنوب العراق . ذهب الى بغداد وقتل فيها رجلا « مهما » فى وضح النهار . من أجل الارض . طعنه بخنجر ، من أجل الأرض .

فادهشنى اذ قال : « اعرف ذلك . »

– تعرف ذلك ؟

– اخبرنى بذلك الدكتور فالح . كان ذلك منذ أكثر من ربع قرن ، اليس كذلك ؟

– قضية وانتهت .

– المهم هو أن الارض بقيت لكم .

– القليل منها .

– وها انت الآن –

– نعم ، اهرب منها ، ارفضها . أرفض ذلك الصراع الماحق ، الاسود ، العقيم .

– عجيب ، يا عصام . أنا ، حيثما ذهبت ، ومهما توهمت ، فاننى اركض باستمرار فى اتجاه أرضى التى أحاطوها دونى بالف كيلو متر من الاسلاك الشائكة . اركض نحوها وفى يدى قنبلة . وأنت ترفض أرضك ؟

– بعت معظمها . فرحا ، طربا ، غير نادم .

فاقترب منى ، وثبت عينيه الجحراوين فى عينى ، وقال :

« ما الذى انت هارب منه ، بالضبط ؟ »
فأجبته مباغتا :
« من لمي . »
فسكت . وسحب نفسا عميقا من سيكارته، ثم نفث لجج الدخان من شفتيه الشهوانيتين ، وأعاد : « من لمى ؟ » وبعدها نهض من على الفراش وانحنى فوق الصور المبعثرة ، وراح يجمعها واحدة واحدة ، لا يقول شيئا ، وأنا أرقبه ، مؤملا ، بعد أن اعترفت له بسرى بكلمتين ، ان يكون فى صمته اشارة الى تفكيره بأمرى ، بانقاذى ولكنه ما ان اقحم الصور فى البورتفوليو ، واغلقه ، حتى قال :
ـ أمرك منته .
ـ ماذا تعنى ؟
ـ اعنى ، عليك أن تأكل هواء وتسكت .
لم يفهم فرنندو كلماتنا الاخيرة . ولكنه كان يتتبعنا بعينيه ، كأنه يفقه بنظره لا يسمعه . وأخيرا قال بانكليزيته : « آه ، لمى ؟ أتهمك السيدة لمى ؟ ، تو باد ، تو باد
غير ان وديع بقى على اصراره . قال : «الارض الارض هى السر فى حياتك . مع لمى أو بغير لمى . ستجرك الارض عودة اليها من جديد ، مهما فعلت ، أينما ذهبت . لمى هى التراب ، الزرع ، الماء ، انها الارض ، مهما تصورت ، ومهما فشلت فى الامساك بها بيديك . رغم كل فلسفاتها .. »
لست أدرى لماذا ضحكت عندئذ . ضحكت عن نقاء ، عن فرح . كأن لمى فجأة تجسدت فى الغرفة وجلست على ركبتى ، كما كانت تفعل فى لندن . « الارض » ، قلت ، « تهمك لأنك نزحت عنها مكرها . ألا ترى يا وديع ، أن حرمانك ليس جنسيا ، بل « أرضى » ؟المحرومون من المرأة لا يكفون عن الحديث عنها . وانت محروم من الأرض » .
فضحك وديع وأخذ بذراعى ، بعد أن ودعنا فرنندو ، ليخرج بى من القمرة الضيقة ، وهو يقول : « ولكننى قضيت هذه السنين كلها مصرا على الزواج منها ـ أعني ، الارض .أجمع الفلس الى الفلس من أجلها ، من أجل نور عينيها . انا انتهت غربتى ، أو كادت . لقد نقلت أموالى الى القدس . واشتريت ارضا واسعة فى قرية . قرب الخليل . وسأشترى أرضا فى بيت حنينا . وسأبنى بيتا كبيرا من حجر . وأزرع البندورة ، والتفاح . ولو أننى لست فلاحا . سأطبق أحدث الطرق . سأهشم الصخر وأفرش عليه ترابا من تربتنا الحمراء الخصبة الجميلة سأستنبت الحجر وربك ! سأحفر بئرا ارتوازية . سأجمع قطرات المطر ، سأجمع قطرات الندى ، آ .. وسأتزوج حالما أرجع ، لكى أجمع بين المرأة والارض . فى العمر ، بعد ، شيء من متسع . أريد أن أنجب عشرة أولاد قبل أن أبلغ الستين . سأبحث عن امرأة عرف عنها انها منجبة . أرملة ما ، ربما سأزرع ، ولو الفجل . وسأرسم . سأرسم كثيرا . سأرسم صخورنا وأشجار الزيتون ، وجدران الحواكير ، وقروياتنا بفساتينهم الزرقاء والبرتقالية و « حطاتهن » البيضاء الصافية .. تعال زرنى هناك ، والبس حذاء ضخما ، لأنى سأمشى بك فى الوعر ، والطين . طبعا سأزود نفسى بألف اسطوانة موسيقية .فيفالدى وباخ وتلمان وجوسكان دوبرى ، وبرامز ، وسيبيلوس وسترافنسكى ،وموسيقى اليكترونية حديثة . هذه حشيشتى وأنا من المدمنين عليها ولكننى سأعيش مع الارض . مع التراب مع الصخر ستزورنى هناك ، بعد سنتين . سأكتب اليك رسائل طويلة . ليهنأ غيرى بالسفر فى الطائرات والسفن . لن أسافر يومئذ ، الا فى ربوع بلدى . وكلما جن البشر من جديد ، زرعت عشر شجرات أخر . أنا أعرف اننى لاأستطيع أن انقطع عن الدنيا . ولكننى سأحاول الانقطاع عنها ، لأكون على صلة أشد بها . سيصطرعون فوق رأسى ، هذا لا شك فيه . وسأخفى فى بيتى بندقيتين وبضع قنابل . ولكننى سأزرع ، وارسم ، واربى عشرة أولاد ، سيضيفون الى روعة الحياة ـ وان يضيفوا الى مآسيها كذلك ، ومن هناك سأعمل على تقريب الساعة الحاسمة .
« بوسعى والله أن أقف على قمة رابية من روابينا ، بين الصنوبرات العتيقة ، فوق منحدرات الدوالى والتين والمشمش والزعرور ، أقف هناك وارفع يدى الى السماء كالمجنون وأصيح بأعلى صوتى : أرضنا فى الاعالى !
سبحانك اللهم سبحانك على هذا العطاء ، هذا الاندلاق العجيب لكأس نعمائك على أرض البشر ، هذه الخيرات التى تسربل بها الهضاب والوهاد ، وتفيض عليها من شموسك وأقمارك بحارا من ضياء وفتنة ونور وحب ! ولكننى أعلم أن هناك من حولى صراخا من الدمار والويل والجوع والظلم ، صراخا يشوش على كل كلمة أقولها ، كصفير لعين يشوش على محطة تريد أن تسمعها من المذياع . اذن ، سأزيد من رفع صوتى ، سأشق حنجرتى بالصياح ،لكى يسمع كلمات الشكر ـ وكلمات الاحتجاج كذلك .
« والآن يا عصام ، هذه السيدة البغدادية الجميلة ، ما حكايتك معها ؟ »

معسكر الاعتقال
الصحراوى رقم ١٢٥

بقلم : جليل القيسى

هذا المســاء ، واذا لم تخن الذاكرة ، أو التقدير الصحيح ، نكون قد اوشكنا على انجاز أكبر معسكر اعتقال فى قلب الصحراء . وتحت سحابة من الحراب ، وأفـواه البنادق ، وكـلاب الحراسة ، عملنا فى صنع معتقلات كثيرة . وكالعادة طلبوا منـــا أن نســتمر فى العمل بعـد الساعة التاسـعة من الليـل مستغلين برودة الصحراء . وثبت عسكرى متجهم الوجه رقعة كبيرة على باب المعسكر ، عليها الكلمات التالية : معسكر الاعتقال الصحراوى رقم ١٢٥ .

قبل اجبارى كأسير للعمل فى هذا المعتقل ، عبثا حاولت ان أتذكر عدد المعتقلات التى عملت فى صـنعها . ربمـا الرقعة ، او الرقم بالذات جواب على تساؤلى . كنا أكثر من مائتى معتقل، عـراة أمام مئـات الحـراب ، والصحـراء اللامحدودة ، والشمس المحرقة ، ويقين تحول بكر الأيام الى بديهية ، بأن الهـروب أمر مستحيل . ولكن كان البعض منا مشحونا بثقة بسعة الصحراء ، ان هذا العذاب لن يطول . كنا ندفن الكثير من الاحلام ، والحقد ، والذكريات فى العمل الشاق .

وبضياع آخر ملامح الأفق ، أشـعلوا بآلية بروجكترات الأضواء الكبيرة التى غسلت بأنوارها الحادة مسافة بعيدة من الصحراء . وحتى فى الليالى كانت الصحراء مشتعلة تذكرنا بلهيب الشـمس ، والعـرق ، وجلودنا الكاكاوية ، وسجننا الكبير . اكلنا بصمت ، واستلقينا على الرمل الذى تبخرت حرارته . أشك أن يكون ثمة من يعرف ، أو عرف الصحراء ، ولغة الرمل مثلنا . نام البعض بسرعة ، وثرثر آخرون بحقد أصم ، وهلوس البعض بعيدا فى موجات الحلم. لم يبق الكثير على انتهاء هذا المعتقل الذى عملنا فيه بنضال وحشى مع عدد مثل الكماشـة ، ومقطع المسامير ، ومقص ، والمطارق الثقيله ، والأوتاد ، والأسلاك الشائكة . ان هذا المعسكر قد مص الكثير من طاقاتنا الجثمانية . وفى داخل هذا السور الذى أقمناه على أنفسنا ، نجتر ذكريات كثيرة فى عزلتنا ، ومن ثم نبصقها على الرمل.

ان دائرة الاسلاك المخيفة بنا كانت تحتوى على تواريخ تسـيل من الأفـواه ، والأيدى المشـققة ، والعيون الحزينة ، والتأوهات ، وتتساقط الى ذرات صغيره من الرمل فى هذا البحر الممتد من الصـحراء . هنا لا يستطيع الانسان أن يكتفى بمجرد الراحـة العادية فى أوقات الاستراحة ، اذ تجره الأحداث قسرا الى عوالم بعيدة ، وقريبة . نتذكر رفاقا لنـا فى السلاح أنتحروا احتجاجا على المعاملة القاسية وبطرق شاذة . غرسوا رؤوسهم فى برك مياه الواحات واختنقوا دون ان يطلقوا نأمة واحدة. وآخرون ضربوا رؤوسهم بأحجار كلسية ونثروا مخهم على الحصو . واذا أراد انسان ما ان يعرف فى أية بقعة نحن الآن ، بوسعه أن يقتفى آثار بقع الدم الكرزية التى زرعتهـا أقدامنا الحافية على الطرق . وثمة جثث طافية فى برك المياه ، ان لم تأت عليها النسور ، أو الغربان فهى ثمة تطفو منتفخة .

عملية الانتحار الواحدة كانت بمثابة احتجاج،



جليل القيسي

- من مواليد عام ١٩٣٧
- خريج الدراسة الابتدائية فقط
- موظف في مصلحة توزيع المنتجات النفطية
- صدرت مجموعته القصصية الاولى (صهيل المارة حول العالم) اواخر عام ١٩٦٨ .
- تصدر له قريبا مجموعة مسرحيات من فصل واحد تحت عنوان (جيفارا عاد افتحوا الابواب) .

ورفض للتسمية الرديئة ، وتأكيد قاطع بأن الإجهاز على انفس عملية سهلة في وجه العبودية. وكأسرى ، كنا دائما نمني أنفسنا بالخلاص ، والعودة ثانية الى الأيام السعيدة ، الى الدفء، واللحم ، والذكريات ، أو ربما الى أيام أكثر تعاسة . لا ، لا يمكن أن تكون ثمة أيام أكثر سوادا من تلك التي قصيناها ، أو التي سنقضيها في الأسر ، وصنع معسكرات الاعتقال للعدو . كان انتحار أولئك الرفاق طوال تنقلنا ، يؤكد لنا أن الشعور بالشخصية عندهم اقوى ، واوضح من كل واحد منا .

لم أفكر في الانتحار . كان بي شوق عارم للعودة ، وان في الحقيقة شحنت سلسلة الانتحارات الاحتجاجية الكثير من لحظاتي بحالة شعورية محمومة ، وجسدت لي من خلال كل ذاك الإجحاف ، والمعاملة اللاانسانية ، ونسف الاتفاقيات الدولية ، أن قدرة الانسان على أن يموت في هذه الدوامة هي أعلى درجات الحرية.

كنا نحاول أن نجد مبررات كثيرة لوجودنا في هذا القدر الميكانيكي الغريب ، وننتهي الى حقيقة بسيطة في النهاية ، وهي أننا اسرى . اجل ، حاربنا ببساطة ، ولكننا فشلنا . وهذه السخرة الاجبارية القاتلة هي ثمن الفشل . كنا كومة أزمة ، نعسر على أنفسنا الحساب بوحشية ، ونضحك عليها بتبريرات كثيرة . كنا نعمل بجد لمجرد أن نثبت للعدو باننا رجال ذوو ارادة حديدية وصبر صحراوي . وفي الانتحار كنا نؤكد مبلغ حبنا ، واصالتنا في عشق الحرية . صدرت الينا الأوامر بالعمل ، وزعت العدد .

لقد وجدوا فينا بروليتارية منتجة . ثلاث ساعات من الاستراحة أنتهت مثل أصغر حلم . صعدت السلم المثبت على جدار الأسلاك الشائكة قلت في نفسي وأنا أتتبع حدود الضوء : ترى لم هذا الجدار العالي؟لماذا الخوف وحتى الطير لايستطيع أن يجد طريقه في الصحراء !

لبست قفازي الخشن ، وبدأت أسحب الأسلاك ، وألفها ، وأقص ، وأطرق بوحشية منفسا عن حقدي . وكالعادة انطلق التذمر الأخرس ، والسب المبطن ، والحقد ، والغمغمة، والأغاني المشحونة بالحقد ، وانتفنى بالوطن . وفجأة وسط الصخب سمعت جملة غريبة ذكرتني برفيق لي كان يعمل لصقي قبل أكثر من أسبوعين . تخيلته بقوة من خلال حاضر المعسكر ، والأضواء المنعكسة على الرمل ، وجدار الظلام البعيد . كان وجهه الجاف الذي تحول الى لون البن المحمص أكثر وحشة من غربتنا، وعملنا ، كثيرا ما كان يغوص في لحمي مثل إبر الاسلاك ويسممني . والغريب انه كان يعمل بنكران ذات مضيعة . حدث مرة أن سألته عن سبب انهماكه المميت في العمل للاعداء . أجابني بحزن :

— آه ، اعداء !؟ لا تظلمني . اريد ان انسى نفسي . انني عندما أتعب أنام مثل الجثة ، و أحلم في الليل ..

كانت له قوة أرادة شاذة ، بل عجيبة ، ولكن عواطفه كانت مخلخلة . وكان الوحيد بيننا الذي يبكي أحيانا بصمت كلما أكثرنا الحديث عن الشمس والرمل . ذات مرة سألته عن السبب عندما

كنا نعمل سوية ، أجابني بصوت لا جرس فيه: أرجوك .. أرجوك .

وبعد انهماك طويل في العمل قال : اتعرف كيف القي على القبض ؟ كنا ثلاثة ، كان أحدنا مطعونا في بطنه . وكان المفروض أن أحمله الى مسافة معينة ، ورفيقي الآخر الى مسافة أخرى . وهل يجب أن اذكرك بالرمل في الظهيرة ؟ القيناه على الرمل - كان جرح بطنه كبيرا . أتعرف ماذا فعل رفيقي الثالث ؟ حفر بئرا بطول قامة رفيقنا المطعون ، والقاه فيها بعد أن صوب طلقا ناريا على رأسه ، وقال : « سيرتاح الى الأبد . » آه ، بدأت انساه بعد كل ذاك الذي رأيناه عبر تنقلنا في المعتقلات .

صمت ، وتصنع حالة لا أبالية . وفجأة انحدرت دموع صغيرة من عينيه ، وغاص في عوالم غريبة ، وقال :

- اتعرف انه كان متزوجا .

وخلت انه سألني فيما اذا كنت متزوجا ، اجبته بسرعة :

- كلا .. وأنت ؟

توقف ، ومد بصره الى حيث حدود الضوء ، وقال :

- نعم .

قلت :

- واطفال .

صر على أسنانه ، ومط عضلات وجهه ، ونزع قفاز يده اليسرى ، وبحركة تشنجية قرب أصابعه الطويلة امام عيني ، وبحركة سريعة وباردة . بترها جميعا بالمقص الذي كان يمسكه بيده اليمنى . سقطت الأصابع مثل الحصو على الأرض . وبحركة أكثر برودة نكس رأسه من فوق السلم وراح يحدق فيها على الرمل . ولأني رأيت عمليات انتحارية تفوق في رعبها هذا الفعل ، اكتفيت بأن اطلقت أنه مخنوقة ، ورددت بهمس :

- ماذا فعلت ؟ لماذا ؟

اعاد القفاز الى يده ، وقال ببرود .

- أجل ، خمسة .

- لماذا بترت اصابعك ؟

حرك رأسه ، وقال :

- لن اعمل بعد الآن .

نزل من على السلم ، والتقط الأصابع المبتورة بهدوء ، وذهب الى عسكرى على مبعدة بضعة أمتار من جدار المعتقل . ومن فوق السلم وتحت الضوء رأيت الأصابع في كف العسكرى يعبث بها مثل الديدان . ارتعب العسكرى ، وانبعث بريق حاد من عينيه ، وقال بتلعثم :

- اما هذا فمستحيل . انت مجنون .

- كلا .. انا بكامل قواى العقلية . انني لن اعمل بعد الآن .

- لماذا بترت أصابعك !؟

- احتجاجا على هذه السفالة . انني ببساطة اسير حرب ولست عبدا .

نزع العسكرى القفاز من يد رفيقى ، وتدفقت خيوط رفيعة من الدم على الرمل . وقال العسكرى بذهول :

- ياللهذه القسوة .

سقطت لا شعوريا على الأسلاك ، وبقيت رغم انغراس الابر في صفحة وجهي أترصده . كان بقية الرفاق يعملون بصمت ، لان مراجعة عسكرى ، او الدخول في حوار ، وتقديم الاحتجاجات كانت من الأمور اليومية العادية . ابتعد العسكرى عن رفيقى ، وقال :

- انتظر ريثما نهيىء لك بعض الاسعافات .

واختفى مهرولا الى أقرب خيمة . نفضت رأسي عندما جاءني صوته قائلا :

- هل أنت من مدينة (د) ؟

قلت وأنا أمط عنقى .

- كلا .. ولكنني أعرفها جيدا .. ماذا تريد؟

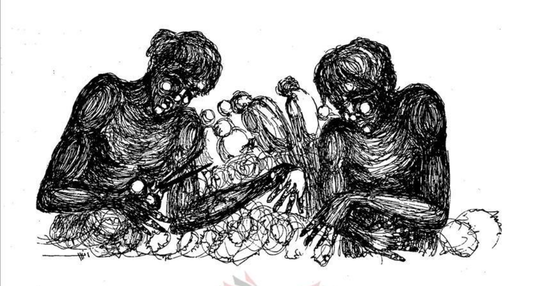
- هل تعرف منطقة (ك) ؟ انها مشهورة . ثمة شارع فرعي في سوق الجزارين . الباب الثاني هو بيتي .

- وماذا تريد ؟

- أقول ، اذا رجعت ، هناك أمام الباب تجد امرأة عجوزا تجلس طوال النهار . امرة تسبح باستمرار . كثيرا ما تجلس مع ثلة من النساء . أخبرها انني رحت اعالج أصابعي . كان منظرنا غريبا ونحن نتبادل الكلام ، نا من فوق السلم ، وهو على الرمل . قلت :

- والاطفال ؟

احتضنني طويلا بعينيه ، ورسم على وجهه



ابتسامه صغيرة ، وقال بعد أن أعطانى ظهره .

ــ ثمة خسائر فى كل انتصار .. اعطتهم هدية .

سار بخطوات واسعة صوب جدار الظلام ، ورايت يده التى بترت منها الأصابع نائمة فوق فخذه . ابتعد كثير من حدود الضوء ، وطاردته الاصوات الزاعقة بالوقوف . واخيرا استمررنا بالعمل بعد دقيقه حداد ، عندما شقت أصوات الطلقات صمت الصحراء الكلسيى .

لست وحدى الذى كلف بنقل التحيات ، والاخبار ، وهدايا رمزية للرفاق الذين انتحروا معى الآن العشرات محملين بأكثر من هدية رمزية ، أو توصية . من يدري ، ربما ، أو هم بدورهم سيسلمون تلك الوصايا للبعض . كانت العادة أن نستمع الى أكثر من محاضرة بعد كل عملية انتحار ، أو خرق للقوانين ، حتى تعلمنا كثيرا من تلك الجمل الجاهزة ، والسخيفة . وبانتهاء المحاضرة ، كنا نعود الى الصمت ، والحقد ، والعمل وكأننا استمعنا الى عواء ذئاب بعيدة ..

كان العمل الليلى أهون بكثير من عمل النهار. وكنا نعيش عطلة لا بأس بها لو مثلا انجزنا العمل المنوط بنا قبل الوقت المقرر له . لذا ، كنا نعمل بجد كي نستطيع التمتع بتلك العطلة التى فيها كنا نعيش عوالم كثيرة ، ومثل دودة القز التى لا تكف عن انتاج خيوطها الحريرية ، كنا ننتج الذكريات ونقتات عليها بلذة .

نقلت السلم الى مكان آخر بعد أن انجزت ربط الاسلاك ، وبدأت أعمل لصق رفيق آخر . منذ مدة طويلة وأنا أتفادى العمل لصق هذا الانسان، وبالأخص فى الآونة الأخيرة حيث ظهرت عليه بوادر شيزوفرونيا واضحة . هو الآخر كان يعمل بجد . قرب سلمه منى ، ودونما مقدمة ، قال بصوت فرح :

ــ اتعرف ، لقد رجعت من البيت لتوى .

ــ من البيت ؟

أعطانى وجهه ، وقال كمن يهذى :

ــ قطعت هذه الصحراء جريا ..

ــ متى ؟، .

أجابنى بصوت مخنوق .

ــ اوه . متى .. كلكم تسألون متى . كان باب المعسكر متفوحا ، والاضواء خافته . زحفت خارج السور لمسافة بعيدة ، ومن ثم نهضت ، وجريت بقوة . ملأنى شعور عميق بالفرح .

جريت بكل ماندى من قــوة . وفجأة طاردتنى اصوات فزعة ، وعويل ، ووقع أحذية . تخدرت فى مكانى ، وظللت أراوح مثلما نفعل عادة فى ساحة التدريب . راوحت طويلا ، ولست ادرى فيما اذا كنت أسير الى الامام ، أو الى الخلف . شيء ما كان يشدنى الى الرمل . توقف عن الكلام، واطلق زفرة طويلة ، وبدأ من جـديد بصوت راعشى : « زادت الأصوات » ووقع الأرجل ، وغسلنى نفس هذا الضــوء اللعين . طاردنى الضوء ، وكان يضحك ، ويصفعنى ــ ولحق بى جندى ، كان يطول تارة ويقصر فجأة ويتحول الى شكل فأر صحراوى . ثم طاردتنى حراب حتى باب البيت . رأيت والدتى جالسة تحتسى الشـــاى . شربنـــا معا ، وتكلمنا طــويلا ، ثم استلقيت على سريرى ، ورحت دونما سبب اكثر من الضحك . وعندما صرخت على والدتى بقوة ، جفلت ، ووجدتنى فى المعتقل من جديد .

بدأ يعمل . واطلق ضحكة تشنجية . وبعد حوالى الساعة ،أخذ يكثر من التحديق فى حدود اضواء البروجكترات ، ويقوم بحركات مجنونة ، ويضحك ، أو يلوح بيده . التفت الى وقال بفرح طفولى .

ــ اتعرف أن خطيبتى جاءت لزيارتى .

قلت فى نفسى : هل يحق لى أن أشــوش الذكريات ، والاحلام على هذا الانســان الذى يبدو ان شعور القلب عنده أسمى من كل شيء؟ لقد عرفت رفاقا فى الســلاح انتحروا وهذا الانسان من ضمنهم ، ان الاحساس لديهم اقوى بكثير من ان يستطيع الاحســاس نفســه ان يكتشفه . فى الحرب ، أو فى الأسر ، هل حقا توجد ثمة قوة تستطيع ان تمنع الانسان من ان يستعرض ذكرياته ، وسقطاته ، وحبه ، وأوهامه؟ فى قلب هذا الرمل ، والرصاص ، والعذاب ، والاعمال الاجبارية الشاقة ، والانتحارات ، تعلمنا ان نحتفظ بقليل من الخميرة للمستقبل .

استمر رفيقى يترصد الضوء بشوق ، وقــال بعد أن انتابته حالة تشنجية :

ــ اتعرف ان خطيبتى جاءت لزيارتى !

ــ يبدو انها تحبك كثيرا .

ــ بل تعبدنى .

أراح صدره على الاسلاك ، وقال .

ــ قد تعتقد اننى اكذب عليك . اقســـم كلا ..

ــ متى جاءت لزيارتك ؟

ــ قبل دقيقة واحدة فقط .

ــ وهل قابلتها !

ــ ليس بعد . أشارت لى من بعيد . هل تريد أن تراها ؟

نكست رأسى ، وبدأت بالعمل مرددا لنفسى: « حقا ، أى شيء يجوز فى الحرب . » واضاف بعد قليل :

ــ انها جميلة . هل يمكن انها صبغت شعرها بلون الرمل .

ــ أوه .. يمكن .. كل شيء يمكن .

ــ اتعرف . كثيرا ما اخاف من عينيها .

ــ لماذا ؟

ــ مثل عيون الذئب .

صمت ، ومد بصره بعيدا ، وتجمد فى مكانه، وابتسم ، ثم حرك يده الممسكة بالكماشة الكبيرة وراح يلوح بها كمن يودع مسافرا .

توقفت أنا الآخر عن العمل ، وجعلت اترصد حركاته الهستيرية . وذهلت عندما رأيته يكثر من تحـريك يده ، ويطلق غمغمات مخنوقة . التفت الى ، وقال :

ــ هل رأيتها ؟ انها هناك .. هل استطيع الذهاب اليها .

ــ تعقل ، واتركها هناك .

ــ لكنها تنتظرنى .

ــ دعها تنتظر والا ستغيب الى الأبد .

ــ ماذا تقصد الى الأبد .

ــ أعنى لو ذهبت اليها لقتلتها هناك .

قام بحركات غريبة ، واضطرب كثيرا ، وقال بصوت مخنوق :

ــ لن اقتلها . سنجلس على الرمل .. فقط نتكلم مثلما كنا نفعل يوم كنت أدخل السجن لأكثر من شهر .. عملية بسيطه .

وبكر الدقائق انتابته هلوسة حادة ، وضرب جبينه على الأسلاك . لمعت نقاط صغيرة من الدم على وجهه . اردت أن ابتعد عنه ، غير انه امسك بكتفى ، سحبنى بقوة قائلا :

ــ هل رأيتها . يجب أن أقابلها .

مط عنقه ، واطلق زفرات طويلة ، وقال :

ــ تلك هى تشير لى . انظر .. انظر فى اتجاه يدى .

نظرت فى اتجاه يده ملاطفا، رأيته يترقب ثعلبا كبيراً يحاول أن يقترب من حدود الضوء . تتبعت الحيــوان بدقة دخــل حدود الضــوء بخطوات وجلة ، ثم تراجـــع بخفـــة ، واســـتمر فى تلك الحركة مدة طويلة . وجننت لشاعرية رؤى رفيقى المضطرب . كان ذيل الثعلب مكسوا بشعر



غزير وعلى نحو غير طبيعي . وكان بوسع أى حالم هنا أن يشبه ذاك الذيل الغزير الشعر بشعر امرأة . اما اذا كان فى أزمة رفيقى النفسية فانه لا يتردد فى تشبيهه بأى شىء . وسألنى بجرس فزع هل رأيتها ، ولمجرد التخفيف من هياجه ، قلت .

ــ تلك هى ..

وتهيأ للنزول من على السلم . أوقفته . غضب . قلت .

ــ تصرف برجولة . دعها تأتى هنا بنفسها وتسأل عنك .

ــ لكنها تشير لى ــ تذكرنى بالأيام الأولى لتعارفنا .. سأخبر بقية الرفاق ، ربما هناك أخريات معها .

أمسكته من كتفه ، وصرخت عليه .

ــ تعقل .

ــ أرجوك دعنى .

ــ لا تذهب .

صرخ بقوة .

ــ لماذا ؟ لماذا ؟

توقف عن الصراخ ، وبعد لحظات شقت أصوات سريعة صمت الصحراء ، ورأينا عسكريا قميئا يسحل الثعلب من ذيله . القى الحيوان لصق جدار المعتقل . تمطت الأعناق ، وتصور الجميع ان احتجاجا آخر انتهى بالموت . ولدقائق تكومت الأبصار فوق الثعلب الميت على الرمل ، وتطايرت التعليقات الساخرة ، والزمزمة ، والسخرية ، وبدأ العمل .

تعمد العسكرى القاء الجثة وسط الضوء لمجرد أن يؤكد لنا ان الهروب مستحيل . تطايرت شرارات مجنونة من عينى رفيقى ، واضطرب بشكل مجنون . قرب وجهه منى ، وقال كمن يصلى :

ــ ماتت .. ماتت .

ظل جامدا فى مكانه . شجعته على العمل . أطلق كلمات كثيرة لا معنى لها . مد بصره الى حدود الضوء ، وقال :

ــ ماتت .

وبحركة سريعة ، ووحشية وضع شفتى الكماشة حول عنقه وراح يضغط عليها بوحشية . تدفقت نافورة صغيرة من الدم من فمه ، وتمزقت حنجرته ، وسقط من فوق السلم ، وتلوى على الرمل . نهض بتثاقل ، وذهب بخطوات ميتة ، وتمدد بحركات حزينة لصقت جثة الثعلب ومات .

وفى الساعة الثانية صباحا ، انتهينا من انجاز المعتقل ، وصدرت الينا الأوامر أن نتراصف على مبعدة أمتار خارج المعتقل . تأملنا بصمت المعتقل الذى عانينا كثيرا فى بنائه ، واسترجعنا بعضا من ذكرياتنا فيه . بحثت عن جثة رفيقى والثعلب فلم أجدهما . ومن بعيد رأينا قافلة صغيرة من الأسرى تدخل بخطوات رفيقه نطاق الضوء . لمعت أجسادهم المحمصة العارية تحت الأضواء ، رفعوا رؤوسهم بشموخ ، وتقدموا بحركات ميتة وكأنهم مربطون بعجلة . تبادلنا نظرات طويلة . وفى الوقت الذى انطلقنا بخطوات متخثرة للعمل فى مكان آخر ، تقدموا هم للدخول فى المعتقل الجديد .

الخيل والمقبرة والتلال

بقلم : غسان كنفانى

قال الطبيب لجدى : تحتاج الى رياضة كى تعيش ، قال جدى : عجوز ورياضة ؟

هذه هى الطريقة الوحيدة لتعيش ، أركب الخيل مثلا .

لقد ركبت الخيل كل عمرى ، وكففت عن ذلك منذ شهرين فقط .

عد الى ركوب الخيل ، اذا اردت ان تعيش .

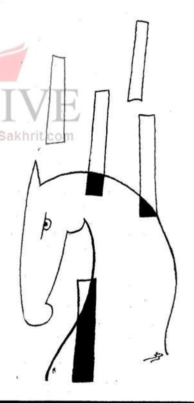
فى صباح اليوم التالى ركب جدى حصانا جمح به فقصف غصن واطىء عنقه .

●

الجياد جرت عربة الموت الى المقبرة وسرنا خلفها . سائق العربة رجل قصير له زوجة وست بنات ورداء ليليكى لحصانه الأسود . فى الأيام العادية يؤجر حصانه لحديقة الاطفال . فى أيام الموت يسوق الحصان العربة الى المقبرة بخطوات جنائزية متزنة تدرب عليها طويلا . وكلاء حديقة الاطفال يحبون الحصان : لأن خطواته متزنة ورصينه لا تخيف الاطفال ولا تعرضهم للخطر .

●

صاحب الحصان تزوج ارملة جثة ساقها الى المقبرة . جاءته فى الصباح سوداء ، وتحدثا عن الجنازة وعرف انه سيتزوجها ذات يوم . فى الموكب راقبها من فوق وكانت الجثة فى الصندوق المحكم الاغلاق وراءه . حين أصلح العجلة الخشبية وضع الحداد طوق الحديد



المجمر حولها ثم صب الماء البارد فوقه فاطبق الطوق صلبا حول العجلة الخشبية ، واعتصرها ولم يعد من الممكن فكهما . وكانت تنظر اليه من تحت وتعجب به في خجل • في الصباح شاهدت الموظف يلف أوراق رجلها الميت كاسطوانة ويحكم ربطها بالمطاط ويضعها في الخزانة . انتهى كل شيء • اعتصر المطاط الاسطوانة .

مهر ، حصان وفرس ، مهر آخر •

حصانه القديم مات . اخذوا حدوات حوافره، لم تكن دوائر مغلقة . حدوات مبراة لا تصلح. صهروها وصبوا منها طوقا جديدا لعجلة خشبية جديدة .

●

مشينا وراء العربة • كان القبار رجلا أعمى • وكان المطر يغسل الحفرة المعدة • وحين اسقطوا النعش الثقيل غاص فى الوحل وقال الدفان : « لا عليكم ، سيخرج من الطرف الآخر » . كان سور المقبرة مزروعا بالزجاج • امسكوا طالبا يسرق عظاما يبيعها لاساتذته ويشترى خبزا وحليبا .

عدنا ، وكانت ليلى تبكى ، وقالت : احس اننى انا التى مت . احس اننى ميتة .

اتركينى ازرع فيك الحياة . اتركينى اضمك عارية الى عربى . طريقة وحيدة لتشعرى رعشة الحياة ، انت الميتة ، اتركينى

وتركتنى .

●

وكان عندى عربة وحصان وزوجة ، وسيصير عندى زوجة أخرى ، اسمها ليلى .

مهر ، حصان وفرس ، مهر آخر •

ولم اكن أعرف ان ليلى جاسوسة ، قتلت زوجها لادفنه ، وتحبنى ، واحبها ، واتزوجها ، وتتجسس على .

واخذتها الى بيتى .

●

اننى قبـــار : ازوج الأرض جثث الرجـــال واتزوج ارااملهم . واكتشفت ليلى الحقيقة كلها، فانا أرى الموت ، فقط ، وسيلة للحياة • آراه مهرا ، وذلك كان كل ما أرادته ، وحين عرفتـه احبتنى حقا .

ويوما أخذتها الى حديقة الأطفـال . وكان الحصان ينقل حوافره برصانة العجوز فاقد الذاكرة • من وراء ظهور الاطفال وضعتها خلسة على الارجوحة واخذت ادفعها وهى تضحك . الى فوق ، قالت . اكثر الى فوق . وضحكت . أكثر . فوق . ضحكت . أكثر . أكثر . أكثر. ثم صعدت ، وانتظرتها . لم تعد .

●

وجن جنون الحصان فأخذ يدوس على الارض ويضربها بقسوة . وخشيت ان يقتل الاطفـال الا اننى تذكرت ان الاطفال لا يموتون ، فصرفت النظر عنه ، وأخذت انتظر ان تعود ليلى على الارجوحة • ولكنها لم تعد •

●

لم تعد ليلى

وهرب الحصان وأخذ يجمع مثـل العلم على التلال المحيطة بملعب الأولاد ، وقال لى بصهيل مثل احتكاك سيفين : الطريق بين المقبرة وملعب الأولاد ، بين ملعب الأولاد والمقبرة صارت مملة، ولقد اعتزمت ان اسلك ، بين الملعب والمقبرة ، طريق التلال . هنـاك القى الفرس ، وهنـاك تنجب المهور .

واختفى الاطفال .

عدت ماشيا الى البيت .

●

الحصان الذى جح بجدى وقتله هرب هو الآخر الى التلال .

وكذلك حصان القبار .

اهترأت العـربة التى تنقـل الموتى ، واكل السوس عجلاتها .

لم يبق منها الا اطواق الحديد التى كانت مئات من حدوات الحوافر المبرية .

وذات يوم جاء رجل من التلال ، على حصان بلا سرج ، وأخذ اطواق الحديد الباقية ، وصهروها حدوات حوافر خيول من جديد •

لم يعد ثمة من يدفن الموتى ، وصاروا ـ قبل أن يموتوا ـ يحفرون حفرا تتسـع لاجسـامهم ويسقطون أنفسهم بها ، غالبا على التلال •

●

مهر . حصان وفرس . مهر آخر .

حدوة ، عجلة ، حدوة أخرى .

طفل ، رجل ، رجل آخر .

تلال .

تلال .

تلال .

ميخائيل والبجعة

بقلم : ادوار الخراط

كأنما السيارة فى الصبح المبكر قد اخترقت حافة الشمس التى بدأت ، منذ دقائق قليلة ، تشتعل باخضرار فى وسـط فروع الشجر المورقه ، يقظة بفرح ، كالأطفال ، حول الميدان الصغير الخالى ٠

زقزقة العصافير ـ خفيـة تتطاير مندفعة ولا تلحظ بين الشجر وشرفات البيوت النائمة ـ تعطى الميدان نبرة ريفية ، أو كأننا فى ركن من ضاحية بعيدة ٠ كأنما شارع النيل ، على بعد خطوات ، وجسوره الضيقة المزدحمة ، وتسابق السيارات والتروللى باس والاوتوبيسات ، كلها، فى عالم آخر ٠

هواء الصبح ، سخنا وان كان ما زال بليلا ، ينسكت داخلا من نافذة السيارة ، وهو يدير عجلة القيادة، بيد واحدة ، ذراعه مرتكنة على النافذة٠ وهو يخرج من لحظة عابرة ، غير حقيقية ، باهتة الزرقه ، ليدخل الشوارع الممتلئة ٠

عندما فتح عينيه ، وقد انتفض من النـوم فجأة ، دون سبب ، وجد أنه لم يغادر الحلم الخانق الذى كان قد نام فى قبضته ٠ وكأنما هتف باسمها فى شجى ملتاع ، كما نام وهو ينادى به ، وكأنما قال لها : رامة ، رامة ، هل تسمعيننى ، هل تردين ؟ أحبك ٠ وكأنما ضحك من نفسه ، يمزق نفسه ٠ حوائط غرفة نومه بخشونتها العارية والشروخ الملتوية الدقيقة فيها، تصحو معه ، مهددة ، وتميل عليه ٠ الستارة على نافذة الغرفة لا تحجز عنه شغط الوحشة التى تدخل عليه ، وحدها ، لا شىء آخر معها ، من قطعة السماء بين سطوح البيوت ٠ هل الحب هو هذا النداء الذى لا رد عليه أبدا ؟ ولا ينقطع، لا يملك ان يرده عنه ، ملحا ، يصـحبه فى صحوته ونومه ، منذ أمد يبدو له قديما ، قديما ، لا بدء له ؛ ولا تبدو له نهاية ٠

هل الحب هو هذه الوحدة ؟

فى كل ليلة يموت ميتة صغيرة ، ويبعث فى الصبح ، ميتا ٠

وطبعا ، ليس هذا بالأمر المسلى

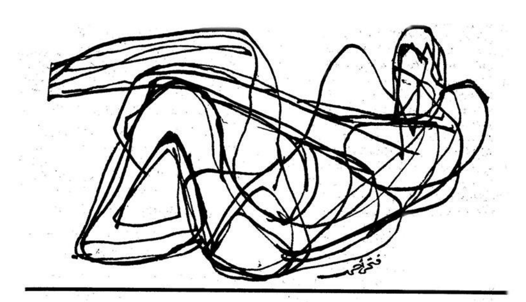
قال لها : ماكنت أظن فى نفسى هذا القدر من المراهقة بعد ٠

وكان قد قال لها ، بصوت جهد ان يكون خافتا ومعتدلا ، كان فيه ظل سخرية :

– كل هذه الخيالات ، هذه الآلام ، والحديث الذى لا ينقطع ، بينى وبينك ، فى حلم يقظة مستمر يوما بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ٠٠٠

هل يبدو لك هذا عاطفيا جدا ، وصبيانيا ؟

ولكنه حقيقى ٠



أريد ان اقول حقيقى بمعنى آخر ، محدد ، وغير عاطفى بالمرة ·

كل شيء آخر ، بجانب هذا الحلم ، بجانب هذا النداء المكتوم ، بجانب هذا الشوق اللاذع الالم ، كل شيء آخر خفيف الوزن ، يطفو فى ماء ضحل ·

قالت له : ولكنه حس بالحياة الحقيقية · حس طيب ·

قالت له : منذ يومين ، وانت غائب ، جلست وكتبت لك خطابا أحاول ان اقــول لك فيــه ما أحس · كتبت نصف صــفحة ، ومزقتها ، وجدتها مراهقة جدا ·

كان صامتا ، مختنقا ، حبه الآن ســجن بلا نافذة ولا باب ·

قال لنفسه : فى هذا كله عنصر طفلى لم أبرأ منه · كنت ظننت نفسى قد برئت ·

قال لنفسه : فأين المرض ؟ فى الطفولة أم فى الجفاف الذى نفرضه على انفسنا لاننا لم نعد أطفالا ·

قال لنفسه : ليســت هذه نكسة الى مرض قديم · هى حياة · هى الحياة وحدها الحياة ·

ولم يضحك ، هذه المرة ، من نفسه ·

قال لها : لست ادرى كيف أقول لست ادرى ماذا أقول ·

قالت له : لهذا أحبك ·

لم يكن قد قالهــا ، ابدا ، انه فى كل مرة يلقاها ، يذهب اليها وفى قلبه عذاب غير مفهوم، كانما ينتظر الا يجدها ، بل يجدها أخــرى ، لا تعرفه ، وتسأله : من أنت ؟

لم يقل لها أبدا : الا تحسين وطأ قضــبان السجن تضغط على اللحم العارى المكشوف ؟ الا تحسين القهر يقبض على ناصية القلب ، يقبض على ناصية السماء ؟ والصرخة المكتومة ؟

ولن يقول لها · فقد كان يظن ان فى طبعه شيئا من الكبرياء · وكان يظن ان الاشــياء المهمة حقا لا تقال ، ولا يمكن ان تقال ·

فى حديثه لنفسه معها ، قال لها : ماذا يمكن للواحد ان يقول عن شيء كالموت، أو عن الصدق؟ أو عن الحب ؟ كل شيء قيل ·

وكان يظن ان الكلام ــ مجرد الكلام ــ مهمــا كان حارا ، أو نابعا من أصل الحياة نفســها ، خيانة ·

وكان يقول لنفسه أنه مخطيء فى هذا كله · وان البلاء ليس فى مراهقة الحس والقلب وحدها·

وان النضوج معناه التصالح مع نصف الحل ، وقبول نصف التسوية ، والتسليم بما لك وما عليك ، والرضى بما تستطيع ، وما يستطيع لك العالم • النضوج معناه ، كما يقال ، الاحتفاظ بغضاضة الامل الناعمة ، مروية بالماء – ولو كان ماء ملحا – فى قلب صخرة اليأس اليابسة •

وكان هذا كله يبدو له فجا جدا ، وغير مقنع •

ويقول لنفسه : ليس الامر نكسة للمراهقة ، بل هى عرامة شـــوق للحياة لا تنطفىء أبدا ، وايمان كلى بأن الانسان لا يمكن أن يظل وحيدا • وان الحب ليس كذبة • ايمان ينكر كل الوقائع وكل الحقائق ، ويتحداها •

ويقول لنفسه : هذه بالضبط هى المراهقة

فيسكت ، دون اقتناع •

قال لها : أين نذهب ••

قالت : كما تحب • انا تحت امرك ياحبيبى •

قال : جزيرة الشاى ؟

قالت : نعم •

كانت قد جاءت قبل موعدها • لم يكن يرى شيئا غيرها – وكان لها جمالها الذى يؤلم ، هل الحب هو هذا الألم ؟ – فى وسط ميدان التحرير الغاص بالوحوش والمسوخ •

وجههـــا الآخر ، الماثل ابدا فى الزمن ، لم يعرفه ، كأنما كان هناك دائما ، مع ذلك • فى عينيها توق مصمم ، يرى شـــيئا لا يراه أحدا غيرها ، ووحشة ترفض اليأس ، وبحث • هل تجدين ابدا ما تبحثين عنه ، يا حبيبتى ؟ موجة الزمن الزرقاء والخضراء ثابتة ، لاتتحـــرك ، لا تنحسر • وأجساد الأعشـــاب البحرية التى جففتها الشمس فى صفرة عينيها • لحم العشب الاصفر ينضح بالحرارة والجفاف ، على صـــخرة لا يبللها الماء ، غارقة فى بحر قديم • شـــفتاها رقيقتـــان ، ناعمتان ، فيهما ســـمرة نظيفة ، بدائية ، لم يخضبها الروج • وكانت وحدها • يا طفلتى ، كم انت وحيدة ، أنت ايضا ، وحيدة فى كل سياق حياتك المزدحم المضطرب •

كانت قد قالت له ، فى آخر تلك الليلة التى رمت بها اليه عاطفة الحب والشهوة والبكاء والحنين والاحبـــاط : احك لى حكاية ، لا تتركنى حتى أنام •

بصوت صغير ، جارح ، لانه رقيق ولا حول له ، أمام اتساع وحشة لا نهاية لها •

كانت وديعة كطفلة ، تحت غطائهـــا ، وكان يحس دفء جسمها يملأ لحظته كلها • ولم يكن يعرف ، عندئذ ، قيمة الكنز الذى بين يديه ، رصيد من الحب والدفء ضيعه الى الابد • كان يبحث ، رغما عنه ، عن صدق مزعوم • كان مدفوعا به الى الخلف دائما بقـــوة يقاومهـــا وتســـتنفده • كان ما يزال مبهـــورا فى صدمة كشف لا يصدق • يصارع نفسه • ألن يتعلم أبدا كيف يطلق نفسه من اسارها ؟ ليس من صدق أبدا الا هذا الصدق الوحشى العارى الأول ، صدق صدمه الالتقاء الذى لا يقاوم بين جسدين – اكثر بكثير من جسدين – فى تجاذب يكتســـح امامه كل انفصال ، تلاحم انفجـــار نواة الكون نفسه ، ارتطام الأفلاك بقوة قانون لا يقهر ، التفاف العناق والالتصاق الحميم الذى لا ينفصـــم ، وقبلة الاعتصار والشوق الذى لا تحده حدود ، فجائية وعذبة عذوبتها الصارمة الكاملة التى لا تعرف حدا ، عذوبة حرية لا نهاية لها ، عذوبة تحقق نهائى لا يمكن الغاؤه أو نكرانه •

قالت له مرة : هذا الوعى الفيزيقى المخيف بيننا •••

ولم يجد ما يقول • لانه لم يستطع ان يختار ما يقول من بين ما كانت نفسه تهدر به وتمور ، من تدفق تتقلب فيه ألف صرخة شوق وفرح ، وتعتلج فيه نداءات محرقة ، وبهجة مكتومة • يد ضخمة ثقيلة تكتم الزلزال ، والأرض تدور دورتها البطيئة فى الليل •

بدأ يحكى لها حكاية أطفال ، مستمتعا بحكايته ، متعثرا بها ، وساخرا منها • صوته يرتعش بحب لا يعرف بعد انه هناك : يحكى ان اميرة صغيرة خرجت الى الغابة ، تبحث عن شىء لا تعرفه ، ولكنها تعرف انه هناك • وقطعت الاميرة بلاد الله ، بلاد تشيلها ، وبلاد تحطها والتقت فى بحثها بالاشجار ، والســـحاب ، والغيـــلان ، والاطفال •• لم تجد ما تبحث عنه • ويشرق الصباح ، ثم يأتى الليل •• دائما يأتى الليل •• والبحث ••

قاطعته بصوت نصف نائم ، نصف ساخر :

– ليس هكذا تحكى الحكايات ، يجب ان تقول اسم الاميرة ، وان تصفها لى ••

رامة •• رامة ••

قال فجأة ، بحدة ، ضاحكا :

– لا عليك الا ان تسمعى الحكاية فقط • حتى تنامى ••

قالت بخضوع أوجع قلبه ، بنت صغيرة تبحث عن أمن صغير ، لا تريد ان تفقده :

ـ طيب .. اكمل حكايتك يا حبيبى .

وعندما كان يقول لها ان الاميرة وجدت الفارس الذى تبحث عنه ، لم يكن يصدق الحكاية الرثة البالية . وكان فى عينيه مياه ملحة قليلة ، لم تنسكب .

قالت له : لا تتركنى حتى أنام .

لم يقل لها : مم تخافين يا حبيبتى ؟ ما سر الفراغ الموحش حواليك ، صحراء لا نهاية لها ؟ احاط كتفيها بذراعه فى حنو يثقل ذراعه بأحمال لا تطاق . وكانت قد غرقت فى عالمها الخاص الذى لا يمكن ان يدخله معها . وشهقت ، فى نومها ، بآخر شهقات البكاء ، وقالت فى الحلم : ياله من رجل غريب .

قال لها : من هو ؟ من هو الرجل الغريب ؟

استيقظت نصف يقظة ، وقالت : نعم ؟ من ؟

قال لها : نامى ياحبيبتى ، نامى الآن .

ـ لا تتركنى .

ـ لن اتركك . أنا معك . نامى الآن ..

من هو الرجل الغريب الذى تساءلت عنه ، فى أول خطواتها على أرض نومها ؟ أكانت تحدث نفسها عنه هو ؟ أكان هو الرجل الغريب ، المضحك شيئا ما ؟ لا شك انه مضحك قليلا على الاقل ـ عندها . لن يعرف أبدا بالطبع . هذه الاسرار الصغيرة التى لا يعرفها حتى أصحابها .

عندما كانت السيارة الصغيرة الضيقة مغلقة عليهما ، فى عتمة أول الليل التى تشقها أنوار زرقاء خافتة سرعان ما تمضى ، كان حسه بالنفس الدافىء الخصيب الذى يتضوع من مجرد وجودها يحيط به كأنه نشوة سكر خفيفة وعميقة معا ، تكشف عن المعنى فى كل شىء . كان هذا النفس الأنثوى نفح ينبوع خفى من ماء دسم يجرى عن بؤرة غنية فى داخلها .

قالت له : كل الناس تحب المحبين .

نظر الى عمق عينيها ، فى قربى العتمة الحميمة . بحيرتين من الملح فى رمل الصحراء الاصفر . ومع ذلك فالسيارة الصغيرة قطة معابثة ، كأنها أيضا سعيدة مرحة وان كانت لها مخالب . كان القماش الرقيق الذى تعصب به شعرها يوحى اليه بنعومة خاصة . لجت به رغبة لاعجة أن يعرف مرة أخرى رقة شفتيها ، وبهجة ملمس وجهها ، وذلك التحقق النادر الغريب الذى يجده فى حضنها ، لكنه كان يبحث أيضا ، فى عينيها ، عن صدق لا يعرف ما كنهه ، أى صدق ذلك الذى يبحث عنه ، ولماذا ؟ هذا البحث الموقف المجمد لانسياب دماء الحياة ؟

لم يكن قد عرف طعم الفقدان بعد . كانت يدها على يده فى السيارة فيها أمان ، موقوت حقا ، ولكنه كامل ، ونجاة من عذابات قلق خام غير واضح الحدود . هذا الحس لا يفارقه ، مجسما ، عضويا ، هذائيا فى حضوره المستمر ، يفرض نفسه فرضا ، حسه بهذه اليد المليئة بذخر من حنان لا ينفد ، تستقر لحظة على يده ، ثم ترتفع ، تتقلب تحت شفتيه ، تتلمس وجهه تلمسا وثيقا ومرتجفا وبطيئا .

نداؤه باسمها ، بلا صوت ، يحجب عنه كل صوت آخر .

قال لنفسه : أنت عندما تفقد شيئا تعرف انه لن يعوض ، لا يعوض ، وترفض مع ذلك ، ترفض هذا الحس بالفقدان ، تتمرد عليه كل جوارحك كما يتمرد شىء حى متوفز بالحياة ضد ما يحمل اليه الموت ، ترفض ، كأنك تحطم السماء بيديك العاريتين ، كأنك سقطت على تراب القبر ، تدق أرضه بقبضتك المضمومة ، وتقول لا ، لا ، ومع ذلك تظل حفرة القبر مفتوحة ، فى داخلك . الفقدان هناك ، قائم ، شىء ما قد نهش مكانه ، وانتزع من فلذة النسيج الذى يغلف حياتك نفسها ، لا أمل أبدا فى استرداده ، عليك أن تطيقه ، أن تحتمل فجوة الضياع الذى لا يحتمل ، وأن تعيش معه . لماذا تعيش ؟ أنت ترى نفسك ميتا ، وتعيش مع الموت . تعيش الموت . وتحمله معك ، وتصبر عليه ، وتعانيه . انت تحمل ميتا فى داخلك . والميت هو أنت أيضا . قبر يتحرك يوارى هذا المدفون من غير غطاء .

ليال غاضبة ، حزينة ، ووحشية . ليال مضطربة عاصفة . طرقات تهد أرض القلب من التمرد والنداء المحبط والرفض ، فى داخل الصمت المطبق .

قال لها : قضيت ليالى غاضبة ، وحزينة ، ووحشية .

قالت له : لماذا ؟

قال : لاننى لم أسمع منك ، لم تحدثينى ، لم أرك .

قالت له ، كان فى صوتها نبرة خلفية من

ضحك وسخرية خفيفة : هذا كل شيء ؟ سأحدثك كل يوم • سوف تملنى •

ولم تحدثه كل يوم ، ولم تتصل به بالتليفون كل يـــوم • ولم تكن سخريته من نفسه خفيفة جدا ، كأقل ما يقال • كانت الايام رحلة فيجحيم داخلي حميم خفي • وكان دفتر الرحلة في الجحيم مطوى الغلاف •

قالت له مرة ، في نور صبح شتوى صحو خاو ليس فيه الا هما ، على درجات سلالم رخامية قديمة التراب ، عريضة وسوداء :

ــ كما تريد ، أنا مستسلمة لك ياحبيبي •

كان قـــد عاش طول عمره غريبا في أرض وطنه ، وعرف لحظتها ما معنى أن تقول له الهته، ايزيس : « ياحبيبي ! » عـــرف لأول مرة ، بين ذراعيها الخمريتين ، في بضاضتهما الممتلئة بالحنو، طعم أن يكون في أرضه •

ما جدوى أن يقـــول لها ان كلمتها ، وهي تناديه بلغته ، في أرض غريبة : «ياحبيبي» كانت طعنة عذبة ـ ما أعذبها !ـ نزفت لها ، مرة واحدة، كل دماء قلبه ، وكانت في الوقت نفسه البلسم الذي أبرأ كل الجروح ـ أو هكذا كان في ظنه •• ألم يقـــل كل المحبين هذا الكلام ؟ كل شيء قد قيـــل • ولكن الحب ، والموت ، لا يقـــال ، ولا يتكرر • والصدق وهم مستحيل •

لم يقل لها : علمني حسي بفقدانك اننا نحب وحدنا • ونموت وحدنا • واستشرفت انه ليس حتى في الموت برء من الوحدة • بعد حياة الوحشة المحكوم بها علينا ، نحن نموت • ولا نجـد في الموت نجدة • ولا نلتقي فيه بأحد • الموت يطوى الكتـــاب ويغلقه ويكرس ختمه • والحب • الحب كذبة • هو الشهوة العارمة للخلاص من الوحدة، الاندفاعة التي لا توقف نحـــو الانصهار الكامل والاندماج والاشتعال المزدهر • لكنه يدور أيضا في الوحدة • وينتهي بتكريسها ، أكثر علقما من الموت • نحن نحب وحدنا • الحب أيضـــا وحدة لا شفاء منها •

قال يصرخ في ظلمة ليله ، مسدود الحلق : ليس صحيحا •• لا يمكن أن يكون صحيحا• لا•

كان الصمت هو الذى يواجهه • دون رد •

قالت له : نحن قـــد بلغنـــا سن الرشد • ونستطيع أن نتحكم في أنفسنا •

فلم يقل لها ان الزلزال قد كسر قشرة العقل والاتزان ، ولم يسألها أيهما الأصدق والأقرب الى ينبـــوع الحياة ؟ وما الصدق ، وما جدوى مياه الينبوع الملحة ؟ أهذا الامتزاج الحار ، وحده هو الصدق ؟ هذا الحضور المـــائل أبدا ، كل لحظة ، نعـــم كل لحظة ، هو الصدق ؟ لكنني يا حبيبتي دائما أعيشهما معا ، اندفاع كأنه احتضان الوجد ونكوص كضربة البتر معا ، اصـــطدام وافتراق لا يتوقفان أبدا ، نســـيج نفسي يتقطع ويلتئم ، يشـــق ويلتحم ، في بؤرة دائمة التقلب لا تهمد فورتها أبدا ، من الحقيقة واللاحقيقة • حبك لي، أهو هنـــاك أما يزال ؟ ـ يوجد وينتفي ، يقوم وينقض ، ألف مرة كل يوم ، في وهمي •

قلت لي مرة : أحبك •

كنا في قلب حمم النيران • لم تقوليها مرة أخرى •

حضورك الدائم ، وصمتـــك ، قربك مني ، وابتعـــاد حيـــاتك في مسارات جديدة تحسنين الدفاع عنهـــا ، بذكاء يقظ حاد • كأنما تجرى حياتك داخل مقاصير مقفلة ، محجوزة عن بعضها البعض ، منفصلة ، وانت تحامين تحت كل جدار عازل منهـــا ، باستماتة • هل تظنين يا حبيبتي انك ـ انت الحقيقية ـ موجـــودة في قلب هـــذا التيه من الاســـوار والحيطان ، موجودة وراء هذه الحصون والقـــلاع التي تقيمينها في وجهي ، في وجه العالم ؟ وفي وجه نفسك ؟ هل تظنين انكـ انت انت ـ موجودة في كل عالم من هذه الافلاك التي تتماس ولكن لا تتداخل ، تتســـاوق ولكن لا تتقاطع أبدا ؟ في كل عالم ، وحده ، من هذه التي تدور غريبة كل منها عن الآخر ؟

قال لهـــا : هل تعرفين يا حبيبتي ان الملاك ميخائيل هو شفيعي ، وسميي ، وملاكي الحارس؟ هكذا قيل لي وأنا صغير • وقيل لي أيضا ان مياه النيل لاتفيض أبدا الا عندما ينزل الملاك ميخائيل، في ليلة عيده ، على أرض مصر ، ويبكي •

قطرة واحدة من مياه دموعه وتنهمر الامواج الغنيـــة بالخصب والحمرة ، وترف النبـــاتات العطشى في التربة ، وتمتلـــء شـــقوق الشراقي بالدسم ، ويعم الخير •

قال لها : كنت في صغرى يصنعون لي الفطير في عيدى ، عيد الملاك ميخائيل ، كبير الملائكة ، وقائد جنود السماء • وعندما آكل الفطير المنقوش بالكلمات القبطية القديمة ، اللامع الوجه بالزيت، أراه ، ملاكي وحارسي وشقيقي ، بدرعه الفضية، ورمحه الطويل ، يهجم ، ويقتـــل كل الأكاذيب وكل الشياطين المتزاحمة في الظلام •

لا • لم يقل لها شيئا من هذا •

لم يقـل لهـا : ان الحب عندى هو انهدام الاسوار ، وتدفق مياه الحياة المختلطة فى بحر مفتوح الافق يطفو على عبابه المضطرب حبيبان فى قشرة خشبية خفيفة واحدة •

لم يقل لها : ما أريده ، أريده أكثر من كل شىء آخر ، أريده لك أنت ، أريده لنا ، أن تكونى معى حرة ، حرة من الحـاجة الى تبرير نفسك • صغيرتى التى طال بحثـك فى الليل ، والتقيت بالاشباح ، انت مبررة ، لانك محبوبة • الحب هو الشىء الوحيد الذى لا يحتـاج الى تبرير • بل يأخـذ ويعطى ، دون سـؤال • حبيبتى أظننى أعرفك ، أعرف الجوهرى فيك ، أعرفك انت وان كنت لا أعرف شرحا لك ولا تبريرا • الحب عندى هو المعرفة • والصـدق شهوة محرقة • لا اريد أن أقول اننى أقبلك ـ لماذا أقبل أو لا أقبل ؟ـ أريد أن أقـول اننى أحبك : انت ، بكل ما هو انت ، دون شرط ، دون حيطة •

وعندما اقول هذا أعرف اننى أكسر كل قواعد اللعبة • نعم ، هى لعبة ، الحياة ، والحب أيضا، كل ما فيها له قواعد وأصول • أنا أرفض أصول اللعبة ، أغامر ، أضع قلبى كله ، عاريا ، مرتجفا بنبضه ، عنيدا بايمانه ، تحت وطأة الانكشاف ، دون حماية • ما الذى يحدث عندما تنهار الحواجز والسدود وتندفع الامواج المحبوسة القلقة المحوط عليها ، داخل المقاصير المسورة ، وتجرى متلاطمة تحمل معها انقاض الاحجار ؟ أهذا مخيف ؟ نعم، أعرف دفء الظلمة المكنونة، وحماية السر، لكننى أعرف أيضـا مر الوحدة خلف الأسوار • ماذا يحدث عندما تسفر النفس عن اضطرابها الحميم، وأشـواقها التى لا تفهم ولا تبرر ، واندفاعات هوسها وتطلباتها المخبوءة ؟

ولأن حبى هو المعرفة، هو اليقظة الكاملة أمام كل نأمة ، كل اختلاجة فى الصوت ، كل ارتجافة جفن ، لهـذا أجد نفسى ، وأنا أحبك ، وحدى ، ولست معى ••

الشىء الخارق الغريب ، حرية الموج تحت نور السحاب •• أنت بعيدة عنى • الابواب صخور، مغلقة •

لم يقل لهـا : يقف بينى وبين كل شىء ، الآن ، حاجز لا عبـور منه • السماء غريبة ، البنايات فى الشوارع غريبة ، والناس أشـياء تضطرب بلا معنى • وحدى • الهواء الذى يدخل صدرى ، عند الغروب ، عبر النيل ، لا يحمل الى انفساحا ولا راحة ولا متعة • حدة شمس الظهر، وصمت الشوارع فى الليل ، ونشق هواء الصبح النقى البارد ، كلها تأتينى بحس من الحرمان • كان هناك غشاوة شفافة ، ولكنها صلبة لا تنزاح، على عينى ، تغـلف قلبى ، تجمـدنى •• لاننى أفتقدك •

لم يقل لها : أين آفاق الـكشف والسعادة والراحة التى عرفنـاها معـا ؟ أين البهجة التى لا توصف فى كل لمسة ، فى كل نسـمة هواء ؟ وانطلاق الحياة لا يكاد ينفد معين لتدفقها، تحملنا على أمواج الفرح الخفى عبر مدينتنا المسحورة ؟ أين الشوارع التى لا تنتهى أبدا تحت أقدامنا ، كأنها تتفتح لنا ، وحدنا ، بكنوزها المضيئة بنور مصابيح تتوهج فى سـماء الليل والقلب معا ، وتتسـع لنـا المدينة ، وتزدهر ، لنا وحدنا ، بلا حدود ؟

رامة ، رامة •• أين أنت ؟

عنـدما كانت الى جانبه ، وطنين المحركات الرتيب حولهـما ، اصرار أمواج لا تنى ترتطم بالصخر وتعـود ، والناس فى خدر من الحس بالسرعة والاندفاع ، وكأنهما هما فى عالم خاص قد تحرر من القيود والروابط ، ومضى فى طريق بهجة كونية من الحرية والطـاقة المبذولة بسخاء وقـوة ، كان وجودها الى جواره وفيرا خصيبا ، كان تمـاس ذراعه بذراعها ، واحساسه بقرب صدرها وامتلاء جسمها يحمل اليه ، فى تيار خفى يأخذ ويعطى ، وعدا بغنى أنثوى لا ينضب، بمياه كثيفة وعذبة، الوقع على جدران نفسه • وقالت له : اذا حدث لك هذا ، فلا شك أنه سيكون ، بالنسبة لك ، زلزالا •

كان صوتها متأملا ، بعيد الصدى

أكان فى ذلك نبـوءة ، ايزيس عـرافتى وساحرتى ، أم حدس بما سـوف يقع ، أم هو الخطوة الاولى التى لم أكن أعرف اننى أخطوها، على قشرة الارض التى تدمدم بالتشقق والانفجار؟ أم هل كنت انت قد بدأت منذ ذلك الحين تلاوة رقيتك الملغوزة بالسر ؟

انت الآن تقـولين لى : اننى سـعيدة لانك توجد • واننى التقيت بك •

ولا تكملين •

وأحس فى نبرة هـذه الكلمة ما يوحى بانك تريدين أن تضعى نهاية • كان فيها نزوعا نحو ختام ، وخطوة نحو شىء قد انطوى • لم تسعدنى الكلمة ، بل فتحت جرحا لم يلتئم • اننى فى قلب الزلزال ، فى فوهة البركان التى تغص بالحمم ، مندلعة بنار تسطع فى لهيبها كل صخور العمر الصلبة ، وتذوب • ماذا تفعـل يداى العاريتان

اللتان تحجزان انهمار حمم البركان ، وتسندان بنايات عالمي التي تتقوض في الزلزال ؟

اسمك يختلط بماء مر ملح .

لم يكن أحد قد عرف أبدا تلك الليلة . منذ سنين مرت كأنها زمن العمر ، والسماء مشحونة بنذر الانكسار ، والعواء المعدنى قد علا ، مع شظايا السماء المتفجرة ، ثم خبا في صمت مثقل بالكارثة . والبيت المقفل الساكن في الليل هش رقيق القشرة في قلب بؤرة العاصفة التي هدمت كل شيء حواليه . يحيط به نوم متعب بريء لم يعرف بعد طعم المرارة الذى لا يزول أبدا . وجاء الخبر . والموسيقى الرثة الصاخبة ، وأغنية المجد والحب والصوت المرتعش .. لك حبى وفؤادى .. الضجيج يصمي القلب ويدميه .. أغلى درة .. الاصوات جوفاء صداها يتردد في خواء فقد فيه حتى الحزن معناه .. عشت حرة.. عشت حرة .. وانفجرت الدموع ، فجأة ، على غير انتظار . القلب المتفطر لم يكن يجد في شيء رحمة . كل الحب قد بذل ، وأهدر ، وامتهن ، عاريا ، بلا حماية . ظلت عاصفة الدموع تهزه ، وتنفضه ، وتطوح به ، في وحدة ليلته . لا تنجاب ولا تنتهى . وفي الصبح ، كل صبح ، ظل ثقل الحجر الرازح في جوفه يغرقه تحت الماء ، لا يطفو قلبه أبدا .

لم يبك قط بعدها الا هذا الصباح . حملت اليه الموسيقى ، مرة أخرى لذع الوحشة النهائية . موسيقى تفيض قادمة اليه من قلوب عذبها حب قديم انحسرت به السنين الطوال ، لكنها مازالت تحمل حرارة الألم المدفون ، وحزن العالم . وفي نور الشمس الشتوية التى تدخل من نافذته ، كان بكاؤه مكتوما ووحيدا .

قال لنفسه : حبيبتي دائما واحدة ، مقدسة وحميمة ، ومستباحة مبذولة لشيء غريب لا أعرفه . لا ، لا بل لا أعترف به .. دائما تدعونى ، وتسحرنى ، ومهما قاومت فاننى فى حضنها ، وحده ، أجد نفسى . أجد المعنى الذى أفتقده فى كل شيء . ثم أقع بعد ذلك في وحدتى ، يدى خاويتان ، وفى داخلى حفرة مفتوحة .

وقال لنفسه : انت قد بلغت سن الرشد جدا ، رجل فى منتصف العمر ، فماذا بعد ؟ ألا تظن ان هذا التفسير الاوديبي سهل ، وبخس ، حقا ؟ ألا تظن هذه القضية كلها شيئا مفككا ، وليست ، على أى حال ، هنا أو هناك ؟ وشططا عن الموضوع أيضا ؟

قال لنفسه : انني قادر مع ذلك على احتمال ذلك كله ، والحياة به ، أيا كان الثمن .

كان يظن نفسه صلب العود ، لا ينكسر بسهولة .

وكان فى داخله فريسة لموسيقى الدموع .

كان يعرف ، ولكنه لم يكن يصدق ، انندائه المتصل ، الملح ، اللاعج ، باسمها ، يذهب مهدورا، لم يكن يصدق انها لا تسمعه بالفعل وهو يناديها، عندما يأوى الى سجن ليلته ، يناديها كما ينادى الحرية . لم يكن يصدق انها لا تعرف ، وربما لا تهتم ، وربما تجد الامر كله مسليا قليلا ، ومضحكا قليلا ، ويشى بضعف وحساسية بأسوأ المعانى . لم يكن يصدق ان حياتها تختط مساراتها المتعددة الجياشة بتطلبات أخرى ، وأشواق أخرى ، وتحققات أخرى . لكنه كان يعرف ان اسمها على شفتيه ، أول كلمة من كلمات النهار ، فى رحلته الحميمة ، ليس الا شأنه الخاص ، هو . لم يكن يصدق انه ليس هناك ، ولا يمكن أن يكون ، رد .

قالت له : تمزقني الرغبات المتناقضة فى أن أكون قريبة منك ، وأن أفر منك . أريد أن أهرب بعيدا ، الى جزيرة منسية فى ركن المحيط ، الى بلد غريبة . استيقظ في الصبح ، لأتنفس بعمق ، وراحة ، ومن غير ضغط ، وأقول لنفسى : بعد الظهر انط الحبل ! وأنا أعرف انه يمكننى بالفعل ، بعد الظهر ، أن أجرى ، وألعب ، وانط الحبل .

ولم تكن تبتسم ، لم يكن فى صوتها الا نبرة توق محرق .

وابتسمت بعد ذلك ، وقالت: ولكننى وجدت ان كل الجزر فى المحيط قد اشتراها المليونيرات الامريكان ! ..

كان قد قال لها : انت قد عذبتني

فقالت : لو كان لك فى هذا عزاء ، فلم أكن أقل منك عذابا ..

فالح عليه ، فى دخيلته ، سؤال لم يقله أبدا . لم يكن يحب أن يقول لها أسئلة لا قيمة لها ثم يسمع نظم الاجوبة المتقنة المحكمة التي لا يريدها على أى حال .

ـ لماذا كنت تتعذبين يا حبيبتى ؟ أكان ثم صلة وتجاوب بين هذا الذى يعذبنى ويمزقنى ، وبين عذابك ؟ أم انك ، حتى هناك ، بعيدة لا شأن لك بى ، تدور آلامك فى خيوط أخرى ، تجدلها أيد أخرى ؟

خيل اليه انه يعرف كم عذابها حقيقي، ومر، ووحيد . وانه لا يستطيع أن يصل اليه ، بل هي لا تتيح له ، لا تريد أن تبيحه ذاتهـا الداخلية المكنونة ، بل تقف دونه في ضراوة تخفيها ، تذوده عن الاقتراب من جرح وقهر أولى قـديم متجدد أبدا . لانها لا تريده أن يبرأ ، لا تصدق في صميمها انه سيبرأ ، بل تجد في الجرح متعة متوحشة .

ما جدوى أن يتفطر المرء بالألم بينـمـا هـو لا يحمل العزاء .

قال لها : لا تفرى منى بعد الآن .

قالت : نعم

وأمسك بيدها. كانت أنوار الكوبرى القديم تومض وتخبو ، تنزلق على جسد الليـل دون أن تطعنه ، وضغطت على يده ترد عليه، ولكنها كانت غائبة ، منذ الآن دخلت الى مأوى خاص ، منذ الآن عادت الى ما وراء أسـوارها . وهي تبتسم له إبتسامة مؤسية ، لم تكن معه . ولم يرها بعد ذلك أياما بطول الابد . نغمة الفقـدان أصبحت الآن ترددا يئد الآمال الهوجاء كل يوم ، ويغيبها قبورا متعاقبة تعـاقب اللحظات التي لا تصل الى نهـاية ، لكنه تردد ، على تكرره ، لا يفقـد حدة وقع الصدمة التي تسقط باصرار ، مرة بعد مرة بعد مرة ، بلا نهاية .

قال لها : هذا الخيال ، هذا الوهم : الفرار، الحرية ..

وقال دون أن يتـكلم : يا حبيبتي ، نحطم بأيدينا كل بنـايات عمرنا ، هذه الجدران التي أقمناهـا ، كل منـا وحده ، طول السـنين ، بتضحيات لا يعرف أحد ثمنها . هـذه السجون التي نرتطم بأبوابها الموصدة ، كل يوم . حبنا نافذة في الشمس ، قطعة ممزقة من سماء الليل الفسيحة .. العـلاقات التي تبتر ، نظم الحياة التي تتقوض وتنهار .. متاع خفيف وجوهري،من الحب والكتب .. قطع أخرى أيضا من القلوب تمـزق وتترك وراءنا .. موسـيقى التوقـع والتشوف .. خطو المغامرة الى باب الطائرة التي تقلع بنا .. أيمكن أن يصل بي الوهم الى هذا البيت الحجرى بين حقـول الزيتون ، قريبا من الثلج والأرز القديم ، والطريق الضيقة التي تتلوى تحت سيارة نصف جديدة نشتريها بالتقسيط ؟ وأحجار الصخر المخضلة بالبلل ، وهوة الوديان المزدحمة بزرقة أشجار سامقة وسفلية ؟ وانطلاق الوحوش البريئة النقية الجسد التي ظلت محبوسة طول العمر ، والفرح الشرس الذى ينوء بالجسم المكدود من طول العمـل في بناء صروح الحرية

وخلق المسـتحيل .. بضربة واحدة ..... يمحى الزيف وتتـكسر نبرات الصوت المكتوم يصـطدم بزحام الأنوار والاصوات الاخرى التي تعلو وتنخفض ، وتعرف دفء الحوار . أنا وانت وقد أصبحنا نحن .. وتغير الضمير ، وتطهر ، مهما كان جريحا وملوثا يقطر بالدم .. يدى التي ولغت في جريمة الصمت ــ شلت يدى ، البقع التي عليهـا لها لون دمائي انا ، ودماء اخوتي أيضـا ، يدى التي لم ترتفع ، وظلت صامتة ، تتلوى نعم ولـكن خرساء ــ يدى تنطق الآن . كفاني اثما ، قد خمت نفسي بريح العفن ، ونتن الجيفة المدفونة داخلي . انت الآن ، بشكل معجز وغريب ومقلوب ، قد طهرتني ، حررتني ، أطلقت على الاقل بعض الوحوش العارمة الصافية العينين من حبس طال عشرين عاما ، لو لم تطلقيها لظلت تتقلب وراء قضبان من لحمى الحي ، تنهشه ... وأراك ، بجـانبي ، لأول مرة تتكشفين الآفاق الفسيحة في داخـل عالمك ، وتخرجين من تلك المنطقة الموحشة الغـائمة بنصف الظلمة ونصف النور .. تحيين حياتك كما تريدين لا لمجرد الحس بالواجب .. بل يصبح الواجب حرية .. ولكـ ولـ ــ الحق المطلق في الجنون ، وفي الهجوم على الحياة ..

حرة ، أي ايزيس ، تحت عين ابيـك المتقدة «رع» في سطوع النهار أو تحت نيران النجوم على السواء .

كان قد قال لها : هذا الخيال ، هذا الوهم: الفرار ، الحرية ..

كانت قد قالت له ، ليلتها : لا نؤذى الآخرين، لا نؤذى أحدا ..

فلم يقل لها : مجرد فعل الحياة ينطوى على الجريمة والايـذاء .. اما الآخرين ، واما نحن ، أو هم جميعا ، نحن وهم معا .. كل خطوة على الارض ، كل نفس في الصدر ، حتم أن يكون فيه قتـل وتدمير .. وقد اخترنا أن نقتل أنفسنا ، ألم نختر ؟ احق اننا قمنا ، بالفعل ، بهذا الاختيار المروع الذى لا ارتداد عنه .

وكانت قد قالت له : أيمكن البنـاء دون أن نهدم ؟

فلم يقل شـيئا . قوة الاشياء ـ وحدها ـ مفحمة .

عندما كان في أسوان كتب اليها بطاقة بريد: دائما أتذكرك ، وأفتقدك ،

وعندما سألها : هل تلقيت رسالتي؟ تدفقت

الدماء فاختلطت بسمرة وجنتها الناعمة ، وقالت: نعم ٠

قالت له : انت تعرف انني أكثر النـاس تعذيبا للنفس ٠ وقـد فكرت طويلا ٠ لم أجد الا ان شيئا ما قد صدمنا ٠ أيمكن أن يصدمك شيء فجـأة ، على غير انتظار ، ثم تهتف ، بعد وقوع الواقعـة ، حاسب ٠٠ لمـاذا ؟ كيف لم تتخذ حيطتك ؟

كان قد ابرق اليهـا ، من الجنـوب الحار المزدحم بسوقية البذخ البالي القديم ، يطلب منها أن تنتظره في المحطة ٠ وفـكر كيف يوقـع على البرقية ، وقضى الساعات الطوال يصوغ العبارات ويختـار التوقيعات ، ويبني ويهدم ، في عرى غرفته المقفلة في الفندق ٠

ورتب كل شيء ، وأعد لكل شيء عـدته ٠ يصل يومين أو ثلاثة قبل ميعاده ، لا ينتظره أحد الاها ، لا يعرف أحد بوصوله ٠

ويعـودان الى الارض الغريبة المسحورة التي عرفت خطواتها ٠ ايزيس وقد آبت من المنفى ٠

وكانت على رصيف السكة الحـديد ، وقد لمحهـا من القطار وهو يدخل المحطة متمهلا ، مستنفدا ، فجن جنون قلبه فرحا وشوقا ولهفـة ٠ واحتـواها بين ذراعيه ، في زحمة الناس ، غير عابيء بشيء ٠ وتلمست شـفتاه خدها الوثير ، وغمرت وجهـه مرة أخرى رائحة انوثتها العبقة الخصـيبة ممتزجة بعطرها الذي يذكره دائمـا بليالي ليست من هـذا العالم ٠ يدها في يده ، وهما في السـيارة ، وحدهما ، وعلى أرضها ٠ ميناهاوس ؟٠٠ شبرد ؟ ٠٠ سميراميس ؟ لا ٠٠ بل ابورج الفيـوم ٠٠ والطريق الصحراوي في الظهر ، حارا ومتوهجا ومليئا بوعود غامضة ٠

في الفندق نحرص ، أمام الموظفين والخـدم أن نخافت بسعادتنا ، أن نحتاط على حبنا الذي نهرب به منهم ، منهم جميعا ٠ وكنت قد اشتريت لك خاتما ذهبيا عندما أدخلته أصبعك ، برفق ، على غير انتظار ، في السيارة ، لم تنطقي بكلمة ، من الدهشة ٠ على غير عادتك ٠٠ والغرفة العلوية الفسيحة ، بعد السلم الخشبي العريض الداكن المعتم قليلا ، ومرة أخرى ، مرة أخرى ، تقذف بنا مياه الشـوق والوجد المتلاطمة الهـوجاء الى أحدنا الآخر ، بمجرد أن يرد علينا الباب ، انت الآن بين ذراعي والسدود التي تضغط على ينابيع حياتي تسقط في نعومة جسدك وتتهاوى دون أن يكون لها وقع ولا صدمة ٠ انت معي ٠٠ انت لي ٠٠ وأسـتطيع الآن أن أملأ قلبي بعينيك الواسعتين الصـافيتين اللتين لم أعرف أجمـل منهما ، أستطيع أخيرا أن أحس دفئك يذيب الجمد حول نفسي وان أذوق طعم شفتيك الحار اللدن ، رامة ، رامة ٠٠٠ حبيبتي الرائعة الغريبـة ٠٠ أستطيع أخيرا أن أسألك هل تحبينني ٠٠ وتقولين لي نعم ، نعم ٠٠ ولا أكاد أصدق حس يدي ووجهي وشفتي بك ٠٠ لا أكاد أصدق ان هذا الحب ، هذه البهجة ، موجودة ٠٠ وانها حقيقة ٠ وان العالم قد أصبح توافقا ، وطواعية ، وصلحا ٠٠ ان الحرية والمعنى قد أصبحت حقائق حسـية محددة بين ذراعي ، بازاء جسمي ، أضمها الى ، وتحتويني ٠٠

وتفتح الحقائب في لهفة ، وتطير الثيـاب ، وتهتفين امام الهدايا وأنا أبتسم صامتا ، ولاول مرة نذهب الى الشرفه فنفتحها على هواء البحيرة الملحي ومائها الساكن بفضته المتموجة التي تلمع مثل رقائق الصلب الدائنه ٠٠ والرائحه الحريفه يهب بهـا هواء الظهر الساخن ، وصرخة نورس وحيـدة في قلب الفراغ ، حادة وعـذبة تجرح سكين في جسد طري ، وهي تنقض من عـل ، وترتفع ٠ ونحن نضحك ، لا لسبب ، لمجرد اننا معا ، واننا عاشقان ٠٠

وجهك المشبوب بوهج الحب تحت شفتي ، وذراعي تحيط بظهرك الشامخ الناعم الالتفاف المستقر الى في راحة وآمن ، وانت تهمسين لي مرة أخرى ، كما همست لي ليلتها : ضع يدك على صدري ٠٠٠

صدرك الصـافي ، العذري ، باستدارته التي تفوق عذوبتها كل نشوة ، دافئا وخمريا ناعما ، وأنفاسك المتلاحقة الحارة لها طعم الرحيق الحلو ، وهذا الثمل الخفيف الذي تفقد فيه كل الأشياء ثقلها يقودنا مرة أخرى الى أولى خطواتنا نحـو سماوات رقراقة تضيئها شمس عينيك ، ثم ننقض كالجوارح الى الأغوار المبتلة بندى الحب ، تنبت فيها أزهار ضارية ، في وحشية أدغال تفـور بكثافة الخصب والايناع الشرس ٠

والسلام الذي تعقد فيه النفس صلحا راضيا تقبل فيه وحشة الحياة ، بل تنساها ، وتنفيها ٠

ونزلنا نتغدى ، ونمنا بعد الظهر ، جنبا الى جنب ، ولم نكف عن الكلام والضحك ، وكانت عيناك دائما باسمتين ، عاشقتين ، ليست فيهما يقظة ولا ترقب ، وليس وراءها هذا الذكاء المتوفز السريع الحركة ، بل الأمن ، وابتسامة ٠

وسرنا بجانب الحقول ، وكان نسيم بعد الظهر فيه نفحة برد ، ونزلنا الى برك الملح الصغيرة على شط البحيرة الرملي اللين ، وجمعنا حفنات هشة من المسحوق الرمادي الأبيض الذى ذاب فى أيدينا ، ومررنا بأصابعنا على شفتى أحدنا الآخر فذقنا طعمه اللاذع وضحكنا • وأنا أنظر الى شفتيك السمراوين وقد استيقظت رغبتى فيهما، بتوق وتطلب ورضى ••

لا •• لم يحدث شيء من ذلك كله ••

لم يقل لها : تخاييل حبى غذاء مر ، لا أقبل عنه عوضا ، والخبز الذى به أعيش ، والدم النبيذ الذى لا رى لعطشى فيه ولا انى أعب من خمرته المدمرة ••

لم يقل لها : توشك الحيـاة كلها ، بعد أن عدنا ، تصبح شاحبة ، شفافة ، كالخيال ••

كان المغيب قد هبط فجاة على جزيرة الشاى، وكان الحديث قد سقط فى احدى الفجوات التى تجىء بينهما من آن لآخر وأشـعل ميخـائيل سيجارتين• وعندما انطبقت شفتاها على سيجارته، فى موضع شـفتيه ، وبهـا بلل خفيف لا يكاد يلحظ ، أحس بين شفتيه هو بما يشبه نفح قبلة لا جسد لها ، عابرة ، متوهمة ، ولا ثقل فيها •

وناداها ، من غير صوت ، وهى أمامه ، تنظر الى الأشجار على الشط الآخر :

ــ رامة •• رامة •• أريد أن أعرف •• أين الحقيقة ؟ ما الحقيقة ؟

كان البط البيكينى الصغير فى المياه القاتمة قد كف عن الصياح، والأشجار الكثيفة على شاطىء البركة الآخر تبدو مهددة ، وداكنة ، كأنها تنوء تحت وطأة رقية غامضة •

أحنى رأسه • سقطت قطرة ماء ملح فى البركة الراكدة ، وجاءت البجعة السوداء الملفوفة الجناحين، تلعاء العنق ، تنساب دون صوت على الماء • كانت أنوار الكازينو قـد انبثقت ، زرقاء ومكتومه ، والناس قد ذهبـوا ، والجرسونات جلسـوا فى المطبخ ، يتحدثون بصوت خفيض ، كأنما كانوا خائفين •

وقفت البجعة تحت السور الحديدى الرقيق العظم ، أمام مائدتهما • ساكنة ، تنظر بعينين زجاجيتين ، خضرتهمـا حالكة ، وفى جسـمها المستدير نعومة متحدية مستقرة لاتنال •

وهب ميخائيل فجاة ، قائما ، وثب وثبة خفيفة الى البركه ، وغاصت قـدماه فى الطين الرخو ، بصمت، وارتفعت المياه دون أنيتطاير لها رشاش الى ركبتيه • كانت يده قد قبضت على البجعة ، والتفت أصابعه على العنق الطويل ، وهو يضغط على العظم المدور المضلع النحيل ، والريش الاسود الحريرى يكاد يغطى يديه ، ويثيره •

لم يند عن البجعة صوت ، لم تزعق زعقتها الأخيرة ، لم ينفتح منقارها الحاد الممدود ، لم يرتفع جناحاها يصطفقان ، ويرفرفان فى طلب الحياة وفى سكرة الاحتضار ، ظل العنق السامق ، فى العتمة الخفيفـة ، قويا متماسكا ، صـلبا ، فى قبضته المهتصرة • وغاص ميخائيل فى المياه ، ودار ذراعه حول جسمها يطويها اليه ، يحتضنها الى صدره ، وقد أوشكت المياه الآسنة أن تغمر وجهه ، وذاق طعمها الطينى فيه حلاوة عطنة خفيفة ، وهى مازالت شامخة ، مرتفعة ، ناعمـة الاستدارة ، طافية على وجه الغمر ، لا تعلق بها الميـاه •

وغارت الأرض الطينية تحت قدميه ، وانزلقت رجلاه تحت الماء فى وحل لين مرحب طرى الملمس يجذبه اليه بتوق لا يرد • وقلبه يصرخ صرخـة راحة بازاء جسد البجعة المنساب الذى يكاد يفلت من حضـنه ، وهو يعتصر بين ذراعيه الجنـاحين المنطبقين ، فى هدوء ، على الجسم المدور البارد •

الطين ينفتح فجأة ، ويثوخ ، ويغور فى عمق ساكن مظلم ، وهو ينقلب مع البجعة الصامتة التى تميل على جنبها ، بين ذراعيه المتقبضتين •

وتنداح موجة واحدة واسعة الدوائر ، على سطح المياه التى ينعكس عليها آخر احمرار قطعة ممزقة من السحاب فى سماء المغيب •

هذا كله قد حدث بالفعل •

كنا ثلاثة

بقلم : حسين ذو الفقار صبرى

وأخيرا .. أخيرا وقد أعلنا طول انتظار اجتماعنا ، وفى مكتب عبد المجيد كما جرت العادة ، ولكن الجو غير الجو ...

دخل الينا رفاعى ، متأخرا كما هى العادة أيضا ، ولدن زهاء ست ساعات أو يزيد ...

كتلة من نشاط ! لا يهدأ ! لا يعرف الكلل اليه طريقا ! ألف شغلة وشغلة ، ولكنه حريص أبدا أن ينهى أعماله معنا قبل الظهر ، فيفرغ لهامه الأخرى ... كأنه يضرب الأرض فيخلقها خلقا ، متزايدة ، متشعبة ، متكاثفة ، عليه وحده عبء معالجتها ، تلهبه حماسا ، يكاد أن ينتفش مزهوا ... فهى التحديات التى تتأكد من خلالها سعة حيلته وألمعيته النافذة ، انها الوقود يستحطبه غذاء لشعلة النشاط التى تتأجج أبدا فى صدره ، والا أكلته أكلا !

وربما أن كان هذا سر اعجابى به ، ليس مجرد اعجاب ، بل ايمان شبه مطلق بشخصه ، بذكائه الخارق ، بحيويته تنفث فينا دينامية نشاط ، جميع هذا فى اطار من تفان ، خدمة للمصلحة العامة ... حسبه أن ينجز ! لايريد جزاء ولا شكورا ... ثم دماثة خلق ، رغم سلطاته الواسعة ، يأسرنا بتفتحه للمناقشات مهما طالت ، لا يتشبث برأى ، ساعيا أبدا الى استقصاء لب المشكلة ، الى الموازنة بين مختلف الحلول المطروحة ، ثم على استعداد لأن يتحول آخر الأمر الى ما نراه صوابا ، اذا ما لمس بينى وبين عبد المجيد ، فهو ثالثنا ، توافقا فى وجهات النظر .

ولكن العجيب أن اجتماع اليوم تأجل مرة بعد أخرى ، ثم لا حس ولا خبر ! وهاذى قد قاربت الرابعة ... هل يأتينا اخطار بتأجيل جديد ؟ كلا ! بل بالارجاء الى يوم آخر دون شك ! فما اضطررنا من قبل الى الاجتماع فى مثل هذه الساعة المتأخرة ...

وفجأة يدخل الينا !

ولكن هنـاك من يتبعه ··· غرباوى ! متسحبا كأنما على قشر بيض ··· ولكن هيهات! فما أشبهه بالدب المروض ، يتمايل من ثقل خطواته تلك التى يحاول أن يختلس ··· طويل ضخم بدين ، عريض المنكبين ، مترهل الجسد كأنه مصارع قديم ، منتفخ القسمات··· طمست على محجريه فلا تكاد تميز ذلك البريق ، يخطف بخبث وشراسة من خلال فتحتين ضيقتين كأنما شرطتا بمبضع حاد ··· أهو أصلا « فتوة صالات » !

ما ارتحت له على الاطـلاق ! أتعجب كيف « اتلم » عليه رفاعى ، بل أى مصيبه رمته به ! مخاتل مخادع وصولى ، (يبيع أمه) ولكنه يتميز عنا بقدرة على الاضطلاع بتلك المهام القذرة — يعلم رفاعى أنى وعبد المجيد نترفع عنها تقززا — ولكن لا معدى عنها فى بعض الاحيان ، وصـولا الى الهدف السامى الذى نتطلع اليه جميعا ·

ايه ··· هكذا حال الدنيا ! وان ظروفنـا — صعبة ، عسيرة — كانت تقتضينا أحيانا الاغضاء عن بعض وسائل اذ تبررها الغاية ·

ولكن ما من مرة تقع عينى على هذا «الخرتيت» الا وينتابنى قلق مبهم غامض ··· نذيرا بأن سـوف تصيبنى من تحت رأسه كارهة او ان تحيق بصديق حبيب جائحة !

واذ أحاول اليوم أن أنظر الى الوراء ، فانى لأعجب كيف فاتنى ان أتنبه ··· كيف غفلت عن خفى تلك المشاعر الغامضه ··· عن تلك الحقيقه المروعة ، غابت عن ادراكى تماما ··· تعاميت عنها دون أن أدرى ··· ولم يا ترى ؟ هل أقول خشية فجيعة ؟ فكان كانت صـورته تشير بطرف الى نوازع خفية ·· مريبة ·· مخزية ربما ·· رابضة فى دخيله رفاعى نفسه ، ذاك الذى كان يستأثر لبى باعجاب مأبعده اعجاب ! فأنا رهن اشارته حينذاك ، ألازمه كظله خـلال اتصالاته المتتابعة ، هدفها جمع كلمة عدة من طوائف متنافرة ، فنقف على أرض صـلبة من وحـدة رأى ، علاجا للمشكلة التى كنـا كلفنا بهـا ·

سمعته بأذنى « يعمل من البحر طحينة » ، يتلاعب بالألفاظ والمعـانى ، « شغل حواة » ، فيخيل لمن حـوله أن قد بزغت الشمس بينا الليلة ليـلاء ، بل انى لأجـزم ، وأنا العـليم بما يسـعى اليه ، أن قد رأيت مع السامعين — متحلقين من حوله وكأن على رءوسهم الطير — الشـمس تشرق من الغـرب ، متحـدية كل النواميس ! فقد كانت كلماته تنساب على أجنحة من منطق ، استحضر له قواعد من حيث لا أدرى، فتلغى قوى الادراك الغاء ، بينا الحواس معلقة بطرف لسانه الذرب ، يمد بحبائله الى آذان قد اختلبت ··· فلا حقيقة سوى ذاك الذى تنبض به أسماعنا ·

دخل الينا رفاعى ، وغرباوى ذاك اللعين من خلفه ···

فاذا ما جلسـنا الى المنضدة الصغيرة ، كما اعتدنا أن نفعل ، رأيته — غرباوى — قد سحب هو الآخر كرسيا فيجلس ··· أرابعنا اذن قد أصبح ! ليس تماما ··· بل الى الخلف قليلا من رفاعى ··· « وهل تعلو العين على الحاجب !» ·

رفاعى يصغرنا بسنوات ، ولكنه رئيسـنا ، وسلطاته بالقياس لا تكاد تحدها حدود ، ولكنه جد حريص ، منذ ان انتظمتنا المهمة التى نحن بصددها ، على أن يضفى على مجموعتنا الثلاثية روحا من ألفة وزمالة ، خالية من مظاهر تكلف ، أما الآن فان غرباوى بجلسته هذه ، منسحبا الى الخلف قليلا ، أشاع فينا نفثة من حرج فكأنى وعبد المجيد كنا أبدا متطاولين عبر حدود !

ألم أقل لكم أن كان الجو غير الجو !

ثم أن « يمطوح » بنا ساعات تلو أخرى !

لا شك أن قد حاصرت رفاعى مشاغل عديدة، فتطغى على ما نحن بصدده ، ولكن الذى لا أفهمه هو اصراره ذاك العجيب على أن نجتمع اليوم !

فالأمر اذن جد خطير ··· لا يحتمل الارجاء يوما ! ولكنه من جهة أخرى ليس ملحا ، بدليل أن احتمل التأجيل ساعات ·

وتتقبض أحشائى من جوع فتخزنى بآلام ، وأشعل سيجارة ، ربما هى « الكذا » بعـد الاربعين ، فأكاد أن أتقيأ ···

وماذا عن عبد المجيد اذن ! تساؤل كم جاهدت فأذبه بعيدا ، ولكنه يعود ملحاحا ، متراقصـا أمام عين الخيال ··· يغويها !

ولم يا ترى ؟ فان الأمر لا يكاد يعنينى فى شىء !

فليس بينى وبين عبد المجيد الا تلك العلائق طرأت حين جمع بيننا رفاعى ، لا تكاد تربطنى به معرفة سابقة !

هو أكبرنا سنا ، ضابط قديم ، وسيم أنيق، شديد الاعتداد بنفسه ، رصين حصيف ذو منطق ركين ··· كم من مرة ردنا الى جادة تقدير بفضل ما هيأت له خبرته الواسعة من الالمام بدقائق من تفاصيل ، كنا بها جاهلين أو عن حقيقة مدلولاتها ساهين ، يسـوقها فى تسلسـل مستحصف الأسباب ، فليس أمامنا الا التسليم ·

الا أن رفاعي ، كان له من مكانته رفيعة الشأن ، مولا وملاذا ، هو وحده ، قادر اذا ما أراد ، بحلم اتساع رقعة اهتماماته ومسئولياته ، ان يتجاوز اقتراحات عبد المجيد، ان يوحى بأنها ، وان بدت متماسكه مستوثقة الاركان ، قد اغفلت اعتبارات تمت الى ميادين لها تأثيرها على المدى الطويل .

أما أنا فضائع بين الاثنين !

اذا ما تجاسرت برأى ، هدمنى أحيانا منطق عبد المجيد ، فانطفى بغيظ ، أو أن تلوح على شفاه رفاعي بوادر ابتسامه ، لست ادرى امشفقا أم مستخفا ، فيتعثر لسانى ولما أكملت ما أريد أن أقول ...

بضاعتي جد متواضعة ... مجرد صلات توفرت مع نفر ممن نتعامل معهم ، يولونى بعض ثقه ولا يزيد ! فانا الذى يكلفنى رفاعي بلام الحال — واعجب من كثرة ما أحوجنا الى ذلك — اذا ما دبت على المستويات الفردية شكوك أو اهتزت ثقة البعض من ريبة أو تخوف .

على الهامش يعنى ... بصريح العبارة ، ولكنى ثالثهم على كل حال !

تقبضت أحشائى اذ تقطعها المغص من جوع ، فأشعر بانهفات ويراودنى غثيان ...

فماذا اذن عن عبد المجيد ؟

قسماته الرزينه شاحبه باهتة ، بل يشوبها اكباء ... والمح أنامله تغافلنا فتتسرى الى شفتيه ... لا شك أنها حبة دواء ! واشعر بأمعائى كأنما تهتصر ، ولكن لست أدرى ، هذه المرة ، أمن جوع ...

قبل أيام ذهلت اذ علمت أنه يعانى من داء القلب ، خلل ورائى مكين ودى بحياة أشقائه من ذكور ، واحدا تلو آخر ، منذ سنوات ... خبر سارع به الى رفاعي وقد جئته ببعض أوراق، ينهض اذ يلمحنى فينتحى بى ركنا قصيا من القاعة الفسيحة حيث مكتبه ، فانها كما هى العادة غاصة بالزوار والموظفين جلوسا على حواف المقاعد ، معلقة أبصارهم فهم رهن اشارة ، أو محومين من حوله يهمهمون ، ثم شخوص أحنتها أثقال من أوراق وملفات ، لم يئن بعد أن يؤذن لها فتعرض ...

«تصور يا اسمعيل .. علمت بالصدفة ..» متقطع الأنفاس من أسى ، تعقيبا على الخبر وقد أسر الى به همسا ... « مسكين والله ... لا أكاد أصدق ! أكان يخطر لك على بال ! لا ... لا ... أمعقول هذا ! ولكن أرجوك .. لا تذكر له شيئا أرجوك ... أستحلفك بالله ... كأنك ولا سمعت .. » فى لهجة ضارعة ، صادرة من القلب ... « فهو جد حريص ألا يعلم بحاله أحد ... ولكن أن يتكتمه علينا ! أما كان أجدر أن يبوح لنا بحقيقة أمره فلا نثقل عليه ! على العموم ... واجبنا أن نحترم سره ، وأن نراعيه دون أن نشعره بذلك ... »

أومضة هى من فرحة آثمة تلك برقت بها عينى ؟ أم شعور مبهم بارتياح اذ اكتشف فى غيرى — كدت أقول ... غريمى الذى يسد على المنافذ — نقيصة ، وأى نقيصة ! أنا منها خالص ! ان هى الا فترة ، طالت أم قصرت ، فتصبح كفتى الى رجحان ... ثم رد الفعل ! فأنوء بوطأة من مشاعر —حملت بأسى واشفاق— ظافرة كأنها السيل ، يغذيها مد طاغ من ضمير وخز فجاة الى حياة ، فيدعنى بتبكيت ، وتتخاذل أوصالى وقد أخزيت ، بينى وبين نفسى، بخزى وشنار ...

وأشيح بوجهى خشية أن يتهاوى لتوه أمام ناظرى ، فأمضى العمر كله مثقلا بوزر اللحظة .. كأن قد نفرت عينى دون قصد بشارة غدر ، هى التى رقمته فى الصميم !

وأرى رفاعي قد مال بجذعه الى أمام ، وقد انقلبت سمرة وجهه من سماحة محيا الى دكانة قصد ، حواسه ، نبضات فكره ، كيانه كله متألب من حول شخص عبد المجيد ، يحاول أن يتحوطه ، أن يحتويه ، أن يتمثله ...

واذا بأحداث ظننتها متطوحة منسية ، بل حشد حاشد من تفاصيل عديدة متناثرة ، ماخلت أن قد أوليناها قط أدنى اهتمام خلال السنوات الثلاث التى مرت بنا ، تطفو متتابعة متلاحقة ، كأنما لسان رفاعي الذرب قد تحول الى رشاء لاقط مساح ، ما تفوته شاردة الا وتصيدها من أغوار طوية ملتوية المشاعب ، فيفتلها فى تسلسل أحكمت مرائره من حول منطق عجيب .

ويصيبنى ذهول ... فهى الشواهد الدامغة بأن جميع الآراء التى نطق بها عبد المجيد ... جميع الاقتراحات التى سبق وقدمها ... جميع التصرفات التى كان أقدم عليها ... جميع ماكان قد أقنعنا به فنتبناه دون معارضة أو يكاد ، أو نكون قد تلقفناه حامدين..انما مزالق ساقتنا اليها سفاهة رأى أو سطحية تفكير ، بل وتبث التلميحات بأن كان يحدوها اما تيه وعجب فمصلحة ذاتية ، واما — فهو أدهى — قصد خبيث !

جلست مشدوها ، فاذا ما اختلست النظر الى عبد المجيد ، رأيته شاحب اللون ، ساكنا ، فكأنه تمثال من شمع ، الا من اختلاجات حول أطراف الأنف اذ تتتابع أنفاسه قصيرة مضطربة .

« وأظنك فاكر الشيخ فضل ! هل كان يحق لك يا عبد المجيد ، أن تفعل به ما فعلت ... فقدنا الرجل ! وأنت أعلم بما له من نفوذ ! ولمصلحة من ! من الذى استفاد ؟ كأنك رميت به الى الجانب الآخر ! هل يمكنك أن تفسر لنا قصدك ! » .

ودار بعينين خابيتين ، فهو المفدوح ... خدع بأن وضع ثقته حيث لا محل لثقة ! ويحتوينى بنظرة ذات معنى ، كأن عبد المجيد يدين لى أنا أيضا بحق تفسير .

وتفجر الغضب فى مكامن نفسى ، فما كان يحق له أن يعتبرنى ... بل أن يوحى حتى — مجرد ايحاء — بأنى معه متضامن ! فانه يعلم يقينا ... سمعته يقولها « بعضمة لسانه » أن الشيخ فضل هذا الذى يتحسر الآن على انقلابه علينا ... مولولا بأن تسبب عبد المجيد فى فقدان تأييده لنا ... انما أسوأ خلق الله أجمعين !

ليس الغضب وحده ! بل استشاطة غيظ اذ أصدم صدمة العمر فى هذا الذى اعتبرته مثلى الأعلى ، هذا الذى تفانيت فى خدمته ، هذا الذى لو كان قال لى « ارم نفسك فى البحر » لفعلت دون وعى أو تردد ! هذا الذى ما وجدت فيه قط مأخذا ، الا أن يمضنى أحيانا اذ يتجاوز عن اقتراحات كم أكون عانيت فى اعدادها ، ترجيحا أو انحيازا لرأى يبديه عبد المجيد .

وهاك به ينقلب عليه فجأة .. تحدوه ضراوة لا تكاد تحدها حدود ! ولم ؟ أمن ستر قد انهتك ؟ وأى سر خطير ذاك قد انكشف !

اه .. من تلك الاطراقة الخادعة حين أفضيت الى همسا بسر عبد المجيد ! آه ... من قناع الضراعة اذ توسلت الى أن أتكتم الخبر ! آه ... من خبث الطوية اذ تعاهدنى أن نراعيه فلا نثقل عليه !

كأنما الصل ينساب بريئا ناعم الملمس ، ترقبا للفرصة أن تواتيه ...

« لا ... لا ! يا رفاعى ! كله الا الشيخ فضل ! » لم أدر الا وصوتى قد دوى .. « أنت نفسك كنت من رأينا ! » .

بهت ... أخذ على غرة ... اختلت حساباته ! فما تصور قط أن سوف يرتفع صوتى دفاعا عن عبد المجيد .

ثم لحظة صمت كأنها الدهر ، حطت علينا متكاثفة فيتجمد الزمان ... أصبحنا مجرد شخوص خاوية تسمرت حيث هى ، ما عاد يرجى منها نفع أو ضر ... وأرى فيما يرى الرائى عبد المجيد يغادر مقعده ، كيانا طيفيا سابحا من حولنا ... الى حيث مكتبه ... يجلس اليه

... ثم خشخشة خافتة ... أصوت أوراق ؟

« عبد المجيد ... » نداء هامس ، تخللته رعشة ... أمن حيرة أم أنها نبرة توسل ؟

ويرفع عبد المجيد عينيه بتؤدى نحو رفاعى ، نظرة طويلة جامدة ، ولكنه جمود مخيف ، أما وجهه فشاحب كأن قسماته سويت من شمع ، لا أثر فيها لنبض حياة ، وأخيرا أرى شفاهه قد تحركت ...

« استقالتى سوف تكون على مكتبك خلال لحظات » .

ويقفز رفاعى كالملدوغ ... « الله ! عبدالمجيد! أنت زعلت ؟ » يجرى نحوه ، فيجد أن عبد المجيد قد انتصب ... تلقائيا ربما ، كما تعود أن يفعل اذ يأتيه زائر ، فينتهز رفاعى الفرصة ويحتضنه بانفعال ...

« الله ... ماذا عبد المجيد ! وهل يسعنى أن أستغنى عنك ؟ هات راسك أبوسها ! ياشيخ... اوعى تكون زعلت ! »

وتضطرب شفاه عبد المجيد باختلاجة خفيفة، ولكن وجهه الشاحب مايزال جامدا ، وعيناه زائغتان فى غيهم سحيق .

« يا عبد المجيد ... فضلك علينا ! مجرد ملحوظات عابرة ... لعنة الله على أن فتحت فمى ! استقالة ! وماذا نفعل من غيرك ... »

« ولا ايه يا اسمعيل ؟ » ، ملتفتا الى ، مستنجدا بى ...

« معلهش يا رفاعى .. » تقدمت فأجذبه من ذراعه بحزم ، « ليس وقته ! هلا تركنا الموضوع الى الغد ... » .

وقدته ، وقد استسلم كالطفل ، حتى خارج المكتب ، وغرباوى من خلفنا ، متبلد الوجه ، كالعجل فك عقاله فجأة من ساقية دوارة ، فتختلط عليه الاتجاهات ، متلفتا لا يدرى الى أين ... ليدب من بعد فى خطوات ثقيلة ، منقادا الى حيث رأى سيده قد تحرك .

« ماذا يا رفاعى ؟ » همسا فى الردهة الموصلة الى مكتبه ، « ألم تقل لى أنه يشكو من قلبه ؟ » .

« الله ! » مذهول كأن كان سهى عليه ، ولكن « صواميل » فكره تدور بسرعة مليون ميل فى الثانية ، محاولا أن يتذكر متى وكيف وأين قد أفضى الى بالخبر ...

هى نقطة ضعفه الفاضحة ، همه أبدا ، اذا ما أزمع ، الوصول الى هدفه فور اللحظة ، فكم من مرة انجرف به لسانه فيدش الكلام دشا — أى كلام ! — ويفجأ اذ يكتشف من بعد أن قد ناقض ما كان قال فى مناسبة سابقة ، أو أن يقع فى مأزق اذا ما تنوقلت بين أطراف ظن أن ليس بينها اتصال ، ما قد يكون أسر لكل على

حدة اغتيابا ... كلام يدشه بينا كيانه مشدود في تركيز أيما تركيز ، فلا يكاد يذكر ، اذ تفوت اللحظة ، ما كان قد فتل بلسان ..

ولكن أكان غاب عن ذهنه فعلا أن قد أفضى الى بسر عبد المجيد ؟ أم تراه لم يتصور فعلا — فهو خبير بأدواء النفوس ، نهاشة كوحوش الفلاة في تنازعها على السلطة أو المناصب — أن سوف تعنيني فتيلا سلامة عبد المجيد !

« أما وقعة ! والله ما أخذت بالى ... »

ثم ينقلب على فجأة « والله انت غلطان ! كنت نبهتني ! غمزتني .. أخذتني على جنب ! .. لا .. لا ! والله يا اسمعيل مالك حق ! »

بغت ! امتعضت رغم أنه كم من مرة كانت بهرتني براعته تلك الفذة في التملص ، في المسارعة الى المداورة بمراوغة ، حين كان ينذر بها على غيري !

« التعلب فات ، فات ... »

اعتصمت خلف غشاوة من نظرة خاوية خامدة ، كأنها السد المنيع ، فتتصرم بيني وبينه، والى الابد ، وشائج الأيام .

« آه ... فعلا كان لازم أنبهك ... أنا في غاية الأسف ... » ثم أدرت له ظهري وئيدا .

هل همس من خلفي يا ترى باسمي ينادينى؟ هل حاول ... أو ربما تنازعه أن يستوقفني ؟ لست أذكر الا أن خطواتي باعدت بيني وحيث تركته ، مضيت ... فلم يكن يعنيني لحظتها الا أن ألحق بعبد المجيد .

شف لونه عن ذي قبل كأن غاضت عنه أسباب الحياة ، وعيناه ثقبان غائران ، شديدا الحلكة وسط سحنته المخطوفة ، اضطرب لاهثا من فرط جهد اذ فوجيء بعودتي ، محاولا أن يسيطر على نفسه ... أن يخفي ما انفلت من شواهد انفعال مكبوت ... اختلاجات متلاحقة من حول أطراف الانف والشفتين ...

أقفل راجعا على عجل ، كأنه يحاول التستر على ما فيها ، حقيبة اليد ، فتعانده اذ كانت مكتظة بالأوراق ...

« آه ... اسمعيل ... » بدون اكتراث ، وكأني به يقول .. « رجعت ؟ هو أنا ناقصك ! »

ومضى فيما كان فيه ، فيدق الجرس للفراش، ويناوله الحقيبة بطريقة آلية ، حركة تتكرر كل يوم ، هي هي بعينها ، ثم يذرع القاعة جيئة وذهابا . « كأني ولا هنا » ، ريثما يكون الفراش قد هبط فيخطر السائق بالاستعداد .

« عبد المجيد ... »

توقف واستدار يواجهني ، فيحصر لساني بعض لحظة ... تاهت عن ذهني الكلمات ،

فلا أدري كيف أقول ما كنت أريد أن أقول ، ثم اندفعت ...

« تعرف ؟ والله افتراء ! رفاعي غلطان في حقك ! لو مكانك ما كنت سكت له ! »

« ماذا تقول ... » ويخيل الى ان قد سرت في أوصاله انتفاضة خفيفه ... « لا أبدا ... هو على حق ... وقد آن فافسح المجال لغيري ... »

« اياك ! وهل تتركني فيلتهمني ... »

« انه في أشد الحاجة اليك . »

« لا حاجة ولا محتاجة ! البركة في غرباوي ... أهه منه كثير ... على قفا من يشيل .. واستقالتي وراء استقالتك على طول ! »

« وهل تتركه لغرباوي وأمثاله ؟ » دول يغرقوه » ... تبقى مصيبه ! الواجب يحتم عليك ان تقف الى جانبه ! »

« عمل فيك ما عمل ... وشاغلك مصلحته ؟ والله يا عبد المجيد إنت شهم ! »

« مصلحته ؟ الموضوع أكبر منه ، أكبر من مصلحة أي شخص ... أيا كان ! »

« هذا دوري اذن فأقول لك ... الواجب يحتم عليك أنت بالذات ألا تستقيل ! »

« مسألة ... وانتهت . »

« بتاتا ! واني أقولها لك مرة أخرى بكل وضوح ... استقالتي وراء استقالتك على طول ... ايه رأيك ؟ أنا صممت » »

كانت قسماته المشدودة قد لانت بعض الشيء ، نظر الى طويلا ثم قال : « كفانا مناقشة ... ألم تقترح بنفسك أن نرجيء الكلام فيها الى الغد ؟ »

ثم خفوة من ابتسامة ومض بها محياه ، ثم أسرع يشيح بوجهه ، أدار لى ظهره ، ماذا بخطوات سريعة نحو الباب ، ولكن صوته يأتيني فجأة ...

« هيا بنا ! الوقت سرقنا ... تأخرنا عن الغداء ... »

وأشعر كأنما قد امتدت يد ، عبر الحواجز ، تتلمس مصافحة والتقاء ...

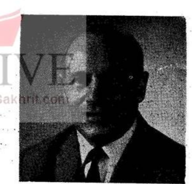
التقاء فتقارب كانا لنا موئلا وملاذا ...

أما ثالثنا — بل قل « أوحدنا » — فيمضى متخففا من كل قيود ، تحركه دفعة قوية من مهارة ذاتية ... ولكنه كأنما البهلوان على حبل مشدود ، انتزعت منه أسباب التوازن الدقيق ... فيغيض من أدائه البارع ذاك الابداع ... تلك الروعة ، خطفت الابصار خطفا فترة من زمان !

لكل شيء أوان



بقلم: محمد عبد الحليم عبد الله



فى ٣٠ يونيو الماضى فجعنا بنبأ وفاة محمد عبدالحليم عبد الله ، الذى اثرى مكتبتنا العربية طوال ربع قرن برواياته ومجموعاته القصصية . ولئن تميز محمد عبد الحليم عبد الله بانه من جيل الروائيين المصريين الذين برزوا بعد الحرب العالمية الثانية ، فانه لم يهمل القصة القصيرة ايضا ، وهذه ظاهرة عامة فى ابناء جيله ممن برزوا فى كتابة الرواية دون ان يهملوا القصة القصيرة .

وتتميز القصة القصيرة عند محمد عبد الحليم عبد الله بان معظم احداثها تدور فى ريفنا المصرى وما حوله من بنادر متواضعة والتفاعل القائم بينها ، او بينها من ناحية والمدن الكبرى من ناحية اخرى . ومعظمها يدور حول الصراع بين الانسان والانسان ابتداء من الانسان واعدائه حتى الزوج وزوجه ، وقد يمتد الصراع فيشمل الانسان مع الحيوان . وفى هذا الصراع يتغلب الخير على الشر . كما كان محمد عبد الحليم عبد الله حريصا على ان يقيم فى قصصه توازنا بين العالمين الداخلى والخارجى للانسان .

والقصة التالية من بين قصتين او ثلاث تركها محمد عبد الحليم عبد الله قبل ان يتاح له نشرها مع رواية لم تتم . ونلاحظ ان القصة مجردة من المكان والزمان ، وقد ركز المؤلف هدفه على شخصيتها التى جردها من الاسم ايضا . وفيها يتناول موضوعا من موضوعاته الاثيرة هى علاقة الابناء بالآباء ، فالاب الميت ما يزال يمتد تاثيره الى ابنه . ويتساءل القارىء بعد قراءة القصة هل الاثر نفسى فحسب ام وراثى ايضا رغم ان كلا من الاثرين يعمل ضد الآخر . فالاب الغائب الحاضر قد تسرب الى ضمير الابن محذرا من التمادى فى نفس الطريق الذى سبق له ان سلكه . بينما الام تعين الابن على تمثل مسلك الاب ومصيره ، عانت من الزوج وتشفق ان تعانى من الابن مرة اخرى . وهكذا يشكل الصراع جوهر القصة ، صراع بين الجيلين ، وصراع الانسان مع نفسه .

ومجلة « المجلة » تنشر هذه القصة فى عددها الخاص بالقصة القصيرة مشاركة منها فى تحية وداع الصديق الذى سبقنا ، وترك لنا هذه القصة بعنوانها الذى يثير التساؤل : هل كان محمد عبد الحليم عبد الله يتنبأ بما حدث له ويرجونا الا نجزع فان « لكل شيء اوان » ام هو اسقاط منا لمشاعرنا التى اثارها الحدث !

يوسف الشارونى

بين حين وحين كان يرى فى منامه أنه يفعل شيئا مخيفا ••• شيئا مخيفا لكنه لا يخلو من تساؤل • وعندما يستيقظ من النوم يتلفت حوله فى خوف ويقلب يديه ثم يشعل النور ويستلقى فى الفراش حتى يعود قلبه الى هدوئه •

ومن خلال أهدابه المسبلة كان يتفقد حجرة نومه الواسعة ذات الطراز القديم الذى يحوى الجمال والوقار ويوحى للداخل بأن أرواحا قوية (مهذبة أو غير مهذبة) لكنها قوية على كل حال ، عاشت يوما ما فى هذا المكان •

ومن خلال أهدابه المسبلة يستذكر تفاصيل حياته • ثم أيامه القريبة ثم ••• لياليه الأكثر قربا • ولا تلبث تقطيبة عدم الرضا أن تغطى جبينه • وتظهر على الشفة • لكن أنفاس هذا الشاب لا تلبث أن تنتظم ••• وينام ••

***

وفى اليوم التالى تأخذه الحياة كما تأخذ كل حى •

وهو فى طبيعته الشابة مزدوج التركيب ••• وربما كان من النوع الذى يشعر بوجوده الشخصى دائما • فهو لا يغيب عن ذاته أبدا ••• أعنى أنه عندما يعمل عملا ما ••• طيبا أو غير طيب يصبح أو يمسى أثناء هذا العمل وكأنه شخصان لا شخص واحد ••• شخص يعمل وشخص يراقب أو يحكم على عمل الثانى • وليس من الضرورى أن ينفذ أحدهما حكم الآخر عليه • لكن المهم ، هو أنه يعرف وزن ما يعمل • ومقداره بالضبط فى ميزان الحسن والقبيح •••

***

كان أبوه رجل شهوات منطويا على نفسه • كل عالمه هو ذلك العالم المحسوس • يملك من المال ما يغذى به رغباته • له عينان كعينى صقر ورأس كبير كثيف الشعر ضيق الجبين • مات هذا الأب ولم يتجاوز الأربعين الا قليلا • وقالت عنه زوجته لابنها هذا :

ـ انه كان مثل شمعة تذوب ••• ليس لأنها مشتعلة تضىء بل لأنها مغموسة فى ماء يغلى • ولم يكن فى استطاعة يد أن تمتد الى هذه الشمعة فتنتشلها •• كان الماء حارا وحتى الشمعة نفسها كانت تنزلق من اليد بسرعة اذا ما أمسكتها ••

وفكر الشاب : هل فيه شىء من أبيه ؟!

لكنه ما لبث أن استبعد هذه الفكرة • وآمن بالارادة على أنها أساس للسلوك الأخلاقى • ولذلك فقد كان أشبه دائما بشابين ••• أحدهما يعمل والآخر يحكم على العمل ••

***

وفى احدى الليالى عاوده الحلم ••• انه مفزع مخيف ••

شعر كأن يده مغموسة فى مجمرة صغيرة ••• وهذه المجمرة مصنوعة على هيئة عين ••• نعم •• واستيقظ مذعورا جدا وهو يشعر أن يده تكاد تحترق •••

وسرعان ما أشعل النور •••

وكان البيت خاليا • رابضا وحده فى هدوء مطمئن فى أكناف الصحراء والأم فى اقامة قصيرة عند احدى بناتها لأنها تلد • والخادم يعانى رمدا فى عينيه الاثنتين • وليس هناك الا البواب والكلب •••

لم يدر لماذا أحس بحاجة الى الصراخ • هو يعلم عن نفسه كما يعلم عنه الناس انه شجاع القلب الى درجة غير طبيعية • وكثير من الحقائق المفزعة لم تنهر لها أعصابه ••• مثل تلك الليلة التى انقلبت به سيارته وهو عائد وحده من سفر مريب • وكانت مؤخرة السيارة فى الترعة وهو غير مستطيع الخروج • وعندئذ أسلم أمره الى الله وانتظر الموت بشجاعة لكنه فوجىء بمن يثبون اليه وينقذونه • وعلى الطريق أخذوا منه نقوده الكثيرة وسمع احدهم يقول : أنظر نصف عملنا لله ونصفه للشيطان وقهقه فأحس كأن هذا خلاصة خلاله وجزء من أفكاره • وواصل هو السير الى أقرب مدينة بجلادة لا نظير لها • وكأن شيئا لم يحدث له •

***

لكنه عندما استيقظ هذه الليلة فزعا وكان يده محروقة بالنار فى مجمرة على هيئة عين ــ عندما حدث له ذلك كان يرتجف •••

وأشعل النور ونظر فى الحجرة الواسعة • وقعت عيناه على صورة أبيه •• رأى عينيه على صورة جديدة • تومضان فى الصورة الزيتية كأنما انبعثت فيهما الحياة • ونظر الى شعره الكثيف وجبينه الضيق • وخيل اليه أنه رأى ابتسامة غريبة متحجرة على شفتيه •

وعاد يتذكر تفاصيل حياة أبيه ••• زوجاته الثلاث اللائى كن يدبرن له مع كل فرصة لهوا وهموما • وأسفاره الى أماكن لا يبوح باسمها • ثم انصرافه عن الناس وحتى عن صحبة أولاده •

ثم موته بطريقة سريعة ... كما تحطم كأسا من الزجاج الرقيق . والدموع الكاذبة التى ذرفت عليه يوم وفاته . و .. و ..

وشعر كأن هذا كله موجه اليه .. ثم ساءل نفسه عن سر ما يحدث له بين حين وحين ولكنه لم يهتد .

جلس مرة مع زميل فى القطار يوم كان مسافرا . وكانت العربة شبه خالية . ولم ير الجالسان بدا من تبادل أطراف الحديث وكان زميل السفر رجلا مكتملا تبدو عليه الحنكة وطيبة القلب وعلامات المعرفة . وامتد الحديث حتى تناول الشباب ومشاكلهم والعمر الغض الخصب الذى قال عنه الزميل المسافر : انه أشبه - أحيانا - بأرض خصبة يزرع فيها أصحابها أشجار المر .

أطرق الشاب وسرحت أفكاره . وتذكر أباه وتذكر نفسه ثم قال للرجل :

- سيدى ... اننى أريد أن أقول لك شيئا يحيرنى .. اننى أرى بين حين وحين فى منامى أننى ...

وسكت الرجل بعد أن سمع قوله . وأطرق . ثم رفع رأسه وألقى نظرة على أرض جرداء وقال للشاب :

- كابوس ... كابوس ...

ضحك الشاب فى استخفاف مكتوم ثم قال :

- طيب ... ذلك ما أعرفه ..

قال الرجل :

- هناك كابوس يكون من صنع الطعام والشراب يعنى من زحمة المعدة . وهناك كابوس يكون من صنع شىء آخر ... يعنى من زحمة الضمير ... (وحملق فيه) هل ضميرك مزدحم ؟!

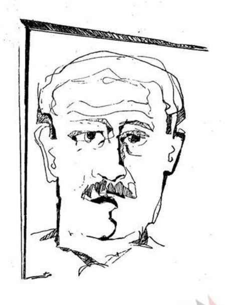
هز الشاب رأسه فى خجل وحيرة :

- آ ... ربما ...

- أيام كنت شابا كنت أحاول بين حين وآخر أن أدخل ... هل تعرف الى أين .. الى داخل أعماق نفسى ... وأقوم بعملية تنظيف لتلك الأعماق التى لا يراها الا صاحبها وحده ... ولن يكون هذا التنظيف كاملا تماما ... لكنه على كل حال لا يدع الأخطاء تتراكم ...

وقال الشاب فجأة :

- هل أغير حجرة نومى كما أشار على بعض الناس ؟!



فضحك الرجل وسأل :

- لماذا ؟ هل فيها ما يثير همومك أو ذكريات لا تحبها مثلا ..

قال الشاب فى خجل :

- لا ... ليس فيها الا الأثاث المألوف وصورة لأبى ..

لم يرد الرجل .. أحس أن الحديث بعد هذا فضول .. فقال للشاب :

- حاول ..

***

وعندما عاد لم يفعل شيئا . نسى كل ما دار . واسترسل فى حياته .. لكن الرؤيا مالبثت أن عاودته . ولما استيقظ فى هذه المرة . رأى السبب وعرفه أكثر من المرات السابقة .

كانت أصبعه السبابة فى فمه . وكان يعض عليها بأسنانه شديدا . وحرارة أنفاسه مثل حرارة المجمرة .

وصرخ كأنما يريد أن ينقذ يده من فم رجل آخر . فلما أفاق وأشعل النور ونظر الى صورة أبيه . رأى عينيه وكأن فيهما دموعا . وعلى فمه ابتسامة حزينة . وكأنه يريد أن يرفع يده الى فمه - هو الآخر - ليعض أصبع الندم ...

وعندئذ أدرك الشاب أن لكل شىء أوانا . فحرص على الا يفوت الأوان .



هى

بقلم : يوسف ادريس

ــ هووو

مبكرا وقبل يقظتى التامة جاءنى الصوت منخفضا قويا فيه همس (الفانفار) اقشعر جسدى . قلت :

ــ هووود

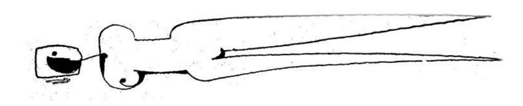
عاد يقول :

ــ قوم ... عندك ميعاد فى العتبة

استيقظت تماما . نسيت الشاى . غادرت البيت . أصبحت فى العتبة . عندك ميعاد فى العتبة . أين ؟ لا جواب . متى ؟ لا جواب . مع من ؟ لا أعرف . انتصف النهار . بدء القيظ . ضوء الشمس اشتد وكأنما شحنت بطارياتها الى آخرها . كثر الذباب . تزاحم الناس أكثر وعزلتهم وضحت . عندك ميعاد فى العتبة. أنا فى العتبة. القلب القديم لقاهرةقديمة. قاهرة واحدة كان لها قلب واحد . اليوم بمائة قلب ، بلا قلب . الميعاد فى العتبة . كيف أطيع الصوت وأنا العلمى الذى لا يؤمن بالدجل . حاولت العودة . فشلت . أصبحت لا أعرف كيف . مقيدا حبيس الميدان وحولى سور خفى مكهرب لا أستطيع اجتيازه . الميعاد متى ومع من ولماذا ؟ لا أعرف . الميعاد فى العتبة .

مر أسبوع وأنا سجين القهوة واللوكاندة والميدان ، حدودى فتحات شوارع محمد على والعباسية ومسرح الأزبكية والمطافى . البنايات القديمة حراسى . الناس ، النظرات أجنحة الذباب ، مقيدة مثلى بقوى قاهرة . كل شىء قديم تهب منه رائحة الزمن كجو مقبرة تفتح بعد مائة عام . الميدان يضيق . خطواتى فيه تتحدد أكثر . لم يعد باستطاعتى الا أن ألف حول عربة الترام الثابتة فى الميدان . فى نهاية اليوم العاشر لم أعد أستطيع التحرك . شدت قدماى بطريقة حاسمة ومجهولة الى جوار العربة . ظللت فى مكانى يومين بلا نوم أو طعام . فى الضحى ، وفى موكب ، اقبلت عربة (بويك)زرقاء





من آخر موديل حلياتهـــا النيكل مصـــنوعة من ذهب · العيون والأفواه المفتوحة حولها وتتبعها· قائدها كالسائقين لدى العائلات الكبيرة يرتدى معطفا أبيض وقفازا أبيض وقبعة ذات حافه . توقف امامى وقال :

ـ اركب .

لمحت خيبة الأمل فى كل العيون المغشـشـة حولنا وكان كلا منهم كان يتوقع نفس الدعوة .

ـ أنا ؟

ـأيوه انت .

ـ متأكد ؟!

ـ انت مش عندك ميعاد فى العتبة . اركب .

أأركب ؟

سألت : على فين ؟

قال :

هى عايزاك

ـ هى مين ؟

ـ اركب .

أأركب ؟

خفت .

التقت عينانا .

لم أجسر على المعارضة .

ركبت .

انطلقت العربة .

غادرنا العباسية فى اتجاه ترب الخفير . بدأ طريق يصعد بنا كان واضحا أنهم انتهوا من رصفه من لحظات وأنه يطوى طيا بعد أن تمر بـه العربة .

ـ احنا فى المقطم ؟

سألت وقد بلغنا أعلى نقطة . لم تســتدر الرقبـة الغليظه . لم أظفر بجـواب . أعـدت السؤال محددا وبصـوت أعلى . لم يأتنى الا الصمت . سكت . أتكون هى ، هى هى ؟ أتكون هى ؟ أم تراها أسطورية كعائشة التى قرأت عنها صغيرا . ولكنـا لسنا فى رواية . أعرف الفرق تماما بين الأحـلام والواقع وبين الأسـاطير والحقيقة . العربة حقيقيـة والسـائق حقيقى وهضبة المقطم حقيقية ، حتى (فانفار) هوووه لا يزال يرن فى أذنى رنينـا حقيقيا له وجـود كوجود حركة عقرب الثوانى فى ساعة معصمى . معصمى حقيقى ومستيقظ ويؤلمنى حين أعضه .

ـ انزل .

كانت العربة دون أن أشعر قد وقفت . وكان عقـرب الثوانى لا يزال يتحـرك ولـكن الزمن توقف . مع العربة توقف لم أنزل .

ـ انزل .

الأمر صريح . نزلت . انطلقت العربة بسرعة خاطفه . اختفى هيكلها قبل أن يختفى صوتها . عدت الى ما حولى . صحراء واسعة ممتدة . صحراء غير مستوية . لا شىء هنـاك ولا فى أى اتجاه . لا أحلم . قطعـا لا أحلم . خلعت الساعة . قربتها من أذنى . التكتكة مسموعة . انا لا أحلم . أنا موجود والقاهرة مختفية فى مكان ما ولكنها قريبة وموجودة .

سرت خطوات . عشر خطوات كيفما اتفق . فجأة وجدت أمامى بوابة . بوابة بالتأكيدموجودة من زمن فعمرها لا يقل عن نصف قرن. بابها من حديد هائل الضخامة قد تراكمت فوقه طبقات الصدأ . عليه زرع أخضر له سـيقان غليظـة عمرها أكثر بكثير من عمر الرجل وزهورهـــا حمراء طازجة نبتت من ساعات . البوابة مغلقة. لم تفتح من أحقاب . الظل جميل بعـد لفح الشمس . الخضرة تجعل من الظل جنة . البوابة من جماد ولكنهـا أشعرتنى بالونس . افتـح ياسمسم . لم تفتح البوابه . واضـح أنهـا مستحيل أن تفتح .

جلست انتظر . لم يكن أمامى الا ان أنتظر . غابت الشمس . نمت . صحوت . أشرقت الشمس . مالت . غابت . نمت . حلمت انى

أمثل دورا فى السـينما وأنى أحتضن البطلة أمام مخرج عجوز • عيون الكاميرا كانت تضايقنى • صحوت • أنا جوعان • بدأت أمضغ الأغصـان الجافة • أحسست لها بلذعة • كففت • خفت أن تكون نباتات سامة أو مخدرة • أخطأت والقيت ناحية الشمس نظرة • لم أستطع سحب نظرتى • جذبتها الشمس تماما وابتلعت وعيى • عميت • عمى أبيض ملىء بحرة كالدم • حين غـربت الشمس عدت للوعى والرؤيا ووجـدت البوابة مفتوحة • دخلت • انطلقت بكل قواى أجـرى • الحديقة واسعة ، مزدوجة بالأشـجار ، الظـلام يتكاثف ، أنا جوعان والأشجار أشجار جوافة • أكلت . عاودت الجرى فى خط مستقيم ربمـا أصل الى هدف . شعشع الفجر . أحسست بطريقة ما أنى محاصر • توقفت • من خلف كل شجرة برز مارد أطول منى بكثير . ربما مائة أو أكثر . احاطونى . اكتشفت حين اقتربوا أنهم عرائس خشبية ضخمة وأن مفاصلها من خيوط وأسلام • تحركنا • أنا فى الوسط وهم حولى • طال المشوار • غابت الشمس •

لم أنم • ظل حراسى مستيقظين • فى منتصف الليل سمعتهم يتحدثون وقد انقلبوا من عرائس رجال إلى عرائس نساء •

سألت أقرب جاراتى الحارسات :
ـ من تكون هى ؟ أتكون هى هى ؟

لم تجبنى • غمغمت لجارتها :
ـ هذا الجلف ... انها أجمل من كليوباترا
ـ أكثر انوثة من افروديت .
ـ ساقاها أمتع من وليمة جنسية
ـ فخذاها امرأتان فاجرتان •
ـ أعماقها غيبوبة أروع من الوعى
ـ هذا الجلف .
أشرقت الشمس •
كنت وحدى بلا حراس ولا عرائس .

فى مواجهتى تماما باب أنيق لقصر • القصر مبنى بطريقة حديثة كأنه ديكور لفيلم من أفلام المستقبل .

كان الباب مفتوحا .
دخلت •

الصالة مساحتها عشرة فدادين . السجادة كيلو متر مربع فى الصالة ثلاثة كراسى فى ثلاثة أركان .

كنت متعبـا . جلست على أقرب كرسى . نمت • استيقظت لأجد الجدران قد حفلت بألف باب .

عرفت أن على أن أخمن واختار .
أخترت أبعد الأبواب •
دخلت .
مشيت عاما .
أين تراها .
تعبت .
حاولت العودة .

وجدت نفسى فى متنزه واسـع مفتوح . والدنيا ربيع وفى الوسط (بيسين) يتسع لمدينة تستحم . وكانت فيه امرأة واحده عارية تماما وبعيدة جدا .
كانت هى .
وكان على أن انتظر .
وانتظرت انا والشمس . هى تشرق وتغيب وأنا لا أتحرك • وبعد أيام عرفت أنهـا غادرت الحمام وأنها فى طريقها الى التعطر والمنام .
وانتظرت .
ـ هوووه •
ـ هوووه •
ـ ادخل .
بعد أحقاب .
دخلت المخدع •

السرير كرسى عرش ممدود والجدران لوحات بانورامية حيه والنور المصنوع مختلط بنور القمر بلا تفرقه . وبأصـبعها أشـارت . وسرت وباصبعها أشارت وتوقفت عند قدمى السرير وخلعت ملابسى ، وأشـارت وأقبلت جوارى حملتنى الى الحمـام • وأشارت وجىء بى وقد أعددت تماما وأشارت وأصبحت بجوارها تماما فى الفراش وجىء بالطعام . وأكلت • لى أعوام وأنا جوعان . وبالشراب . شربت لى أعوام لم أغب عن الوعى . وفعلت كل هذا وأنا ذاهل فقد كانت هى أجمـل وأروع من كـل ما حلمت وتصورت لكأنما كل نساء العالم قشـور وهى قلبهن جميعا ، أعماقهن ، كل ما فيهن من رقة وحنان وأنوثة .

وجاءت اللحظة واسـترخت فـوق الفراش تنادينى • ولبيت النداء • وأشـارت وأطفئت الأنوار تمامـا حتى العمر انطفـأ وتحسست جسدها وأنا ذائب معها فى قبله واقشعرت يدى وهى تلامس فخذها • كان خشنا مليئا بالشعر رفيعا طويلا كساق المعزة ينتهى بحافـر كحافر الحمـار • اكتشفت أن الأنثى التى أنا غائص فيها كانت مؤخرة رجل فاجر الشذوذ • غـاص قلبى وانطلقت أجرى أبحث عن باب المخـدع • اتعثر فى غثيانى وأبحث عن باب المخدع ولا باب. اجرى ولا باب وأتعثر فى غثيانى ولا باب .

الأم والوحش

بقلم : يوسف الشاروني



سمعت أم سيد صرخة طفلها ، متحشرجة خافتة كأنها تساقط أوراق الشجر الجافة • وكانت قد تركته نائما فى ظل الجميزة الوحيدة القريبة ، تأمل أن تستريح من ضجته وشقاوته حتى تنتهى من غسيلها • لكنه صرخ صرخته الخافتة المتحشرجة ، فتركت ما بين يديها من ملابس وأسرعت بعيدا عن المجرى حيث لمحت طفلها يتقلب ، وعلى بعد أذرع منه عينين خضراوين ملتهبتين لحيوان متوحش جائع •

الجسر بعيد عن القرية ، واقتراب الشمس من نهاية الافق الغربى يزيد المكان وحشة ووحدة وسكونا ، والحيوان يقف متربصا ، لعله تأهب لاقتناص فريسته ثم اكتشف عنصرا دخيلا ، فتريث يستوثق من قدرة هذا الخصم •

أم سيد لم تلمح فى أول الامر شيئا واضح الملامح ، بل أحست بالشعاع الأخضر الرهيب يخرج من عينيه لينفذ فى صدرها فيسرع تنفسها وفى قلبها فتسرع دقاته ، بل وفى معدتها فتكاد أن تتقلص • تلك صدمة المفاجأة الاولى ، ثم ما لبثت أن سيطرت على مشاعرها ، وهى تفكر فى سرعة كيف ترد الوحش عن طفلها •

كان أشبه بالكلب الضخم • لعله ذئب ولعله ضبع ، فلم تر أحدهما من قبل وان سمعت كثيرا من حكايات أهل القرية عنها • لو كانت وحدها لقفزت فى الماء ، سمعت فيما سمعت

ان هذه الحيوانات لا تغامر في الدخول في معركة مع فريستها في الماء ، لكنها لا يمكن ان تترك ابنها سيد يأكله الوحش •

ارتابت لحظة الا يكون ما أمامها وحش حقيقي لعله عفريت كهذا الذى ظهر للبنت مرمر بحوش الجزارين وهى في طريقها ليلا من بيت خالتها شرقى البلد الى بيتها غربا • لكنه لم يكن وحشا كهذا الذى أمامها ، كان حمارا ثم تحول الى جدى استطالت أرجله حتى قارب طوله أن يمس خطافات الذبائح ، بمجرد أن قرأت الفاتحة اختفى • تمنت سيده أن تطول أقدامه • قرأت الفاتحة عدة مرات • استمدت منها شجاعة وان لم يختف الوحش أو حتى تستطيل أرجله وأذناه•

هل الأفضل ان تتقدم لتهاجم أم تنتظر لتدافع ؟ قالت لنفسها : لا بد أن الحيوان يفكر بدوره تفكيرى نفسه •

يداها ما تزالان مندتان ببقايا الماء • نسمة هواء هبت فزادت برودتهما ومنهما سرت البرودة في كل جسدها فاقشعرت • خشخشت أوراق الشجرة الضخمة فوقها ، بينما اهتزت عيدان الأذرة في حقولها على الطرف الآخر البعيد من الطريق •• وخلفها قرص الشمس « أتون » أحمر ينطفىء وينحدر نحو المغيب •

جرى نحوها طفلها محتميا فيها ، مخفيا عينيه بين فخذيها • عوى الحيوان : أوونه •• أوونه •• أوونه • فارتجف قلبها لحظة • لعله أدرك صعوبة الموقف ، لعله يخيف خصمه ، لعله ينادى زميلا له • أما هى فقالت : لعل أحدا يسمعه فيأتي لنجدتها • أرهفت أذنيها •• ثانية ثانيتين •• ثلاث ... لا تسمع وقع أقدام • لماذا لاتصرخ هى بدورها ، كيف غاب عنها أن تستنجد بصوتها القوى ، طالما استخدمته في أفراح الأحباء والأقرباء وجنازاتهم ، ولا تستعين به اليوم فيما هو أهم وأخطر ؟ خرج منها صوت أشبه بالفحيح ، خانها اذن ، أدركت لماذا لم تستخدمه • غير أنها بمجهود ارادى ــ ولعله غير ارادى ــ سرعان ما فكت اساره وأطلقته من محبسه فمضى يلعلع مدويا مرسلا اشارة الخطر والفزع وسط صمت قاس غير مكترث ، يشاركها ابنها ببكائه انفعالا وخوفا ، فيتكون من صوتيهما جوقة جزع ودفاع عن النفس لا انتظام فيها حتى بح منهما الصوت وأدركا عبث المحاولة •

المعركة معركتها اذن وحدها •• فحصت الارض بسرعة تبحث عن سلاح •• لمحت بين الاحجار المبعثرة حولها حجرا متوسط الحجم مدببا على مبعدة ذراع منها • هل يصلح سلاحا في مثل هذا الموقف •• ليس هناك غيره • الحيوان واقف لا يتأخر ولا يتقدم • لونه الرمادى أشبه بلون الافق المتحول الآن نحو قتامة ما تزال تشتد وتوغل ، حتى لتوشك الحدود بينه وبين ما حوله ان تتداعى مما يسلبها وسيلة تحديد عدوها ورصد تحركاته •

اذا تسلقت الشجرة هل نجت أم انتهت ؟ تأملتها •• شجرة جميز ضخمة عتيقة ، ربما في عمر هؤلاء الملوك الذين بنوا لأنفسهم مقابر منحوتة في الجبل في البر الغربى ، ومعبدا كبيرا مليئا بالأعمدة ومساخيط الكباش في البر الشرقى عندما كانت تسافر الى سوق الاقصر ، يوم السبت من كل أسبوع ، كانت في طريقها الى السوق تشاهد أفواج السائحين بوجوههم الحمراء وقبعاتهم وكاميراتهم ونظاراتهم القاتمة وأثواب نسائهم الملونة لا تغطى من الجسم الا أقله • السواح يأتون الى هناك من بلاد بعيدة لأن الأقصر قديما كان اسمها طيبة ، وطيبة كان يعيش فيها ملوك مصر القدماء قدم هذه الجميزة •

تأملت الشجرة من جديد • اكتشفت أن بعضهم قد وضع شبكة حول أغصانها المرتفعة حتى تمنع العصافير المتطفلة من التهام ثمار الجميز الناضجة وحتى تتلقى ما يسقط منها عندما تنفصل عن أغصانها فلا يقع على الارض وتدوسه الاقدام • وطالما لعبت تحتها في الليالى القمرية وأكلت جميزها •• وأمها تحاول منعها من الخروج ليلا •• تخيفها أن ضبعا أو ذئبا قد يفترسها •• فتصدق ولا تصدق •• يخاف قلبها ولا تخاف قدماها • فتذهب وتلعب وتعود تحلم أحلاما مفزعة • دائما تحلم أنها في معركة مع حيوان كثير الشبه بهذا الذى أمامها •

بحركة شبه غريزية حملت طفلها وأمكنته أن يتشبث بالجميزة حيث ينحنى جذعها الى فرعين ضخمين ، والطفل يبكى لا يريد أن يتركها ، وهى تصرخ فيه ان لم يمتثل لها فالبعبع سيأكله ، وهو لا يصدق أن هناك مكانا أكثر أمنا له من حضنها •

الوحش أحس أن الأم سلبته فريسته السهلة • قرر أخيرا أن يعمل • ارتدبعيدا عنها ليعودمهرولا في سرعة خاطفة ، تماما كالبرق • احتمت منه خلف جذع الجميزة ، لكنه لم يحاول مهاجمتها بل مر على مبعدة بضعة أذرع منها • هل تراه يحاول أن ينال من أعصابها لتنهار فتصبح فريسة سهلة لا تقاومه ؟ لا بد وأن يكون ضبعا ، هكذا



قالت لنفسها • فأهل القرية يقولون ان للضبع شوكتين فى رقبته ، شوكة فى كل جانب ، فلا يستطيع أن يميل بوجهه يمينا أو يسارا ، فاذا جرى فانه يجرى فى خط مستقيم •

من جديد عاد بنفس السرعة ، وان أصبح الخط المستقيم أكثر اقترابا منها حتى ان ما أثاره من غبار حجب الرؤية عنها لبضع ثوان • فى البلد يقولون ان شعار الضبع : أعطنى واحدا فى طول النخلة ولا اثنين فى طول السخلة • لم تر السخلة فى حياتها ، لا بد وأنه نبات قصير جدا • هو جبان اذن يحب أن ينفرد بضحيته • لكن أليست هى وابنها اثنان ؟ لئن كان ابنها في طول السخلة فطولها لا بد أن يكون فى طول النخلة لماذا اذن يتحرش بها هذا الوحش • لا بد اذن أنه ليس ضبعا •

ها هو ذا مرة أخرى يعدو مقبلا فى اتجاهها الخط المستقيم أصبح أكثر اقترابا ، الغبار أكثر كثافة • وقع أقدامه أوضح صوتا • وقف على مبعدة منها كأنما يزن أثر محاولاته فى خصمه • استطاعت أن تسمع تنفسه ••• بل تنفسها •• لا بل تنفسه • البلل يغطى جسدها كله حتى لكأن ثيابها التى عليها كهذا الغسيل الذى تركته ملقى على حافة المجرى •• فاطمة بنت الشيخ عبد الدايم روت لها أن والدها كان عائدا على حمارته فى طريق المقابر ذات ليلة ، حين قابله ضبع • تسمرت الحمارة ، وانتصبت أذناها ، وأفسحت ما بين قدميها الخلفيتين ثم تبولت ، وقد استطاع أن يحتمى باحدى المقابر هو وحمارته طوال الليل حتى انصرف الوحش يائسا فى الفجر • فلما خرج من مكمنه اكتشف بعينيه — وعلى ضوء النهار — أن حمارته بالت دما •• أتراها تبول الآن دما ؟ •• لا وقت لاكتشاف الحقيقة •

الوحش مقبل للمرة الرابعة نحوها ، لعله سيحتك بها هذه المرة ليطرحها فى المرة التالية أرضا كما سمعت وينهش أول ما ينهش عجيزتها وهى ما تزال حية ، أشهى طعام فيما سمعت لدى الضبع أو الذئب • فى ليلة الزفاف كانت من أشهى كنوز جسدها لدى زوجها • طفلها سيد فى الرابعة من عمره الآن ، لا بد وأنها بدورها فى الثانية والعشرين ، جميلة وقوية ، ممشوقة وفتية • ذلك اذن كان منذ خمس سنوات • اليوم يقول لها أبو سيد انى ألمس عجيزتك كما ألمس عجيزتى تماما •• لا فرق ، ويضحك غير انها كانت تعلم أنه كاذب ، انه يغيظها وتلك احدى طرقه فى مداعبتها • وأمه يغيظها أنهما يتضاحكان أمامها ، تريد أن تستعيد ابنها ، أن تستولى عليه بعد أن أصبح ملكها ، لكن هيهات • هذه ذئبة أخرى ، بل لبؤة لكنها عرفت كيف تنتصر عليها فى معارك كلامية ومخلبية •

انحنت نحو الارض • التقطت الحجر المدبب ودفعته بكل قوتها بين عيني الوحش الملتهبتين وهي لا تكاد ترى شيئا •• من الخوف •• من الغبار المتكاثف •• بسبب الظلمة التي زحفت الآن تماما • لكنها لا بد قد أصابته • وقالت لنفسها اما أن ينصرف عني واما ان يزداد هياجه وتصميمه وانتقامه ، وعلى أن أتأهب لأي احتمال

في ثوان اختطفت الفراش الذي كان ينام عليه سيد تحت الشجرة • كان مكونا من ثوبين لأبيه • ثم تسلقت الجميزة بينما دفعت طفلها الى فرع أعلى تأمره أن يتشبث بيديه ورجليه • وحرصت هذه المرة أن تكون الشبكة تحته حتى تتلقاه اذا ما قدر له الوقوع ولا تتلقاه الارض أو الوحش •

لمحت بجوارها فرعا طويلا في سمك عصا زوجها يتدلى من فرع أكثر سمكا ، وبكل مافيها من عنف وخوف ورغبة في الحياة أمسكت بقبضتها اليمنى منتصف الفرع وجذبته فانحنى نحوها دون أن يستسلم لها بينما اهتزت الشجرة الضخمة هزة خفيفة ، لو كان جافا لانقصف من هول الجذبة لكن ما يجري فيه من عصارة حية جعلته أقرب الى الوتر المشدود • عادت تبعد الفرع عنها ثم تعود فتثنيه نحوها ، مرة واثنتين وثلاث في سرعة جنونية حتى لان لها وان ظلت بعض اليافه متشبثة بالغصن الأم • حاولت آن تنال بالحيلة ما لم تنله بالعنف ، وفي لحظات كان هناك سلاح جديد في يدها •

الوحش يتحرك ذهابا وايابا بجوار الشجرة في هرولة خفيفة وربما في عصبية ، وهو يقترب منها شيئا فشيئا ، حتى اذا أصبح أسفلها تماما وقف ينظر بعينيه الملتهبتين في حلكة الظلام الى فريستيه • ثم مضى يتشممهما بأنفاسه العميقة المتلاحقة ، ربما بسبب ما بذله من مجهود وربما هي طبيعته ، حتى خيل اليها أن أنفاسه العميقة ستجتذبها اليه فيما تجتذب من هواء • كانت حواسها كلها متيقظة متأهبة لما عسى أن تسفر عنه حركة عدوها التالية • ادرك الوحش أن فريستيه لا يمكن أن يبقيا أبد الدهر فوق الشجرة ، وأنهما سيضطران الى مغادرتها ذات لحظة ، وعندئذ تكون فرصته العظيمة • أما هي فقالت في نفسها : أرجو أن يمر عابر فيعينني على هذا الوحش قبل أن تنقلب الأمور الى أسوأ وهكذا بدا أن هناك هدنة غير معلنة بين الطرفين انتظارا لتطور الامور •

سمعت طفلها يقول في صوت واهن : تعبت يا ماما ، متى سيمشي الببع ؟ أجابته الأم : ربنا يفرجها يا سيد ، امسك الشجرة جامد • النعاس بدأ يغزوه بعد الجهد الذي بذله •

هل غفت أم أغفلت ؟ كانت تفكر في كل شيء ولا شيء حين سمعت فجأة ارتطام جسم وطفلها يصرخ صرخة مكتومة أول الامر ثم صرخة معولة فزعة : الحقيني يا أمه ، الحقيني الببع سيأكلني • كان قد وقع في الشبكة كما قدرت لكن ما لم تقدره هو ان الشبكة كانت أضعف من أن تحتمله فأخذت تتمزق تحت ثقله وهو يهبط نحو الارض في بطء •

لم تقبل أن تصدق أول الأمر ، وحين تأكدت لم تستطع أن تصدق ما رأت • في ثوان لفت حول ذراعها اليسرى ثوبي أبيه ، بينما تحرك الوحش نحو طفلها المدلى مكشرا عن أنيابه • تلك فرصته التي طال انتظاره لها ولن يدعها تفلت منه • في حركة شجاعة قفزت بسلاحها الشجري في يدها اليمنى وبلفافة القماش حول يدها اليسرى لتقع بين طفلها والوحش •وبدلا من أن يقضم جسد سيد كان يقضم يدها اليسرى وهي تدفعها في حلق الوحش غير هيابة ولا وجلة •• ولعله بدافع التهيب والوجل •• وأنيابه تنغرس في لفائف القماش • في الوقت نفسه كانت يدها اليمنى تعمل عملها ، فالفرع المتشعب بعشرات الأفرع الصغيرة كالأشواك يندفع في وجهه بينما يحاول الوحش أن يطولها بمخالبه ، وهو يلقي عليها بكل ثقله •

سيد يصرخ • هي تولول • تحقق بذلك غرضا مزدوجا : اخافة الوحش والاستنجاد بالعابرين الذين لا يعبرون • الجسر الجديد طريقه أقصر • الجميع هجروا هذا الطريق • شعر رأسها ، بل شعيرات جسمها كله ــ وقفت • الفرع يتقصف أمام مقاومة الوحش وضغط عضلاته الحديدية • يدها اليسرى لا بد أنها ضايقته وكادت تعطل تنفسه • أحست مس أنيابه في معصمها الايسر • سحبته في حركة تلقائية • أدركت أنه استطاع أن ينهشها • الدم يرشح على ما تبقى من مزق القماش • جذبة يدها اليسرى الى الوراء وازنتها اندفاعة يدها اليمنى الى الامام • النهاية المدببة لما تبقى من الفرع تنغرس في مكان ما من وجهه • عجبت أن يكون هذا المكان من الوجه• لا سبيل فيه الى مكان طرى كهذا الذي انغرس فيه طرف الفرع • لو أصر الوحش لحظة أخرى على مواصلة المعركة لانهارت • لا قبل لها بمقاومة عضلاته الهائلة •

لدهشتها ــ وفي اللحظة التي قررت فيها الاستسلام ــ سمعت الوحش يصدر صرخة

ما سمعت فى حياتها بمثلها ! خليط من العويل والضحك والزغردة • ثم اندفع يعدو مهرولا مثيرا وراءه سحابة من غبار كثيف زاد عتمة الليل عتمة • ومع ذلك فقد ظلت أم سيد تصرخ ، صرخات هستيرية متواصلة ، لا تدرك تماما ما حدث ، وتخشى أن يعود الوحش منقضا عليها وعلى ابنها وهى التى لا قبل لها الآن بأية مقاومة جدية •

عندما اكتشفت أن الوحش قد ذهب الى غير رجعة قالت فى نفسها : ربما كان الصراخ الآن أكثر ضررا • لن يأتى المنقذون وقد تأتى غيره من الوحوش فالطريق مهجور • والتفتت الى طفلها ـ الذى كان على الارض الآن وقد ركبه الخوف تماما ـ تنهره وتأمره بالكف عن البكاء لئلا يعود الببع • صمت الطفل فى الحال • فجأة أحست بجوع شديد ، رغبة عارمة الى الطعام ، كان فى معدتها بئرا لا قرار لها • نظرت الى نفسها ، اكتشفت ملابسها الممزقة وقد تعرى ثدياها وجزء من بطنها أما عجيزتها فكانت ما تزال مغطاة بثيابها ، فاطمأنت قائلة : اذن فالوحش لم يكن قد افترسنى • غير أنها بدأت تحس بآلام فى يدها ، كانت تقطر دما من مكان ما لم تكتشفه بعد • قررت أن تحمل طفلها ـ وهى التى لا تكاد تحملها قدماها ـ وتعود مهرولة الى قريتها •

* * *

فى كلمات متلاحقة غير منتظمة روت أم سيد قصتها على أهل القرية وقبل أن تتمها تماما كان قد أغمى عليها • كانوا بين مصدق ومكذب أما المعتدلون فكان رأيهم ان فى القصة شيئا من الحقيقة غير أن أم سيد تبالغ لتسبغ على نفسها هذه البطولة ، وأنها لا شك لم تكن فى كامل وعيها حين خاضت هذه المعركة التى قل أن يخوضها الرجال • وكانت ملابسها الممزقة وأصابع يدها اليسرى التى تقطر دما هى شاهد الاثبات على روايتها •

وقد حملها زوجها وأخوها الى مستشفى الوحدة جمعة حيث أسعفت وتقرر بتر ثلاثة أصابع من يدها اليسرى : البنصر والأوسط والسبابة •

وقد هرول معظم القادرين من أهل قريتنا الى شجرة الجميز الوحيدة على جسر ترعتنا يستوثقون مما روته عليهم أم سيد • فشاهدوا بقايا الفرع الذى استخدمته كسلاح ضد الوحش كما شاهدوا الشبكة الممزقة ومزقا من قماش مبعثرة • أما غسيل أم سيد فكان ما يزال ملقى على حافة الجسر •

وظلت تعالج بالمستشفى ثلاثة أشهر كاملة • كانت تقوم فى الليال الاولى فزعة تصرخ وتسأل عن طفلها سيد • غير أن أعصابها ما لبثت أن هدأت ، حتى حين أدركت أنهم بتروا أصابعها الثلاثة • وعندما سمح الاطباء لها بالزيارة ، تدفق عشرات من أهل القرية يستمعون الى روايتها عشرات المرات •

غير أن الشهادة الكبرى جاءت على فم شيخ الخفراء ، حين كان يمر ساعة الغروب على خفراء قريتنا ، فلمح فى طريق المقابر ضبعا يتشمم الأرض كأنما يبحث عن جيفة ، وقد لاحظ أن به شيئا غير طبيعى لم يستطع أن يحدده أول الأمر ثم أدرك أن فى مشيته ما يشبه ترددا لا يتفق وجرأة الضباع • فلما شم ـ فيما يبدو ـ رائحته البشرية التفت بوجهه وجسمه نحوه فأدهشه أن يكون بلا عينين ، ثم أطلق أرجله للجرى ، حتى أنه أطلق عليه عيارا ناريا فلم يصبه • ويقسم شيخ الخفراء ـ عند تضييق الخناق عليه ـ أن الضبع قد فقد عينا واحدة على الاقل • وقد أكد هذه الرواية أكثر من شاهد ـ من بينهم عمدة قريتنا وخفيرة ـ وان أضافوا اليها تفاصيل كثيرة أو قليلة تبعا لطبيعة الراوى بحيث أضيفت الى أساطير بلدنا ومواويلها • حتى مراسل احدى الصحف اليومية بمركز الأقصر عندما ترامت اليه أنباء المعركة • بعد أيام من وقوعها أبرق الى صحيفته يقول : وقعت مساء أمس معركة ضارية بين أم بقرية الكرنك مركز الاقصر وضبع ضخم دفاعا عن طفلها ، وقد استطاعت الأم فى النهاية أن تصرع الوحش بشجاعتها دون أن تصاب الا بخدوش قليلة •

ولقد تقدمت أم سيد فى عمرها اليوم حتى أصبحت أشبه ما تكون بالجميزة العتيقة التى احتمت بها يوما ، ورغم ذلك ورغم وفاة حماتها وزوجها ، فانها ما تزال تشاهد فى شوارع قريتنا بأصابعها المبتورة • وكلما زارت بيتا من بيوت القرية حرص كباره أن يعاين صغاره هذه الأصابع دليلا على ما سبق أن رووه لهم عن قصة معركتها وانتصارها على الوحش • فاذا طلبوا منها أن تروى قصتها بنفسها روتها فى كلمات سريعة قلائل •



اذكروا محاسن موتاكم

بقلم : مختار ابراهيم عجّوبة

أنا قريتنا · فى ديار الشايقية عشت ، وتربيت ، وما رأيت فى حياتى أغرب مما رأيت، يا سادتى الكرام ، ويا قرائى الأعزاء ، يا من تجهلون أبسط الأشياء ، فى الحياة ، حتى تاريخكم تنسونه ، تتمثلون بالقول المأثور « اذكروا محاسن موتاكم » ، وأنتم ميتون منذ أن ولدتم ، وأمواتكم لا محاسن لهم · فقد عاشوا وماتوا كما تعيش حيواناتهم وتموت · أنتم يا سادتى و يا سيداتى ، آنساتى · يا من قرأتن الجرايد وتعلمتن فى المدارس فزاد جهلكن على الجهل الذى توارثتنه عن الحبوبات (١) ، فعرفتن المينى جوب ونسيتن الفركة (٢) (الصندلية) · وحبوباتكن كن يلبسن الرحاطة (٣) ، جلد مشقق يربط حول الخصر وصدر عار ، يمكنكن أن تبدأن من الرحط مرة أخرى · ولكن ! هل فيكن من ترعى الغنم ؟ وأنا صغير السن كنت أرعى غنمى وأجوب الوديان ، أحمل مزمارى وقربة ماء فوق كتفى وغذائى لبن ضأنى · وتألمت عندما عاد عمى على فيلى وارسلونى حنوته · عاد على فيلى بعد غيبه طويلة ، قلنا انه مات وبكيناه سرا ، وتقاسمنا ميراثه من الارض وسجلناه باسمنا فى «صنم» · وعندما عاد الينا كان رجلا فى سن الأربعين ، لحية طويلة سوداء مستديرة، وجسم نحيف قمحى اللون ووجه شاحب مستطيل · سألناه أين كنت وما الذى أتى بك ، ظنناه مات مع جيش ود النجومى ، حر أهلنا أمام الأنصار ولجأوا الى الصحراء والجبال · فقد كان الأنصار يأكلون الأخضر واليابس ، الانسان والحيوان ، الا عمى وكان صبيا حلف ألا يفر من وجههم ، وبقى وحيدا فى القرية ينتظرهم ، لم يجدوا فى القرية الا صبيا فى الخامسة عشرة ، نكلوا به وطلبوا منه أن يريهم المطامير (٤) التى يخفى فيها أهل القرية حصادهم من القمح والذرة ، وكان لايجيبهم الا بقوله لا أعرفها ، ضموه الى جيش الأنصار وكان يحمل القربة التى يشرب منها ود النجومى ، وفى مصر بيع عمى الى أحد الباشوات ، أعتقه عندما سمعه يقرأ القرآن فى الصباح الباكر ، صحب عمى عبدالقادر ود حبوبة(٥) ، وبعد الفتح عاد وأقام معه فى الحلاوين ، وعندما قتل ود حبوبة تسلل عمى ليلا وهرب الى ديارنا ، أنكرناه فى أول الأمر، ولم نجد بدا من قبوله فردا من أفراد العشيرة فى نهاية الأمر، و.ن كان قد فاجأنا وسمى نفسه بعلى ود حبوبة وتبرأ منا· جاءنا ومعه مهره يسميها المحروسه لا ندرى كيف استطاع أن يقطع بها الوديان والصحارى بين الحلاوين وأرض الشايقيه، حتى الدين كانوا يزورونه كانوا يركبون خيولا· نقف صفوفا للفرجه عليهم،وجاء أحدهممرة يركب ثورا فضحكنا عليه وعلى ميتة قلب الثور· صيوفه بيض اللحى ، لحاهم صغيرة تغطى الدقن فقط ، فكنا نطلق عليهم « التيوس » ولا نشعر بحب نحوهم ، ففى لهجتهم عنف يبعدنا عنهم ، وسرعان ما كانوا يرحلون ولا ندرى من أين اتوا ولا الى آين ذهبوا ، لم نهتم به ولا بزائريه ولكنه اهتم بنا وأقام خلوة جدى بعد خراب ، فأمهـا الجيران من القرى المجاورة ومن الاعراب · فكأن ليله القدر فى ديارنا ، ليلا ونهارا نسمع ترتيل القرآن وتناغم الاصوات تعلو وتنخفض وتنساب ليلا فتضىء الظلام ، ويكاد اللهب يعانق السماء ، لهب أحمر يلامس اطراف الظلام فيشع فى القرية نورا ، وبدا النور يخبو قليلا قليلا فقد أخذ الناس يتهامسون · قالوا ود حبوبة كافر · تملكتنا الدهشة · ود حبوبة كافر مثله مثل جاكسون باشا ؟ ليس هذا معقولا ! قالوا يعلم الجيران المهدية ، فاحتج آباء الجيران وأخذوا أبناءهم ! وغضب الأبناء وحملوا «مخاليهم» (٦)، وكانوا يشتغلون بالبناء ، ومن ديار الشايقية الى مدنى الضهارى (٧) ، ترى الشايقية زرافات ووحدانا يزحفون · وآباؤنا يا سادتى كانوا فى طريقهم يبنون المنازل بالجالوص(٨) فأهل الصعيد جميعهم كانوا يسكنون القطاطى (٩) والرواكيب (١٠) وخيام الشعر ، ود حبوبة اعتزل الناس ولم نتفق على شىء مثل ما أجمعنا على عداوة هـذا الرجل ، سبع بيوتات كل بيت لا يرضى عن الآخر ، الباتقاب (١١) يقولون ان الصالحاب (١٢) حلب جاءوا واستقروا فى هذه القرية وأن جدهم كان حدادا يصنع الطوارى (١٣) والفؤوس ،

---

(١) الحبوبات : الجدات .

(٢) الفركة : ثوب من الحرير يلف الجسم كله فوق الجلباب ولا يلبسه الا الاغنياء .

(٣) الرحاطة : جلد رفيع كالسلك منسوج تلبسه الفتاة بدل السروال الى ان تتزوج وبعدها تلبس السروال .

(٤) المطامير : مخازن الحبوب تحت الارض .

(٥) ود حبوبه : ابن الجده .

(٦) مخاليهم : جمع مخلاة .

(٧) الضهارى : اسم مكان .

(٨) الجالوحى : كمية من الطين .

(٩) القطاطى : جمع قطية ـ كوخ من الحبال يتقى به المطر ولا يتأثر به ولا يستعمل الا ليلا .

(١٠) الرواكيب : جمع ركوبه ـ كوخ من الحصير يقوم على اربعة أعمدة وليس له جدار ، ويستعمل نهارا .

(١١) الباتقات : اسم مكان .

(١٢) الصالحاب : اسم مكان .

(١٣) الطوارى : جمع طوريه ـ آلة حفر تشبه الفاس .



والصالحاب يقولون ان الحسيناب (١٤) ليسوا الا بدوا من الحسانية جاءوا الى القرية وهم لا يملكون شيئا واستولوا على أطيانها حين كان لا أحد يهتم بالارض • والحسيناب يقولون ان الباتقاب كان جدهم عبدا آبقا احتمى بجدهم فأخفاه وزوجه من احدى جواريه ، وحين يلتقون ينسون كل شيء ويلاطف بعضهم البعض • يختلط الفتيان والفتيات في الليالى المقمرة ، والأفراح • والشيوخ يقرأون مولد الختمية عندما يقول الرجل منا يا ابو هاشم يرفع حلقة الساقية وحده ، وعندما تقول المرأة منا يا المرغنية يهرب التمساح من وجها ، يتجمد ويصبح تمثالا منحوتا من الصخر •

وما كرهنا شيئا مثل هذا الرجل الذى أقلق حياتنا ، حتى نحن الصغار كرهناه وعندما كان يمر بنا كنا نلقى عليه الحجارة ، ونردد في صوت واحد « الكافر حطب النار •• الكافر حطب النار » وآباؤنا اخوته لا ينهوننا ولا يشكو هو اليهم • وعندما جاءنا قال لاخوته انه يريد حقه في الميراث ، شعر أعمامي وأبى بعدم الرضا ، كيف يفرطون في قدم من الأرض بعد أن سجل بأسمائهم ، وفي ديارنا يقتل الأخ أخاه – في شبر من الأرض – مع سبق الاصرار •• تحفز جميع أعمامي وحملوا طواريهم وما تبقى لهم من سيوف توارثوها عن الأجداد ، وهددوا عمى ، وقالوا له اذهب للمركز ، فقال لهم لا أقف عند باب نصرانى متظلما ولا أريد منكم الا ما يكفل لى عيشى • قالوا له : أعطيناك أرضا ورثناها في وادى بيوضه ، وأعطيناك عودين لتزرعهما ، وترد بهما النيل • فقبل وعاش محتفظا بسيوفه وحرابه وفرسه •

(١٤) الحسيناب : اسم قبيلة .

كانت لدينا خيول نفقت وهى فى عز الشباب ، ولم تصب بمرض ، كان فرسان الشايقية يغيرون بخيولهم ، ولكنهم الآن يهاجرون على اقدامهم ، والقطار ينقلهم الى أين شاءوا • ماتت كل الخيول الا مهرة عمى ود حبوبه ، وسيوف أعمامى صنعوا منها طوارى ومناجل • كان النحاس عند عمى عبد الله ، وكانوا يربطونه الى اوتاد فى حجرة مغلقة ولا يخرجونه الا فى أفراحهم أو حين يموت عظيم منهم • وفجأة سمع أعمامى صوت نحاسهم يأتيهم فى ليلة مظلمة من جهة النهر وكانت ضرباته تقلق مضجعهم ، وكان يقرع وكأنه فى ساحة الحرب حين ترقص الخيول وتتدافع ، لم يقم واحد منهم من عنقريبه (١٥) • فقد أعياهم تشييد السواقى واصلاح الأراضى نهارا ، ومضاجعة نسائهم ليلا • لبس عمى مرقعته ، وحمل سيفه ، وركب المحروسه ، وانطلق بها نحو النهر ، ووقف حتى الصباح فتجمعنا حوله وكان زبده يتقطع وهو يهدر ويلوح بسيفه فى الهواء ويسب عمى عبد الله لأنه أهمل فى النحاس وترك الحجرة مفتوحة فسرقته الشياطين • وظل النحاس طوال عشر سنوات يكرر نفس الضربات فى الليالى المظلمة • وعندما يخلد الناس الى النوم نسمعه نحن وتسمعه القرى المجاورة فينبعث الينا صوت الأجداد الذين ماتوا وتهتز قلوبنا ألما وطربا ، حاول شبان اخراجه من النهر فلم يجدوه • غطس ود عثمان •• وانتظرناه طويلا عله يأتى به ، ولم يعد ، وبعد ثلاثة أيام تقيأه النهر وكان منتفخا • صمت صموت النحاس فى احدى الليالى وسمعنا ثغاء نعجة حملتها الينا جزيرة شبع أهلها فطغوا وقتلوا درويشا فسلط عليها الهدام ، فجاءت الينا تطفو فوق سطح النهر يجرفها التيار •• واستقرت فوق النحاس • وعلى صوت النعجة تدافع الرجال من الشرق ومن الغرب ومن كل الجهات ، كل يقتطع له قطعة أرض من الجزيرة أم نعجة ، وودحبوبه وحده لم يسابق أحدا ، فاصطدم أهلنا الغرابة بالشراقة وجاء كل منهم بسيف صدىء ، وأشهروا السيوف وتقاتلوا لضحوة كاملة سقط فيها رجلان منا ، واندحر أعمامى أمام الشراقة ، فصاح عمى عبد الله « المروة (١٦) يا ودحبوبة » فرأيته يقفز الى ظهر المحروسة يلبس مرقعته ويحمل سيفه وحرابه ويخترق أشجار النخيل وكأنه سهم تندفع به المحروسة الى النهر والأمواج تنداح من حولها ، حلقات •• حلقات •

(١٥) العنقريب : سرير من الليف .
(١٦) المروة : اى النجدة .

وحمل حملة الموت على الشراقة وهو يهتف « الله أكبر ولله الحمد » فاندحروا وتشتت جمعهم ، لم يطعن أحدهم بسيف ولا بحربة فقد كانوا راجلين ٠

توسط الجزيرة وأحضر الفريقين وقال لهم ٠٠ اغرسوا سيوفكم فى الارض ٠ فغرسوها ، وهذا النصف وأشار الى الشراقة لكم ، وهذا النصف وأشار الينا — وكانت عيناه محمرتين — لكم ٠ لا يعتدى أحدكم على الآخر ، قالوا له ، نقطع لك أرضا من أم سيوف ، فقال لهم ٠ ادفنوا سيوفكم فيها ٠ واتجه الى النهر واندفعت المحروسه وكأنها رفاس (١٧) جكسم باشا ٠

تجمعنا يوما نريد الدفاع عن عمنا مثل ما دافع عنا ، فقد رفض دفع الضرائب للحكومه وجاءت العساكر لاخذه للسجن ولكن العمدة قال لهم : نأخذ بقرتين من أبقاره ، ودهشنا عندما رأينا العساكر يقودون البقرتين ولا يعترضهم ودحبوبة ٠٠ ربط العمدة البقرتين فى لوبيا مجاورة فانتفختا وماتتا فى الحين ، وقيل ان عمى ودحبوبة هو الذى قتلهما ٠ وظل العمدة يشكو من انتفاخ فى معدته لشهور وبعدها فارق الحياة ٠

لم يجرؤ أحد على أن يأخذ منه شيئا عنوة ، أصدر المفتش الانجليزى أمرا بذلك ٠ وجاءنا يوما مأمور مصرى يصحبه عسكريان ومجموعة من الشبان كانوا يقادون ويجمعون فى مراكب ترسو قرب الشاطىء ، وأخذ المأمور يلح على الشيخ بان يعطيه خمسة عشر شابا ، وهو فرض على كل قريه ، ولكن قريتنا هجرها الشبان ولم يبق الا الشيوخ ، فأخذ المأمور يشير الى أعمامى ، وعندما أشار المأمور الى عمى ودحبوبة ، لم يشعر الرجل الا بود حبوبة يجثم فوق صدره ويحشو له فمه من التراب ٠

أمسك العساكر بودحبوبة وأوثقوه الى جذع نخلة ، وانهالوا عليه ضربا بالسياط ، فلم يئن ولم يتألم ، وعندما يشتد الضرب ، كان يصيح بأعلى صوته « الله أكبر ولله الحمد » قادوه الى المركز وحكموا عليه بشهرين سجنا ، وعندما عاد سأل عن أعمامى فقلنا له ، انهم ذهبوا الى جهة بحرى ، لحفر جداول مشاريع زراعية تقيمها الحكومة ، فضحك حتى أدمعت عيناه ٠

قلت له ، ظننتك مت يا عمى من الضرب ، حتى النخل كان يصرخ وهم يضربونك ، قال لى ، يا ولدى الانسان كالنخل لا يموت يا ولدى الا بأن يقطعوا رأسه ، أنا وهذه النخلة ولدنا معا ، كبرت معى وعندما تموت هذه النخلة اعرف أن عمك حنت له زمل القدرة ٠ النخل يا ولدى زادنا فى الدنيا والاخرة ، واذا متنا دفنا جريده معنا ، فقد قيل انه يرطب القبر ويخفف العذاب ٠٠ عذاب الدنيا ولا عذاب الاخرة ، أنظر يا ولدى الى أعمامك ، فنظرت اليهم حين عادوا بعد ستة أشهر من « الحتانى » منهو لى القوى ، ضعاف الأجسام مشققة مغبرة وجوههم ، يلعنون الانجليز والسخرة التى جاءوا بها ، وكان عمى الخليفه عبد الله يهدىء من روعهم ، كان يقول لهم ، كل شىء بأجره يا جماعة ٠٠ الانجليز أشراف وهم أبناء عمومتنا من قريش ، جاءوا كفارا وجئنا مسلمين ٠ فيضحك عمى ود حبوبة ويقول له ٠ وجاءوا بيضا وجئتم سودا ٠ تعرف جاكسون باشا على عمى فى السجن ، وصار كلما مر على القرية يزور ودحبوبة ويكلمه قليلا والرجل جالس ، وكأن ليس هناك حاكم يقف الى جواره يحدثه ، ان وجده تحت ظل نخلة بقيا هنالك ، وان وجده فوق النهر يسقى المحروسة بقى معه ، لا يطلب أكلا ولا شربا ، وود حبوبة لا يدعوه الى شىء من ذلك ٠ وان وجده يقرأ الأوراد امتنع عن الحديث معه، ولا يسمح له بالدخول ٠ وان كان يعيد كتابة مصحف جلس فى الداخل وخاطبه من وراء ستار ٠ دهشنا لصبر الانجليزى على هذا الرجل فقد كان يلاطفه ويسترضيه وكأنه طفل ، قال له مرة جاكسون باشا ٠٠ انك تعبد المهدى يا ود حبوبة ، فقال له ود حبوبة ٠٠ اننى أعبد الله وأتبع تعاليم الامام المهدى رضى الله عنه ٠ قال له ٠٠ المهدى نبشنا قبره وحملناه الى ديارنا ٠٠ قال له ٠٠ لقد حملتم العظام ، والروح فى قلوبنا فان استطعتم فانبشوها ٠

وكانت فرصة طيبة أن يزورنا حاكم ، فقد كنا نرقص ونلعب ونذبح الذبائح وما تبقى فى أيدينا من سيوف نعرض بها وخيول من « مساوى » ومن « القرير » تتبع موكب الحاكم وترقص على ايقاع النحاس ، يحمله جمل مخنس عجوز ، ويقرعه عبد مخنس هو كذلك ٠ ولنا فى الأعياد لقاءات وأشد ما يجذبنا اليها ما كان يقوم به ود حبوبة ، حين يوافق عيده عيدنا ، فقد كان يصلى صلاة العيد وحده ، ولا يصلى وراء عمى عبد الله ويسميه الرجل الفاسق ، يأكل أموال الناس بالباطل ويجمعها باسم النذور والصدقات وقلما يتوافق عيد ود حبوبة مع أعيادنا ٠ فهو لا يؤمن بأقوال الحكومة ، فالحكومة نصرانية وكل ما يصدر عنها قول

---

(١٧) رفاس : مركب بخارى نيلى ٠

نصارى • وعلى رؤية الهلال يخرج معنا للعيد ، فقد كانت له عينا صقر يلتقط ابعد الاشياء مهما صغر حجمها • في يوم العيد نحضر له عشرة من جرائد النخل الخضراء ، نغرسها على جانبي ممر ضيق ، خمسا في جانب وخمسا في الجانب المقابل ، ونلف رووسها ببعض الخرق ، ونجعل المسافة بين كل واحدة والاخرى مترا واحدا ، يمتطي عمي ظهر المحروسة ، ويصيح .. دقي الدلوكة (١٨) يا خادم .. وعلى ايقاع الدلوكة ترقص المحروسة ويصفق اعمامي وتعظيمهم المحروسة الشبال (١٩) ، وفجأة يترك عمي الدائرة ويطلق للمحروسة العنان وينف بها المقابر حيث كنا نقيم أعيادنا وأفراحنا ، ويندفع بها بين صفي الجريد ، وفي لمح البصر يلوح بالسيف يمينا ويسارا ، ويقصف رووس الجريد واحدة تلو الاخرى •

هذا هو العمل الوحيد الذي كنا نشاهد عمي يمارسه باخلاص ، فلم يكن ودحبوبة رجلا عمليا مثل رجالنا ، يقضي الثلث الأخير من الليل حتى الفجر في قراءة القران والاوراد ، وفي الصباح يلتف في توبه ويظل نائما في ظل الضحى الى ان يعود الناس من الزرع ، وكانت له امرأة هي كذلك لا تعمل ولا تنجب ، تحضر جرة ماء في الصباح الباكر ، وأخرى عند الغروب ، ولا ندري من أين يأكلان ، وان كان عمي عبد الله يؤكد أن ود حبوبة يخفي كنوزا من الذهب تحت الأرض ، والا فمن أين يطعم زائريه الذين يفدون عليه ولا نعرف لهم لونا ولا جنسا ، حتى الأفندية في الآونة الأخيرة صاروا يزورونه ، جاءنا مرة أحد الأفندية وأخبرنا بأن الأسياد سافروا الى بلاد الانجليز ليباركوا للملك انتصاره في الحرب ، قال ود حبوبة ياجماعة مالكم وما لنكفار كفار في كفار خلوهم ينقرضوا ، كنا نستغرب في زي الأفندية ، وكان الأفندي أسود الوجه لامع الخدين ، يرتدي سترة ومنطلونا وطربوشا أحمر ، أمثاله كان يطلق عليه أهلنا الجماعة السودانية ، وأحيانا نطلق عليهم « بقر المايدوب (٢٠) » فقد كانوا قصار الأجسام منبعجي البطون ، مكتنزة رقابهم ، سريعة خطاهم ، يسيرون وكأنهم يتدحرجون • وعندما يضيق أحدنا بهم في المركز ، يهمس في أذن أخيه قائلا ، يا جماعة آخر الزمن يحكمونا السودانية •

حدثنا الأفندي السوداني عن سيف النصر ، فوثب ود حبوبة ووقف على قدميه ، وقال له ماذا قلت يا .. سيف النصر هدية للملك الانجليز ، أنكر عمي ذلك ، وغضب الأفندي وأسرع الى حقيبته وقال لعمي إقرأ هنا – فقرأ – الملك يستقبل وفد السودان ويهدى ... الخ .. نفض ود حبوبة ثوبه ، وقال لنا – وكان غاضبا – اشهدوا يا ناس أمام الله والرسول أنا بريء منهم ، ماكان رضي الله عنه يطلب جاها ولا ملكا •

ركب فرسه وجاب بها القرية وهو يصيح « الله أكبر ولله الحمد » جرينا وراءه نريد الامساك به فقد ساءت حالته • وفجأة انقلب علينا شاهرا سيفه ، فجرينا أمامه وكل رجل منا يرى راسه كرأس الجريد ملفوفه بالخرق يتطاير في الهواء • ولا ندري اى قوة أوصلتنا الى الشاطيء فوقع بعضنا في النهر وعام الى الجزيرة • وبعضنا تسلق أشجار النخيل وبقي معلقا بين السماء والأرض ، وبقينا فوق النخيل نرتجف ، فقد كان يخيل الينا أن ود حبوبة تحول الى مئات من ود حبوبة • ففي اللحظة الواحدة نراه بالقرب منك وفي نفس اللحظة تراه بالقرب من غيرك ، ولم ينقذنا الا حضور حبوبة الروضة بت الحاج التي لا يعصى لها ابن امرأ • وصاحت فيه :

– مالك يا ولدي أنت مجنون ؟!

هدأ قليلا قليلا وبردت أنفاسه وترجل ورمى لجام المحروسة على السروج واتجه الى النهر وتبعته المحروسة ، وشربت ، وكانت تصهل ، أنزل منها السرج وفك اللجام ، وعامت المحروسة في النهر ، ووقفت لمسافة في الشمس ، اغتسل هو وتوضأ ، وجلس تحت ظل نخلة يصلي ، وطالت صلاته ، وكانت المحروسة تصهل صهيلا له رنين الجرس ، فيتطاير القمري من على رءوس النخيل ويردد النخيل صدى صهيل المحروسة ، كانت تتمسح فيه وتدخل رأسها في صدره وتجثو الى جواره ونلتف نحن من وراء أشجار النخيل نهمس لبعضنا ، أنظروا ، المحروسة تصلي معه •

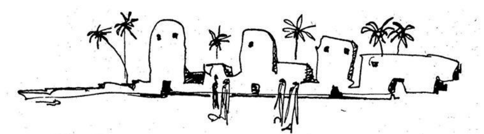
مع شروق الشمس في اليوم التالى استيقظنا على بكاء حبوبتي بت الحاج فقد أصاب ود حبوبة الفالج وهو لا يستطيع حراكا .. شقه الأيمن كله مات ، وقيل انه راى رجلا طويلا أخضر يلبس جلبابا أبيض يبارزه في المنام وسقط منه سيفه فضربه الرجل على شقه الأيمن وعندما استيقظ لم يستطع القيام • قال عمي الخليفة

---

(١٨) الدلوكة : الطبلة •

(١٩) الشبال : تحية لاحد الواقفين بايماءة من شعر الراقصة •

(٢٠) بقر المايدوب : نوع من البقر •



عبد الله ـ أسيادنا يدهم لاحقة ، هذا سيدى الحسن أب جلابية يلحقنا وينجدنا ٠

توافدنا على عمى وأشفقنا عليه وقلنا له ٠٠ انك منكر ٠٠ تنال من الحتمية دائما وهذا جزاء المنكرين ٠٠ وأخذ الصغار منا يلتفون حول داره وينشدون « يا منكرين فويل لكم » ٠٠ وعندما كنت أرى ود حبوبة عاجزا عن القيام كان يتملكنى البكاء ، فأشفق عليه ٠٠ وأحضر اليه الطعام ٠ وأبقى معه ساعات أحادثه ويحدثنى ٠٠ والوساوس بدأت تنتابنى فى كل ليلة ٠٠ فصرت أقرأ سورة يس ، وآية الكرسى عدة مرات قبل النوم ٠٠ وأقسم لسيدى الحسن بأننى منهم ٠٠ وأننى فى جوارهم ٠٠ صرت أخشى الليل والأحلام ، فى مرة جاءنى نفس الرجل وأنا نائم ٠٠ رفع سيفه ٠٠ فصرخت بأعلى صوتى وقمت مذعورا وضمتنى أمى الى صدرها وأنا شاب فى سن العشرين ، وقالت يا أب جلابية فوق وليدى ٠٠ وفى الليل صارت تطاردنى التماسيح ٠٠ تريد الامساك بى وتغوص أرجلى فى الوحل ٠٠ ولا أستطيع منها هربا ٠٠ وعلى مسافة منى أرى رجالا يقفون فأحاول الاستعانة بهم ، فلا أستطيع النطق ، ولا تتعدى « وحوحتى » (٢١) أقدامى المنغرسة فى الأوحال ٠٠ وتحيط بى التماسيح تفتح أفواهها كالبراكين ٠٠ فأرى الرجل الأخضر بجلبابه الأبيض فتنحل عقدة لسانى ٠٠ وأصيح يا سيدى الحسن ٠٠ وأستيقظ من النوم ٠٠ أتصبب عرقا ويكاد قلبى يقفز من صدرى ٠

ذهبت لعمى عبد الله وأخبرته بما يحدث لى ـ فقال لى : الأسياد يريدون منك نذرا ٠٠ فأعطيتهم نصف بقرتى الصفراء ٠٠ بعد أيام جرف النهر الساقية ومعها البقرة ٠٠ انتشلنا الساقية وفارقت البقرة الحياة ٠٠ قال لى عمى الأسياد لم يقبلوا الهدية ٠٠ قلت له ، لماذا ؟ قال : انك أعطيت من لبنها المنكرين ٠٠ كان صادقا فيما قال ٠٠ كان ود حبوبة جائعا فحلبت

(٢١) وحوحتى : الصوت الواهن الخائف ٠

له منها ٠٠ فقدت مالى فى الحياة وأنا أحب بنت خالى « ريدة » ٠٠ كنت أنوى الزواج منها بعد الحصاد ٠٠ ففقدت حصادى وبقرتى ٠٠ قالوا لى اذهب الى الخرطوم ٠٠ وزر مقابر الأولياء والصالحين ٠٠ فكرت فى أن أصبح من أولاد البيت ٠٠ أقيم فى الدائرة ٠٠ أتشرف بخدمة الأشراف والشريفات ٠ أجد طعاما آكله ٠٠ أعيانى البحث عن عمل فى الخرطوم ٠٠ فقال لى ابن عمى سر الختم ٠٠ وكان عسكريا ٠٠ يا زول (٢٢) أنت مجنون تبقى على آخر الزمن من خدم البيت ، أنت دروشت (٢٣) ؟ عملت مع انجليزى كان من كبار الموظفين يزوره الأفندية من أولاد العرب ، كنت أنظف الحديقة وأرويها ليلا ونهارا ٠ وأقيم فى حجرة الخدم ٠٠ معى أوشى (٢٤) البربرى ٠٠ دخلت معه الحجرة لاحضار صينية الأكل مرة ، فوجدت الانجليزى وأحد الأفندية عاريين ٠٠ ارتجفت وركضت الى الحديقة وجلست فيها ، أشم رائحة الزرع وأرى القمر فى قريتنا ٠٠ عمى ود حبوبة جالس فوق عنقريبه ينحسر ثوبه ٠٠ تبين أردافه ٠٠ وأجده أحيانا عاريا فألف الثوب حوله ٠٠ وكنا ونحن كبار نذهب الى النهر ٠٠ جماعة ٠٠ ونعوم ٠٠ كلنا عراة ٠٠ وما رأيت أحدا منا يفعل ما يفعله الانجليزى والأفندى ، مثل ما يفعل الرجل بالمرأة ٠٠ وى (٢٥) ٠٠ وى ٠٠ وى على ٠ ذهبت لابن عمى فى الصباح وقصصت عليه القصة فقال لى : تعيش كتير تشوف كتير ، يا زول أنت مجنون ٠٠ أين تجد ماهية سبعين قرشا ٠

بعد أيام جاء الانجليزى الى حجرة الخدم وكنت وحيدا ٠٠ هجع الليل ونام الناس ٠٠ التمرهندى ونقيق الضفادع فى الحديقة وميدان التنس يشدنى الى أهلى ٠٠ تظاهرت بالنوم ٠٠ شخرت ٠٠ لم أشخر حياتى ٠٠ جلس الى

(٢٢) الزول : لشخص ، رجلا كان او امراة ٠

(٢٣) دروشت : صرت من الدراويش ٠

(٢٤) اوشى : اسم رجل ٠

(٢٥) وى : يا مصيبتى ٠

جواري فارتجفت ·· كانت تحت عنقريبي عصا تناولتها ·· أمسك بي ولا أدري ما فعلناه ·· أحسست بأنني أرتجف ولم تفارقني الرجفة حتى الصباح ·· كنت خجلا من نفسي ·· وفي يوم الجمعة ذهبت الى بحري ·· زرت الأشراف ·· طلبت المغفرة ·· كان الناس كثيرين ·· كأنهم جميعهم كانوا يشيرون الى ·· ويعرفون ما حدث ·· وعندما جاء العصر انفضوا جميعهم ·· وبقيت وحيدا ·· ماذا أقول لابن عمي ·· فكرت في الذهاب اليه ·· لكن الأمر يخصني ، هل أخبره بعد فوت الأوان وما الضمان ·· لم أذهب اليه ·· وبقيت أتجول ·· قالوا لي : أن الحسن ود عكود جاء من البلد ، فذهبت لزيارته ·· فقال لي ·· ان نخلة عمي ماتت ·· كدت أبكي أمامه ·· قلت له ·· وعمي ·· قال : شفي من مرضه ·· يذهب الى وادي بيوضه يزرع أرضه ويرعى أبقاره ، ويعود الى ديارنا في الشتاء · ومهرته المحروسة ماتت · أعطاني ودعكود كيسا من البلح أرسلته لي أمي وزعته على الصغار ·· كانوا تحت قيادتي ·· عندما كنا صغارا كنا نقلد عمي ود حبوبة ·· نصنع من الجريد خيولا ·· نركبها ·· الجزيرة أم سيوف تنغرس في كبدي ·· وتتمثل لي غولا يهجم على ·· الهبايب (٢٦) السبعة ·· الحمراء ·· الزرقاء ·· الصفراء ·· تصرخ في آذاني ·· تملأ عيوني بالأتربة ·· جاءتني الغمة السوداء وأنا فوق الساقية ·· والساقية تدور بي ·· في ليل حالك الظلام ·· تئن باخرة جاكسون باشا ·· تأتي آخر الليل ·· مضاءة فاغنى لها :

ريدة بت خالي نقوم سوا
نفتح الشباك للهوا
نركب أم دخانا لوى (٢٧)
جكسم باشا أب رتاين (٢٨)
جابي نص البحر عايم
حسسه يصحي النايم

وأرقص على نغمات الساقية وصوتها الباكي ·· ودولاب الباخرة يلفني ·· يلقي بي في النهر ·· ويرفعني ثم يلفظ بي خلفها ·· تشرقني الأمواج ·· تتبلل ملابسي ·· فأخرج من النهر ·· يهرب الأطفال من أمامي ·· يقولون ·· انهم رأوا ساحرا يخرج من البحر ·· تخر من ملابسه المياه ·· أسرع الى حيث يرقد ود حبوبة ·· يهجم الانجليز على عمي ·· ينزعون ثوبه ·· هو لا يستطيع حراكا ·· ياولاد الكلب ·· يركب الأطفال معي وحبوبة الروضة خيول الجريد ·· أمامنا ود حبوبة ·· يقفز من عنقريبه ويطارد معنا الانجليز ·· فيختفون منا في النهر ولكنهم يعودون ·· ثغاء النعجة وضربات النحاس تختلط بعضها ببعض ·· وكبرى النيل الأزرق يزحف ·· يلتقي بكبرى أم درمان ·· صوت بوري الجربندية يوقظني عند الفجر ·· أتسلق النخلة في سراية المفتش الانجليزي ·· أقطع جريدة وأمتطيها وأتناول سيف عمي ·· سأحاربهم ·· اللوايط ·· ماتت النخلة خلعت الجريدة من قلبها ·· قال لي عمي ·· النخل كالانسان ·· وقال ·· الايمان في القلوب فان استطعتم فانبشوا قلوبنا ·· مهرتي المحروسة وقفت في ميدان كتشنر ·· وأخذت أحاربه فوق جواده ·· قاتلته حتى الصباح ·· كانت النجوم تتهاوى فوق رءوسنا تأتي اثنتين اثنتين ··

- الروس ·· الروس ··
- حباب التيوس ··
- من الانجليزي أب شنب للطيارة أم ضنب ··

وعندما أشرقت الشمس جاء العساكر ·· قبضوا على ·· شهبتني النجوم وهي تتساقط ·· من الطائرة ·· تمزقت ملابسي ·· فقدت حذائي ·· كنت تعبا محمر العينين ·· ارسلوني الى كوبر ·· وبعدها الى المصحة ·· لكنني هربت ·· امتطيت صهوة فرسي وانطلقت ·· قلت لود حبوبة ·· خليك من الشمال ·· وأنا من اليمين ·· ضربت جمل غردون باشا فوق صلبه ·· فقفز فجأة وكان الانجليزي نائما ·· استيقظ ·· أمسك بالسرج والرسن جيدا ·· دخل به النهر ·· عام الى توتي وسمعت صوت النحاس يدق في النهر ·· وأخذت أرقص وكان شعري أشعث مغبرا ·· عندما أصبح الصباح مرت العساكر ·· فخفت ·· لم يسألوني ·· لحقت بهم على ظهر المحروسة ·· قلت لهم بالليل طاردنا غردون باشا وغطس بجمله في البحر ، ألا تسمعون صوت النحاس بم بم بيم ·· فضحكوا ·· ناولني أحدهم سجارة «قولد فلاق» ·· أخذت مهرتي ترقص ·· رقصت معها ·· تنفض عرفها ·· تشب ·· ترفع قوادمها الى السماء وتصهل ·· أمسك لجامها في صعوبة ·· رماني أطفال بالحجارة ·· قالوا : الشايقي المجنون ·· انطلقت بفرسي أطاردهم ·· دخلوا بيوتهم ·· انكسرت مهرتي تحتي ·· أصبح جسمي ثقيلا ·· تسلقت النخلة ·· قطعت جريدة أخرى ·· النخلة تتهاوى تحت أقدامي ·· تسقط ·· من رأس النخلة ·· من عند القلب ركبت مهرتي ·· طارت ·· مسرعة بي نحو الأرض ·· أض ·· رض !

(٢٦) الهبايب : الزوابع .
(٢٧) لوى : ملتوى .
(٢٨) رتاين : جمع رتينة — ما يضاء به الكلوب .

عصفور من الجنوب

أو عالم الطيب صالح

بقلم: د. فاطمة موسى

آه منك يا زمان النزوح !

صيحة ترددت على صفحات القصة العربية منذ نشأتها فى مصر على يد هيكل وتوفيق الحكيم وما زالت تتردد فى قصص شعوب عربية أخرى تسير على نفس الدرب ، وان تأخرت عنا خطوة أو خطوتين ، وقد يلحق واحد من أبنائها بالركب فى قفزة واحدة ، فاذا به قد بز السابقين ، ورفع علم بلده على رقعة من خريطة الادب المعاصر فى الوطن العربى وربما فى العالم أجمع .

كان احتكاك الاديب العربى بحضارة أوروبا فى مطلع هذا القرن شرارة أضاءت نفوس أدبائنا بالوعى بذاتيتهم وصفاتهم القومية ، فمضوا يعيدون خلق عالمهم المتميز فى الاشكال القصصية الحديثة : الرواية والقصة القصيرة .

كانت تجربة هيكل فى جبال سويسرا الشرارة التى ولدت « زينب » أول رواية عن الريف المصرى صدرت سنة ١٩١٤ ، وتمخضت تجربة توفيق الحكيم الخصبة فى فرنسا عن « عودة الروح » و « عصفور من الشرق » ، كما لونت قصصه ومسرحه وكتاباته كلها طوال سنوات انتاجه الاولى والمتوسطة .

وما يصدق على هيكل وتوفيق الحكيم وطه حسين فى العشرينيات والثلاثينيات يصدق على يحيى حقى فى الأبعينات وعلى الاديب السودانى الطيب صالح فى الستينات . فقد نشر الطيب صالح سنة ١٩٦٦ رواية قصيرة مركزة باسم « **موسم الهجرة الى الشمال** » (أعيد نشرها فى روايات الهلال مايو ١٩٦٩) وهى امتداد طيب للخط الذى تمثله «**عصفور من الشرق**» و «**قنديل أم هاشم**»، الا أن « **موسم الهجرة الى الشمال** » متفوقة فنيا وتكنيكيا وتنتمى بحق للمرحلة الفنية التى تعيشها الرواية المعاصرة فى العالم ، لا فى حدود الوطن العربى .

وقد تبلورت فى روايته هذه خيوط رؤيا نسجها فى قصصه القصيرة التى نشرها منذ مطلع الستينيات ، ونضجت أدواته الفنية بعد أن جربها فى القصة القصيرة(١) ، وفى قصة قصيرة ـ طويلة تحمل فى طياتها مادة رواية طويلة حقا(٢)، وملحمات من «أرض» عبد الرحمن الشرقاوى ، وقصص الأرض والحرث والزرع وبسطاء الريف الطيبين التى حفل بها الأدب «التقدمى» فى القرن العشرين .

وكما خرج هيكل والشرقاوى ويوسف ادريس وغيرهم من قرى صغيرة بدلتا النيل ، خرج الطيب صالح فيما يبدو من قرية فى شمال السودان ، تكتنفها الصحراء من جانب والنهر من الجانب الآخر ، وتصطلى الهجير طول النهار ، ثم تتنسم فى الليل نسمات لطيفة تهب من الشمال ، فهو وليد حضارة عربية أفريقية لا تلونها حضارة البحر الابيض المتوسط التى تلون أدبنا العربى فى مصر والشام والمغرب العربى .

ان جذوره الادبية تمتد مباشرة من الشعر الجاهلى والادب العباسى الى مدارس الخرطوم تحت الاحتلال الانجليزى وجامعات انجلترا ، والادب الغربى المعاصر ، متمثلا فى أروقة هيئة الاذاعة البريطانية ومحافل المجلس البريطانى للفنون والآداب ، وندوات مثقفى بلومزبرى ومقاهى الفنانين فى تشيلس ونايتسبرج .

---

(١) نشرت قصص الطيب صالح القصيرة فى مجلات متفرقة فى الخرطوم وبيروت ولندن (١٩٥٩ ـ ١٩٦٦) وجمعت فى «دومة ودحامد» : سبع قصص ، دار العودة ، بيروت . د.ت .

(٢) «عرس الزين» نشرت لاول مرة سنة ١٩٦٤ وطبعت أخيرا فى بيروت ، دار العودة : د.ت .

لقد جسم الطيب صالح صورة القرية السودانية فى ضمير قراء القصة العربية، وأنطق فلاحيها واضفى عليهم من الملامح ما جعلهم اليوم شخوصا حية تعيش فى مشاعرنا وتكون جزءا من وعى قراء العربية ٠

ان قصص الطيب صالح تدور فى مجموعها حول موضوعين : عالم هذه القرية السودانية وهى ليست بطبيعة الحال قرية بالذات ، ولكنها تمثل حضارة عربية أفريقية ذات جذور تاريخية بعيدة ، النيل عصب حياتها فللنهر فيها قوة الاله الذى يعيش الناس بأمره ويموتون بأمره وسنفصل جوانب هذا العالم فيما يلى من صفحات٠

والموضوع الثانى مرتبط بعالم القرية أيما ارتباط فهو يعالج تجربة ابن القرية فى نزوحه أو هجرته الى الشمال ٠ ان عصفور الجنوب الذى نشأ على مرمى حجر من خط الاستواء يحمل حرارة قريته ولسعة شمسها الى بلاد الثلج والصقيع وحضارة التكنولوجية المتقدمة ، فيكون له شأن قد يذيب برودة الثلج فيمن يعرفونه الى حين ، وقد يطبق عليه الصقيع فيفر هاربا ، يعود الى الجنوب ، أو يهلك كما هلك عطيل ، أول أول عصفور من الجنوب فتن بنت الشمال بنبله وشجاعته وبساطة ، وخلب خيالها بمغامراته وأسفاره وظلال الغابة والصحراء تعتركان فى سحنته الداكنة ٠

وعالم القرية هو محور رؤيا الفنان على أى الأحوال ، أتاح له النزوح عنها أن يراها بعين جديدة ، انه يعرفها حق المعرفة شبرا شبرا ، ولكن تجربته فى بلاد «تموت من البرد حيتانها» غبشت نظره بضباب شاعرى فاضحى قادرا على تصوير القرية من خلال رؤيا أقل ما توصف بها أنها شاعرية ، تنم عن خيال فذ وأصالة فريدة فى نوعها ٠

وليست عين الراوى فى قصصه بالضرورة عين نازح يعود إلى أهله بعد غيبة ، بل ان الجدة تتوفر فى براءة عين الطفل الذى يرى الاشياء وكأنها خلقت لأول مرة ولذا فقد يكون الراوى طفلا كما فى قصة «حفنة من تمر» ، وقد يكون من أهل القرية التى لم ينزحوا عنها ولكنه يعرف الغريب حق المعرفة ويعرف ما ترى عين الغريب فى القرية ، وهذا هو الراوى العجوز فى « دومة واد حامد »

ان حياة القرية رهن بعطاء النهر ، النهر يحمل اليها النازح والغريب ، والنهر أول ملامحها:

« عام يتلو عاما ٠ ينتفخ صدر النيل، كما يمتلىء صدر الرجل بالغيظ ٠ ويسيل الماء على الضفتين ، فيغطى الارض المزروعة حتى يصل الى حافة الصحراء عند أسفل البيوت ٠ تنق الضفادع بالليل ، وتهب من الشمال ريح رطبة مفعمة بالندى تحمل رائحة هي مزيج من أريج زهر الطلح ورائحة الحطب المبتل ورائحة الارض الخصبة الظمأى حين ترتوى بالماء ورائحة الاسماك الميتة التى يلقيها الموج على الرمل٠ وفى الليالى المقمرة ، حين يستدير وجه القمر ، يتحول الماء الى مرآة ضخمة مضيئة تتحرك فوق صفحتها ظلال النخل وأغصان الشجر ٠ والماء يحمل الاصوات الى أبعاد كبيرة ، فاذا أقيم حفل عرس على بعد ميلين تسمع زغاريده ودق طبوله وعزف طنابيره ومزاميره كأنه الى يمين دارك ٠

ويتنفس النيل الصعداء ، وتستيقظ ذات يوم فاذا صدر النيل قد هبط واذا الماء قد انحسر عن الجانبين ، يستقر فى مجرى واحد كبير يمتد شرقا وغربا ، تطلع منه الشمس فى الصباح وتغطس فيه عند المغيب (٣)٠ وتنظر فاذا أرض ممتدة ريانة ملساء ، ترك عليها الماء دروبا رشيقة مصقولة فى هروبه الى مجراه الطبيعى ٠ رائحة الارض الآن تملأ أنفك ٠ فتذكرك برائحة النخل حين يتهيأ للقاح ٠ الارض ساكنة مبتلة ولكنك تحس أن بطنها ينطوى على سر عظيم ٠

(عرس الزين ص ٢٤ ــ ٢٥)

والنهر يرتبط بحياة أهل القرية منذ طفولتهم فهو مسرح لعبهم ومثير خيالهم ، ان الطفل الراوى فى « حفنة تمر » ينتهى من دروسه فى المسجد فيجرى الى النهر :

« نعم كنت أحب المسجد ٠ وكنت أيضا أحب النهر ٠ حالما نفرغ من قراءتنا وقت الضحى ، كنت أرمى لوحى الخشبى ، وأجرى كالجن الى أمى ، والتهم افطارى بسرعة شديدة وأجرى الى النهر وأغمس

---

(٣) ان النهر فى عالم الطيب صالح لايجرى من الجنوب الى الشمال كما يجرى النيل فى قرانا ، ولكن القرية فيما يبدو تقع على احد تعاريج النهر فى شمال السودان فهو يجرى فيها من الغرب الى الشرق ــ نادن وصف الفيضان بوصف يحيى حقى لنفس الظاهرة فى «دماء وطين» ٠

نفسى فيه • وحين أكل من السباحة ، كنت أجلس على الحافة وأتأمل الشاطىء الذى ينحنى فى الشرق ويختبىء وراء غابة كثيفة من شجر الطلح • كنت أحب ذلك • كنت أسرح بخيـــالى وأتصور قبيلة من العمالقة يعيشون وراء تلك الغابة ••

(دومة واد حامد ص ١٩ — ٢٠)

وفى النهر يهلك أبطال هذا الكاتب أو يولدون من جديد • ويعود الكاتب فى قصصه الى رؤياه الاساسية عن القرية يوضح معالمها ويسوى بناءها، ويضفى عليها من خياله ، ودقة احساسه ما يطبع صـــورتها فى ذاكرة قرائه ، وقد وجدت أجمل تصوير لها فى روايته القصيرة موسم **الهجرة الى الشمال** ، اذ يصفها بعين ابنهـــا الذى غاب عنها زمنا ثم عاد :

تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل• النهر بعد أن كان يجرى من الجنـــوب الى الشمال ، ينحنى فجأة فى زاوية تكاد تكون مستقيمة ، ويجرى من الغرب الى الشرق• المجرى هنا متســـع وعميق ، ووسط الماء جزر صغيرة مخضرة ، تحـــوم عليها طيور بيضاء • وعلى الشاطئين غابات كثيفة من النخل ، وسواقى دائرة ، ومكنة ماء من حين لآخر • الرجال صدورهم عارية ، يلبسون سراويل طويلة ، يقطعون أو يزرعون حين تمر بهم الباخرة كقلعة عائمة وسط النيل يرفعون قاماتهم ويلتفتون اليها برهة ثم يعودون الى ما كانوا فيه • انها تمر على هذا المكان وقت الضحى ، مرة فى الاسبوع ، وما تزال فى ظلال النخل المنعكسة على الماء بقية تتكسر حين يهزها الموج الذى تحدثه محركات البـــاخرة • وتنطلق صـــفارة مبحوحة ، سيسمعها أهـــل ولا شـــك فى دورهم وهم يشربون قهوة الضحى •••• ها هى بيـــوت القرية المتلاصقة من الطين والطوب الاخضر تشرئب بأعناقها أمامنا ، وحميرنا تحث السير لأنها شمت بخياشيمها رائحة البرسيم والعلف والماء • هذه البيوت على حافة الصـــحراء ، كأن قوما فى عهد قديم أرادوا أن يستقروا ثم نفضوا أيديهم ورحلوا على عجل • هنـــا تبـــدأ أشياء • وتنتهى أشيـــاء • ومنطقة صغيرة من هواء بارد رطب يأتى من ناحية النـــهر ، وسط هجير الصحراء ، كأنه نصف حقيقة وسط عالم ملىء بالأكاذيب • أصـــوات النـــاس والطيور والحيوانات تتنـــاهى ضعيفة الى الأذن كأنها وساوس ، وطقطقة مكنة المـــاء المنتظم تقوى الاحساس بالمستحيل والنهر، النـــهر الذى لولاه • لم تكن بـــداية ولا نهاية ، يجرى نحو الشمال ، لا يلوى على شىء ، قد يعترضه جبل فيتجه شرقا ، وقد تصـــادفه وهدة من الارض فيتجه غربا ، ولكنه ان عاجلا أو آجلا يســـتقر فى مسيره الحتمى ناحية البحر فى الشمال » •

(موسم الهجرة الى الشمال ، ص٥٤، ٥٩)

ومن معالم القرية دائمـــا نخلة أو دومة تقوم على ضفة الجدول أو النـــهر ، وتضرب بجـــذورها فى وعى الشخصية ، ممثلة الماضى والتراث •

ان نخلة الشيخ محجوب فى قصة «نخلة على الجـــدول» تعـــادل حياة الرجل نفسه ، ماضيه وحاضره ، وهو يرفض فى شدة إملاقه أن يبيعها لأنهـــا أصبحت قطعة من نفسه ترتبط بأحداث حياته كلها •

وعندما يفتـــح الله عليه ، ويفرج أزمته اذ يصله المال والكساء من ابنه الغائب فى مصر :

انحـــدر طرفه من عل الى غابة النخل الكثيفة عند أســـفل البيوت ، وتميز فى وسطها نخلته ، ممشوقة متغطرسة جميلة تتلاعب بجريدها نسمات الشمال •

(دومة واد حامد ، ص ١٨)

وهو فى أزمته يذكر يـــوم غرس النخلة فى صباح يـــوم من أيام الصيف من شـــتلة صغيرة رماها ابن عمه اسماعيل بعيدا على أنها خالية من «الاضراس» لا تصلح :

فالتقطها محجوب ونفض عنها التراب، وقال لابن عمه ضـــاحكا : باكرتشـــوف تبقى تمـــره زى العجب » •• وعلى حافة الجدول قريبا من الساقية ، شق محجوب حفرة صغيرة وضع فيها «النخيلة» وواراها التراب وفتح لها الماء بعد أن تلا آيات من القـــرآن وردد فى شىء من الخشـــــوع : «بسم الله ، ما شاء الله ، لا حول ولا قوة الا بالله » مثلما يفعل أبوه كلما غرس شـــتلة أو حصـــد نبتا • ولم ينس أن يصب فى الحفرة قليلا من ماء الابريق الذى يتوضأ به أبوه تيمنا وتبركا » ص ١٠

ويزدهر الرجل كمـــا تزدهر النخلة ، فبعد ستة أشـــهر يتزوج وهو المنبوذ الفقير ، وينجب البنت والولد ويجد وفرة من مال ، يربى الضأن ويفلح قطيعه ويزيد ويجلس هو فى السوق كبقية التجـــار ، وهو فى شيخوخته يتمسك بنخلته كآخر مظهر من مظاهر كبريائه وثقته بنفسه •

وفي القصة التى سميت المجموعة باسمها تقوم دومة واد حامد «علما يراه الناس في أحلامهم» فهى تمثل تراث القرية ومعتقداتها يدافع عنها الناس بكل ما أوتوا من قوة ، وتحاول الحكومة وغيرها من السلطات أن تعصف بها ولكنهم يزودون عنها يعاونهم فى ذلك ذباب البقر وغيره من الحشرات التى تتكفل «بتطفيش» كل غريب يحل بالقرية .

ولكن هذه المعانى لم يعلقها الكاتب على مجرد رمز معنوى ، بل أضفاها على دومة حقيقية :

«دومة ود حامد . انظر اليها شامخة برأسها الى السماء . انظر اليها ضاربة بعروقها فى الارض . انظر الى جذعها المكتنز الممتلىء كقامة المرأة البدينة ، والى الجريد فى أعلاها كأنه عرف المهرة الجامحة . حين تميل الشمس وقت العصر ، ترسل الدومة ظلها من هذه الربوة العالية عبر النهر ، فيستظل بها الجالس على الضفة الاخرى . وحين تصعد الشمس وقت الضحى ، يمتد ظل الدومة فوق الارض المزروعة حتى يصل الى المقبرة .» ص ٣٧

وفى **موسم الهجرة الى الشمال** يوحد الراوى بينه وبين النخلة القائمة فى فناء الدار :

« ونظرت خلال النافذة الى النخلة القائمة فى فناء دارنا ، فعلمت أن الحياة لا تزال بخير ، أنظر الى جذعها القوى المعتدل ، والى عروقها الضاربة فى الارض ، والى الجريد الأخضر المتهدل فوق هامتها فأحس بالطمأنينة . أحس أننى لست ريشة فى مهب الريح ، ولكنى مثل تلك النخلة ، مخلوق له أصل ، له جذور . له هدف»

ص ٧ ـ ٨

وهو أيضا يجلس عند جذع شجرة طلح على ضفة النهر يذكر ساعات طفولته التى كان يرقب فيها النهر وما يموج به من حياة ، وهو اذ يذكر حياته فى بلاد الصقيع يذكر جذوره فى قريته وقد حمته من التأزم والهلاك : «هناك مثل هنا . ليس أحسن ولا أسوأ . ولكننى من هنا ، كما أن النخلة القائمة فى فناء دارنا نبتت فى دارنا ولم تنبت فى دار غيرها ..» ص ٤٤

وعندما يغرق الشيخ محجوب فى بحر من الحيرة والذكريات اذا بريح «**قوية هبت تتلاعب بجريد النخلة ، فاخذ يوشوش ويتعارك ويتلاطم كفريق يطلب النجاه** » ص ١٦

والراوى في قصة «رسالة الى الين» قد تزوج من أجنبية فأضحى فى حساب أهل بلدته «**كنخلة على الشاطىء اقتلعها التيار وجرفها بعيدا عن منبتها** » .

ومن معالم القرية الى جانب النخلة والدومة التى تضرب بجذورها فى الارض ، أفراد يضربون بجذورهم فى الماضى ، ولعل أبرزهم شخصية تظهر فى عدد من القصص هى شخصية **الجد** .

ان الجد يهيمن على حياة الطفل وأحلامه فى « حفنة تمر » .

« ولحية جدى كانت غزيرة ناعمة بيضاء كالقطن لم أر فى حياتى بياضا أنصع ولا أجمل من بياض لحية جدى . ولا بد أن جدى كان فارع الطول ، اذ أننى لم أر أحدا فى سائر البلد يكلم جدى الا وهو يتطلع اليه من أسفل ، ولم أر جدى يدخل بيتا الا وكان ينحنى انحناءة كبيرة تذكرنى بانحناء النهر وراء غابة الطلح ...» ص٢٠

ويظهر نفس الجد يحمل نفس المعالم فى موسم الهجرة الى الشمال

«جدك .. ذاك رجل . ذاك رجل.. تسعون عاما وقامته منتصبة ، ونظره حاد ، وكل سن فى فمه . يقفز فوق الحمار ، خفيفا ويمشى من بيته للمسجد فى الفجر . هاه. ذاك رجل » .

ان مصطفى سعيد النازح مقطوع الجذور الذى نزل هذه القرية المجهولة يبحث عن حقل يمد فيه جذره من جديد ، يقول عن حاج أحمد الجد «**انه يعرف السر**» سر البقاء والحياة .

والراوى نفسه وهو الصورة الجديدة لمصطفى سعيد ، هو النازح الذى نجا ولم يهلك لأن له جذورا فى القرية والجد من أولى مميزاتها ودعائمها يقول عن جده :

«وتمهلت عند باب الغرفة وأنا أستمرىء ذلك الاحساس العذب الذى يسبق لحظة لقائى مع جدى كلما عدت من السفر . احساس صاف بالعجب من أن ذلك الكيان العتيق ما يزال موجودا أصلا على ظاهر الارض . وحين أعانقه أستنشق رائحته الفريدة التى هى خليط من رائحة الضريح الكبير فى المقبرة ورائحة الطفل الرضيع . وذلك الصوت النحيل المطمئن ، يقوم جسرا بينى وبين الساعة القلقة التى لم تتشكل

بعد ... نحن بمقاييس العالم الصناعى الاوروبى فلاحـون فقراء ، ولكننى حين أعانق جدى أحس بالغنى ، كأننى نغمة من دقات قلب الكون نفسه .

انه ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع فى أرض منت عليها الطبيعة بالماء والخصب ، ولكنه كشجيرات السيال فى صحارى السودان ، سميكة اللحى حادة الاشواك ، تقهر الموت لأنها لا تسرف فى الحياة . وهذا هو وجه العجب . انه عاش أصلا ـ رغم الطاعون والمجاعات والحروب وفساد الحكام . وها هو ذا الآن يقترب من عامه المائة ، أسنانه جميعا فى فمه ، عيناه صغيرتان باهتتـان تحسب أنهما لا تريان ولكنه ينظر بهما فى حلكة الليل ، جسمه الضـئيل منكمش على ذاته ، عظام وعروق وجلد وعضلات ، وليست فيه قطعة واحدة من الشحم ، يقفز فوق الحمار نشيطا ، ويمشى فى غبش الفجر من بيته الى الجامع »

(موسم الهجرة الى الشمال ص ٦٣)

هذا الجد عمود من أعمدة الحياة فى القرية، يحيط به الأبنـاء والأحفاد والأصدقاء ، وصوته وهو يصلى الفجر ويسبح لخالقه عند انبلاج الصبح يدفع الطمأنينة الى قلب الحفيد ، وقـد عاد من سهرة سمر أو شراب ، وطيفه يزوره فى الحلم يضفى على نفسه الرضا فى بلاد الغربة ، ودلالة واسعة كما نرى من هذه الشذرات القليلة التى أوردناها ، ولكنه فى نفس الوقت رجل من لحم ودم ، تدمع عينـاه من فرط الضحك فيمسح دموعه بطرف جلبابه ، ويكرهه حفيده الطفل فى «حفنة من تمر» اذ يراه يتقـاضى دينه من مدين مفلس ، وبيته بيت حقيقى محسـوس وان كان عميـق الدلالة ، يبسط المعنى فيشمل حضارة الفلاحين لا فى السودان وحده بل فى وادى النيل كله :

هذه الدار الكبيرة ليست من الحجر ولا الطوب الاحمر ، ولـكنها من الطين نفسه الذى يزرع فيه القمح ، قائمة على أطراف الحقل تماما ، تكون امتدادا له .

وهـذا واضـح من شجيرات الطلح والسبط النامية فى فنـاء الدار والنباتات التى نمت فى الحيطان نفسها حيث تسرب اليها الماء من الارض المزروعة . وهى دار فوضى قائمة دون نظام ، اكتسبت هيئتها هـذه على مدى أعوام طويلة : غرف كثيرة مختلفة الاحجـام ، ولكنها ، بنيت بعضها لصق بعض فى أوقات مختلفة ، أما حسب الحاجة اليها أو لأن جدى توفر له شىء من المال لم يجـد وسيلة أخرى ينفقه فيها ، غرف يؤدى بعضهـا الى بعض .. حيطانها ملسـاء مطلية بمادة هى خليط من الرمل الخشن والطين الاسـود وزبالة البهائم ، وكذلك السطوح والأسقف من جذوع النخل وخشب السـنط وجريد النخيل . دار متـاهة ، باردة فى الصيـف ، دافئة فى الشتاء . اذا نظرت اليها من الخارج ، دون عطف أحسست بها كيانا هشا لن يقوى على البقاء ، ولكنها تغالب الزمن بشىء كالمعجزة هذه الدار مصيرها مرتبط بمصير الحقل ، اذا اخضر الحقـل اخضرت ، وحين يجتاح القحط الحقول يجتاحها هى أيضا (ص٦٢)

وصوت الجد هو الصوت الاساسى فى «دومة ود حامد » وهو صـوت ينم عن عطف ورثاء شديدين على الشباب والاغراب الذين يردون الى القرية ، ونـوع من الاستغراب الساخر لألاعيب أهل البندر وغباء أهل السلطـان ، ونغمة حديثه خليط من براءة القروى الساذج وحكمة العجوز الذى جرب كل شىء ورأى السنوات تمر ولا شىء يتغير حقيقة فى طبائع الناس : ـ

وحملونا الى السجن . ومضى علينا شهر . وذات يوم جاء الجند أنفسهم الذين سجنونا ففتحوا علينا الأبواب . وسألناهم ما الخبر . فلم يكلمنا أحد . ولكننا وجدنا حشدا كبيرا خارج السجن ـ أول ما رأونا هتفوا ونادوا وعانقنا أناس نظيفو الثياب، تلمع على معـاصمهم ساعات مذهبة وتفوح نواصيهم برائحة العطر .. ونظر بعضنا الى بعض دون أن نفهم ما يدور حولنا ، الا أن سـواعدنا كلت من طول ما صافحت من أولئك الرؤساء النواب» (دومة ود حامد، ص ٤٨ ـ ٤٩)

والى جانب الشـيوخ تحفل القرية بالأعمام والأقارب ، والجيران ، فأهل البلد « قبائل » أى أسر وعشـائر ولكن تجمعهم وحدة عضوية هى البـلد ، ويعرف الجميع بعضهم بعضا ، وخير ما يفعله الغريب كى يقبلوه عضوا منهم أن «**يسرع بذراعه وقدمه فى الافراح والاتراح**» فاذا اطمأنوا اليه أصبحت **عشرتهم سهله** ، وان كان كبـارهم لا يحبذون أن تزوج قبيلة بناتها من غريب .

وفى البلد دائما نواة صلبة من الرجال ، يحملون كثيرا من المسئوليات ، وقد سماهم الكاتب فى **عرس الزين** بالعصابة ، أو بالأحرى هم سموا أنفسهم وهم أتراب الراوى فى **موسم الهجرة الى الشمال** حتى أن بعضهم يحمل أسماء بعض أفراد العصابة :

كان لكل واحد منهم حقل يزرعه ، فى الغالب أكبر من حقول بقية الناس، وتجارة يخوض فيها • كان لكل واحد منهم زوجة وأولاد • كانوا الرجال الذين تلقاهم فى كل أمر جليل يحل بالبلد كل عرس هم القائمون عليه ، كل مأتم هم الذين يرتبونه وينظمونه • يغسلون الميت فيما بينهم ، ويتناوبون حمله الى المقبرة • هم الذين يحفرون التربة ، ويجلبون الماء ، وينزلون الميت فى قبره ، ويهيلون عليه التراب ، ثم تجدهم بعد ذلك فى «الفراش» يستقبلون المعزين ، ويديرون عليهم فناجين القهوة المرة • اذا فاض النيل أو انهمر سيل ، فهم الذين يحفرون المجارى ، ويقيمون التروس ، ويطوفون على الحى ليلا وفى أيديهم المصابيح ، يتفقدون أموال الناس، ويحصرون التلف الذى أحدثه الفيضان أو السيل • اذا قيل ان امرأة أو بنتا نظرت نظرة فاجرة الى أحد ، فهم الذين يكلمونها وأحيانا يضربونها • لايعنيهم بنت من تكون اذا علموا أن غريبا حام حول الحى حول المغيب، فهم الذين يوقفونه عند حده • اذا جاء العمدة لجمع العوائد فهم الذين يتصدون له ، ويقولون هذا كثير على فلان ، وهذا معقول وهذا غير معقول •• والآن وقد قامت فى البلد مدارس ، ومستشفى ، ومشروع زراعى ، فهم المتعهدون ، وهم المشرفون ، وهم اللجنة المسئولة عن كل شيء •• (عرس الزين ص ٦٣ ــ ٦٤)

ومن مظاهر التعسف فى تفسير النصوص أن يذهب باحث الى أن العصابة تمثل الطبقة الوسطى فى البلد ، وأن الزين بطل القصة خطر عليها (٤) وأن الكاتب يتنبأ بنهايتها ، ويطبق عليها كل ما يكتبه الاشتراكيون عن البورجوازية ! والواقع أن من يقرأ قصص الطيب صالح بعين محايدة وذهن مفتوح يدرك أن الكاتب يكن لأفراد العصابة وأمثالهم من الشخصيات التى تتكرر فى قصصه كل اعزاز وتقدير ، وأنهم فى نظره عصب الحياة فى عالم القرية هذا ، وأن نمط الوصول بالنسبة للزين بطل هذه القصة يتلخص فى أنه بدأ أضحوكة ورجلا لا وزن له وانتهى فى آخر المطاف عضوا فى « العصابة » •

ان عنصر القوة والأصالة فى قصص الطيب صالح يرجع أساسا الى قوة خياله وعمق احساسه بعالم القرية الذى أنبته ، ولكنه يعتمد كذلك على بعده عن الكليشيهات والأنماط المحفوظة ، التى تفسد قيمة كثير من الادب الانسانى الحديث • ان ثراء محصوله اللغوى وقدراته التخيلية، وعمق دلالة الصور عنده ، كل ذلك مازال بكرا لم تفسده قوالب وأنماط معاده •

ان عالم القرية كما أسلفنا وحدة عضوية متماسكة وليس ما يهددها الاقطاعى الكبير الذى ألفناه فى كل ما يكتب عن الفلاح فى زماننا ، وانما يهددها الموظفون بملابسهم النظيفة ، والساعات الذهبية تلمع فى معصم الواحد منهم، يتشدقون بألفاظ لا يفهمها القرويون ، وتهددهم المدينة فى شكل نواب وساسة وأفاقين يقومون بالثورات باسمهم ، ثم يقيمون تجارة وعمارة ، ويهرب الواحد منهم من حر أفريقيا فى الصيف الى بيت على بحيرة لوكارنو ، « وزوجته تشترى حاجاتها من متجر هرودز فى لندن ، تجيئها فى طيارة خاصة ! »

وقد يتكفل الحر الذى لايطاق وأفواج الذباب والحشرات بابعاد الموظفين رسل الحكومة عن القرية ، ولكن الى حين ، وهم لا بد آتون فى يوم قريب أو بعيد •

وتبدو أصالته كذلك فى تصوير الشخصيات، ان الفلاح الفقير الذى يستولى الدائنون على محصوله الجيد عند الحصاد شخصية نعرفها جيدا فى أدبنا وفى « حفنة من تمر » تدور حبكة القصة حول عملية الاستيلاء هذه ، فالدائنون يجتمعون لشهدوا حصاد تمر مسعود (وتقوم أكياس التمر بدور أكياس القطن فى أدبنا) ، ويتجمع الخلق يشاركون فى الحصاد ولكن مسعودا صاحب المحصول يقف بعيدا كأن الأمر لا يعنيه ، ويجتمع التمر أكواما عالية ، ثم يكال ويصب فى أكياس يعد منها الطفل الراوى ثلاثين كيسا ، وتوزع الاكياس على الدائنين ، عشرة للتاجر وخمسة لكل دائن ويذوق كل منهم تمرة أو تمرتين ، ولكن مسعودا يملأ راحته من التمر ويقربه من أنفه ويشمه طويلا ثم يعيده الى مكانه،

---

(٤) أنظر مختار ابراهيم عجوبة ، القصة القصيرة وتطورها فى الادب السودانى الحديث ، رسالة ماجستير من جامعة القاهرة ، كلية دار العلوم د.ت. ص ٣٠٢ .

فهو الوحيد الذى لا يذوقه . ويحمل الدائنون الاكياس، ويقف هو وحده صفر اليدين ، ويشعر الطفل بالعطف نحوه فيمد يده كأنما يود أن يلمس ثوبه فيسمعه (**يحدث صوتا فى حلقه مثل شخير الحمل حين يذبح** » .

ويتعاطف القارىء كما يتعاطف الطفل مع شخصية مسعود ويشعر نحوه بالأسى ، مع أن مسعودا ليس الفلاح المسكين المغلوب على أمره انه على العكس من ذلك وارث ضيع ارثه ، فهو ينتمى الى ذلك العدد الغفير من الورثة الحمقى الذين نعرفهم فى **ألف ليلة وليلة** ، لقد ورث عن أبيه حقلا واسعا يمتد من طرف الصحراء الى حافة النيل ونخلا وشجرا كل ذلك كان له حلالا باردا. يقول الجد لحفيده :

« نعم يا بنى . كانت كلها قبل أربعين عاما ملكا لمسعود . ثلثاها الآن لى أنا ... ولم أكن أملك فدانا واحدا حين وطئت قدماى هذا البلد . وكان مسعود يملك كل هذا الخير . ولكن الحال انقلب الآن ، وأظننى قبل أن يتوفانى الله سأشترى الثلث الباقى أيضا » .

ويذكر الطفل غناء مسعود وصوته الجميل، فيشعر نحوه بالرثاء وهو به معجب لضحكته القوية – فالجد الرهيب لا يضحك – ويزداد عجبه عندما يعلم أن آفة محجوب التى ضيعت أرضه وماله كانت «النساء» فهو رجل مزواج ، وفى كل مرة يدخل على زوجة جديدة يبيع لجاره فدانا أو فدانين !

وبالرغم من كل الدروس التى تعلمناها من قصة لافونتين عن النملة والصرصار المغنى ، فاننا لا نملك الا أن نشعر بالتعاطف مع مسعود صاحب «المزاج» والصوت الجميل والاحساس المرهف بأن للنخلة قلبا يتألم كما يتألم الانسان .

ان تفرد الشخصيات وتحطيمها لكثير من القوالب والانماط الشائعة ظاهرة واضحة فى عالم هذا القصاص ، ولعل من أسبابها أن التغير اذ يصيب هذا العالم يؤثر فى بعض جوانبه دون البعض الآخر . ان حتمية التغير ماثله لا ريب فيها ، فحتى ذلك المتكلم العجوز فى «دومة واد حامد» الذى يقص علينا خبر الدخلاء على القرية من موظفين ووعاظ وحكام ، وكيف عادوا أدراجهم وقد تورمت وجوهم من لسع ذباب البقر وغيره من الحشرات ، حتى هذا العجوز يعرف أن التغير آت لا ريب فيه ، فقد هرب ابنه الى البندر ودخل المدرسة ويقول الرجل :

« حين يتخرج ابن ابنى من المدرسة ويكثر بيننا الفتيان غرباء الروح ، فلعلنا حينئذ نقيم مكنة الماء والمشروع الزراعى .. لعل الباخرة حينئذ تقف عندنا .. تحت دومة واد حامد » .

ولكن قرى أخرى قبلت هذا التغير ، وبالذات القرية التى تمثل عالم القصاص ، قد أرسلت أبناءها الى البندر ليتعلموا ، وذهب بعضهم فى النزوح الى الشمال حتى بلاد الصقيع . والباخرة تقف على رصيف المحطة مرة فى الاسبوع تأتى بالنازحين ، « **والبلد يتغير فى بطء ، راحت السواقى ، وقامت على ضفة النيل طلمبات لضخ الماء ، كل مكنة تؤدى عمل مائة ساقية** » .

ورجل درس فى أوروبا علم أهل القرية أن ينشئوا جمعية تعاونية ، ويطالبوا بمدرسة ومستشفى وينظموا حسابات المشروع ، وكرهه التجار والعمدة لأنه فتح عيون أهل البلد وأفسد عليهم أمرهم (ومن الطريف أن هذا الرجل الذى أفاد البلد بكل هذا ليس بطلا ، لكنه قاتل وانسان شقى)

ولكن هذا التغير فى جوانب الحياة الماديه لم يغير من طبيعة العلاقات الاجتماعية فى القرية ولا من وضع المرأة فيها : **«الراجل راجل وان كان بى رياله ، والمره مره وان كانت شجرة الدر »**

(عرس الزين ص ٥٨)

وليس مثل هذا الكلام قاصرا على الشخصيات «الرجعية» فى القصص ، بل ان شخصية «قيادية» مثل محجوب فى **موسم الهجرة الى الشمال** يعتقد نفس الشىء ويؤكده فى رده على الراوى :

أنت تعرف نظام الحياة هنا . المرأة للرجل ، والرجل رجل حتى لو بلغ أرذل العمر .. الدنيا لم تتغير بالقدر الذى تظنه . تغيرت أشياء . طلمبات الماء بدل السواقى ، محاريث من حديد بدل محاريث الخشب. أصبحنا نرسل بناتنا للمدارس. راديوهات أتومبيلات . تعلمنا شرب الويسكي والبيرة بدل العرقى والمريسة لكن كل شىء كما كان » ص ٨٤

والتناقض بين أنماط العلاقات المتغيرة والثابتة على حالها هو منشأ الحدث فى كل من **عرس الزين وموسم الهجرة الى الشمال** .

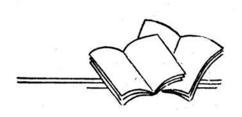
والفتـــاة نعمة فى القصة الاولى تذهب الى الكتاب وتتعلم كما يتعلم اخوتها ، وتستقل برأيها وترفض خطابها ، وتفرض احترام رأيها على أبيها وأمهـا واخوتها ، وهى تنظر الى الزين ابن عمها بعين تختلف عن عيون الآخرين ، وتختاره لنفسها زوجا فتذهب اليه وتفاتحه فى الامر ، بل تكاد تأمره بالزواج منها ، فتكون دهشة أهـــل البلد ولغطهم الذى يكون عنصر الحركة فى القصـــة ، وينهى الحدث هنا بنهاية سعيدة لان الفتاة وان حققت ارادتها واختارت بنفسها زوجها ، لم تخرج كثيرا على نطاق الانماط المتعارف عليها لأن «المره مره، والراجل راجل وهى على أى حال بنت عمه؟»

أما حسنة بنت محمـود فى **موسم الهجرة** فصورة أخرى من نعمة ولكن نهايتها فاجعة لأنها تصطدم بتقاليد القرية التى لم تتغير مع أنها هى تغيرت ، ومع أن فى القرية رجالا تغـيروا! ولكن لا حول لهم ازاء أنماط العلاقات فى البلد . انها منذ طفولتها مختلفة عن أترابها : « طفلة شرسة تتسلق الشجر وتصارع الاولاد ... كانت وهى فتاة تسبح معنا عارية فى النهر »

وتتغير حقا عندما تتزوج من مصطفى، النازح الذى عاد من رحلته الى بلاد الشمال بجناح مكسور وقلب دام ، انها تتغير وتصبح «مثل نساء المدن» وترفض بعد موت زوجها أن تقبل الزواج من غيره وبالرغم من استقلالها اقتصاديا، اذ تركها زوجها حرة التصرف فى ماله ، بالرغم من ذلك فان أباها واخوتها يفرضون عليهـا زوجا ناهز السبعين ، وهى تهدد أن تقتله وتقتل نفسها فلا يحفل أحد بوعيدها ، وتذهب بنفسها الى أم الراوى، الوصى على أبنـائها ، وتطلب اليهـــا أن تبعث الى ابنها ترجوه أن يعقد عليها ويتركها فى بيتها كى يقيها شر الطامعين فى الزواج منها ، فتستنكر الأم منها ذلك التصرف ولا تبلغ ابنها رجاء المرأة اليائسه، وفى النهاية عنـدما تقتـــل الزوج الشيخ الذى حملت الى داره على رغمها ، وتقتل نفسها يبصق الجميع على ذكراها ، ولولا الرأفه بأبيها وأهلها لألقوا بجثتها للصقور فى الصحراء ، تنهشها ، ولا يرثى لها الا ذلك النازح الذى قضى فى أوروبا سبع سنوات فأضحى صورة جديدة من مصطفى سعيد ، زوجها الذى رحل ، ولكنه لم يملك القوة ولا العزم أن يرفـــع من أجلها يدا ، فى مواجهة البلد وتقاليده القديمة وعلاقاته الاسرية والقبلية المتشابكة فى نسيج من فولاذ .

وهكذا يعود بنا الحـديث بدوره الى عصفور الجنوب ، طائر أفريقيا النازح الى الشمال، العائد الى بلده ظافرا كان أو كسيرا ، وهو الآخر متفرد فى نوعه مختلف عما ألفنا من أنماط فهو لاينطوى تحت جناح محسن عصفور توفيق الحكيم، بخجله واستغراقه فى التأمل وارتباكه وضعفه أمام نساء باريس ، ولا تحت لواء عطيـــل بنبله ونقـــائه وسذاجته الفطرية وهو خـــير تصـوير للهمجى النبيل فى أدب الغرب .

والواقع أن هذا **البطل** أو املا ــ بطل الجديد فى أدبنا العربى جدير ببحث مستقل ، فلم يكن همنا فى هذا المقـال الا التعريف ببعض جوانب ذلك العـــالم الزاخر الذى قدمه الطيب صالح الى قراء القصـــة العربية ، عالم القرية العربية فى السودان ، فأثرى به لا تراثنا القصصى وحده ، بل وعينا المفصل بأجزاء ذلك الوطن الكبير ، وطن اللغـــة العربية ، وأثار من المشـــاكل الفنية والتـــكنيكية ما يستـنفر النقـاد الى عديد من الدراسات باذن الله .



تونس

بى خفض

بقلم : محمد العروسى المطوى

كانت « تاتوتى » حدا حادا · وكانت «بابوبى» هوة هاوية ، وكوة غاوية ·

واختلط عليه اللبن ، فأحس بحموضة الخليط تكشط لسانه حتى جعلته لا يحلو له الطعم ، ولا يستسيغ الذوق · وشيئا فشيئا استحال لسانه جلدة حرشاء يابسة ، فكان عليه أن يغير لسانه ·

·· تذكر أن أمه شتمته ذات مرة بأن لسانه لسان كلب ···

ومن يومها التصقت عيناه بألسنة الكلاب حين تنبح ، وألسنتها حين تلهث ، وألسنتها حين تتلمظ بعد أن تفرغ من مشاش ، أو عندما يسيل لعابها أمام حلقة الآكلين ، أو قصعة « الموسم » ·

« ·· لماذا كان الوشام على ساعد أمى يشبه لسان الكلب ؟!

لكنه عندما أصبح « يدرك » بعد أن وجهوه الى « الادراك » حاول أن يقارن بين ألسنة الكلاب وبين الوشام الذى « يزين » ساعد امه ·

« ·· أمشاج ! ·· أحابيش ! ·· هم أيضا قدموا من الخارج ·· لا ·· انهم محراث مطيع ·· لكنه يحرن أحيانا ·· لقد اشتبه على الدخيل فالتات ·· حاول طمس الحقيقة ·· أن يطوى المراحل ·· أن يشوه ·· أن يتغلب على «تاتاة المزرعة » ·· ومن يدرى ؟ · فلعله كان على «حق» ·· لعل الاسلم اتباعه »

« ·· أمى بقرة حلوب ·· أرضعت اخوتى ·· بخلت على ، على أنا ·· لم يعجبنى وشامها ·· كانت تغرى به الفرسان من شباب «الدوار» وصعاليك « الدشرة » ·· أبى نفسه غره الوشام ·· اندق قلبه لذلك الرسم ·· لماذا ربطت أمى بين وشامها وبين لسانى ولسان الكلب ؟! » ·



حين دفعته أمه الى معلم القرية كان لسان المعلم أمرا آخر ٠

« بابوبى » هى الكل ٠٠ انها ولدت الشمس ٠٠ انها بنت النهر ٠٠ انها الحضن الحانى ٠

« بابوبى » لها سحر ! ٠٠ هذا اللسان الذى يلفظها لا بد أن به سحرا ، فتنة ، اغراء

وحاول أن يقلد ٠٠ حاول أن يحرك فكه الاعلى عندما حرك فكه الاسفل كان نتاجه « تاتوتى » وعند ما حرك فكه الاعلى كان نتاجه « بابوبى » « بانصب ــ بو رفع ــ بى خفض » ٠

وأخذ يلوك درسه ٠ وأغراه المقطع الاخير « بى خفض » فالتصق بلهاته ٠

خيل اليه أن فى « بى خفض » تكمن العبقرية والسر ، والعظمة ! ٠

« ٠٠ لكنى لا أستطيع لذلك نطقا ! ٠ » وروض لسانه مرات ومرات ٠ وحاول أن يعيد « البأباة » ٠ وجرب حظه مع « البركة » فتصنع السباحة والقفز ، والطفو ، والرسوب ٠

وتدلى له من السلحفاة لسانها :

« هذا لسان آخر لم أعرفه من قبل ٠٠ لو أخذت منه قطعة ورقعت بها لسانى ! ٠٠ بالتأكيد سأكون شيئا آخر ٠٠ شيئا سيئا أو حميدا ٠٠ رخوا أو يابسا ٠٠ أليست « البأباة » تقتضى النكران والجحود لمن أراد أراد لها حذقا؟ ٠٠ أليست مدعاة التقليد ومهوى الانسلاخ ؟ ٠٠ »

وخرج من عمق الماء ليجد الطحلب يسد عليه السطح ، يعلو صفحة « البركة » وأحس بضيق نفسه ففتح فمه ليعب هواء فكانت صفحة الطحلب التصاقا بلسانه ، ودهانا على لهاته ٠

وغاص يبحث عن السلحفاة ، فلوحت اليه بلسان لزج ٠

« ٠٠ بى خفض ٠٠ أنا منك ، وطوع أمرك »

وعانقته يحدوها الشوق الى المسخ والتحلل ولم يكن منه الا أن استسلم ٠

« ٠٠ ابنة عمى فى « الدشرة » كفها خشنة عقبها مفلحة ٠٠ جلدتها « قرداش » ٠٠ وأنت يا أمى ! لا ٠ أعوذ بالشيطان ٠٠ ان جلدتك حرشاء ٠٠ ان كفك حرشاء ٠٠ انك لست فى رطوبة الطحلب ٠٠ انك لست فى لزوجته٠٠ انظر يا صالح ! يا خالتى مسعودة ! ٠٠ يا دادا ربح ٠٠ » ٠

وأتت أمه تحمل قدح اللبن ، محصول النعجتين فى أول صيف أغبر كاد يأكل النعاج ويقضى على المعزات ٠

وقرب القدح من فيه فكاد يغشاه دوار ٠كانت رائحة الاكليل والسعتر تبدو له ــ زمن سذاجته ــ عبق الطيب ، وشذى الورد ٠ فما بالها اليوم تبدو له في نتونة الحرمل و « الدزياس » ٠

وأعاد القدح ، وغثيان غريب يزيغ بصره ٠ وتأفف عنجهية وتكبرا ٠ وكاد يجهر باللعنة لكنه تذكر ٠٠ تذكر أن لسانه أصبح غربة ٠٠ أن كلامه أصبح رطانة ٠٠ ان ذوقه أصبح طحلبا ومثلت أمامه السلحفاة ،وانتشر الطحلب ،وتلوى « النهر » ، فاهتز ، واصفر لونه ٠

انه لم يعد من أهل « الدشرة » ٠٠ أنكر القرية والناس !

وانداح بصره على الريف الكالح والهضاب الجرداء فازدادت به الغربة ، وغمره الانفراد والضيق .

انه لم يعد من أهل « الدشرة » .. أنكر الاهل والعشيرة .

ومد رجليه متثاقلا فهمزته سمارة جرد الحصير فأحس أن جلده انغرز ابرا ودبابيس .

انه لم يعد من هذه التربة التي لامست جلدته ذات عهد اعتبره بترا من وجوده .

وفي سوق « الدشرة » انهالت عليه القبل من شوك اللحى ، وقتاد الشوارب ، فتحمل على مضض ، وسكت مغلوبا عليه .

وأصمت أذنيه كلمات التساؤل والالحاف و «الوشحلة» فخيل اليه انه متكلم بين عجماوات وخيل اليه أن في امكانه أن يهرب ، أن يفر من مجمع العجماوات هذا .. لكن جلدته أبت عليه . انه لا يستطيع التنكر .. ان أثر الوشام يعلو جبينه ، فكيف يتخلص منه ؟ . لقد حاول ذلك مرة فتزلعت جبهته ، ونغل جرحه ، ومكث أسبوعا كاملا في غرفته بالحي الجامعي يشكو همه ، ويئن يومه ، ثم أقلع يأسا واستسلاما ولكنه تذكر أن « زلعته » لم يبق لها أثر في نفسه منذ أن مر عليها لسان السلحفاة اللزج لحسا لينا لذيذا ، فأصبح من لحظتها يحمد تلك « الزلعة » . واستبطنها عنده دون أن ينكرها تماما مثلما استكان الى « حروشه » لسانه .

وتمادت به ساحة « الدشرة » الى دكان الشيخ علي ، عدل القرية ، فوقع بصره على معلمه الاول في « البأباة » . وحسب أنه وجد ضالته ، وأن غربته ستتقلص شيئا ما . وانطلق يرتطن كمن أفلت من قيده ، واذا معلمه الاول ينكره كما أنكره الآخرون .

كانت كلمة معلمه الاول :

« مرحبا يا ابني .. سعدت بك القرية .. لكنني لم أربك لهذا .. أسفي على عرق عقيم ، وجهد ضائع ... »

ورجع أدراجه ينكر معلمه الاول كما أنكره :

« انه – اذن – لم يفلح .. انه النشاز .. تعست تربية لا تغير المألوف ، ولا تدفع الى جديد ولو الى البتر ، ولا تخلق أصالة ولو من فراغ »

وتاه به المسرب الى خارج « الدشرة » واذا الصخرة العجوز ما تزال كما يعهد :

« هيه ! . انها ما تزال كما هي ! .. موت مستمر .. جمود متواصل ! . كم جلست عليك لأعيد « بأباتي » الأولى .. لكنني تغيرت .. أصبحت شيئا آخر .. أنت أيضا لا تفهمين رطانتي .. تماما مثل أبي وأمي ومعلمي الاول .. هذا لا يمكن ... لا يطاق .. لا بد من عمل – اذن – حتى تزول الغربة .. الغربة ! .. غربة من ؟! . لأعملن النماذج .. نماذج من النمط الآخر ، لسانها أحرش ، لهاتها حرشاء ..»

وتراءت له السلحفاة في حافة المستنقع الآسن ، فارتاعت فرائصه ، وتراجع .

« .. لا .. لا .. لسانها لزج ، يعلوه الطحلب .. لهاتها من طين ، رضابها مرجين »

وقهقه عاليا :

« يا للروعة ! .. انه الشعر .. انه النمط المفقود .. وجدتها ! .. وجدتها ! .. »

وفوق الصخرة العجوز اهتدى الى فلسفة الخلق وسنة التكوين .

وعلى جرد الحصيرة انتابته اغفاءة ، واذا هو عملاق بين جعلان ، فصاح في « مملكته » وبين « رعاياه » :

« .. أيها .. أيتها الرعية .. لأجعلن منكم خنافس الطليعة .. لتكونن خلقا آخر ... ولتصبحن ذبذة وطيشا .. ويومها ! . يومها أجد الفاهم اللبيب .. الفاهم الذي أفهم ، والمفهوم الذي أنا فاهم . »

ومد أصغر الجعلان بجناح أعرج ، وقال للعملاق :

– انا على السمع والطاعة .. ولكن لنا شرط واحد .

فانتفخت أوداج « العملاق » زهوا ، وقال :

– وما هو شرطك ، يا زينة الجعلان .

فأجابه الجعل الصغير :

– ألا تقربنا من الورد .

قال « العملاق » :

– صدقت .. انك تنطق بالحكمة .. لكنني أخشى أن تكون تصدر عن رجعة .. عن كلمة قيلت .. « ان ريح الورد تؤذي بالجعل » .. ولكن اسمعوا ، أيها الابطال المنتظرون .. رغم ذلك ورغم كل شيء فأنا ماض الى خلق آخر .. »



الشيخ جمعه

بقلم: رابح بونار

أف من هذه المهنة التي تجهد فكرى ، وتحطم أعصابى ، قال ذلك بزفرة حارة ، ونفس متقطع، وأخذ يذرع ساحة المنزل جيئة وذهوبا ، ويلتفت يمينا وشمالا ، وفى الفينة بعد الفينة يحدق فى الحجرة الدانية منه ليرى مبلغ نشاط العم شعبان فى غسل الفقيد المتوفى وكانت الحجرات المصاقبة لها تموج بحركة غير عادية فى هذا اليوم •

هناك صبيان وصبايا يتصايحون ونساء يتباكين ويتأوهن على وفاة العزيز الفقيد : عمى السعيد ، كان الشيخ يسير فى الساحة بغير انقطاع وآثر الاجهاد والسهر تبدو عليه ، وأمارات الضجر والقلق تخترم اوصاله •

انه بات ليلة كاملة يقرأ القرآن ، ويدعو للمرحوم بالغفران وحسن المثوبة ، ولم يكن ينى عن القراءة هو وطائفة من زملائه طلبة القريه طول الليل الا حينما تقدم اليهم القهوة والشاى وبعض المرطبات ليتناولوها ، ويستعينوا بها على طرد الخمول والنوم عن أجفانهم ، أو حينما يتقدم عمى شعبان لانشاد أماديحه ، وتحزين القلوب بعظاته، فى ذكر الموت وتصوير أهوال القبر ، وضروب ما يتلقاه المؤمنون من مبرات وحسن مجازاة •

كان الشيخ جمعة فى هذه القرية ناجحا كل النجاح ، مبجلا من أهاليها جميعا وكان مرجعهم فى خلافاتهم ، وامامهم فى صلواتهم وكان الى ذلك كله واعظا مؤذنا ، ومشيع جنازات ، وهل يسعه أن يتخلف عن دعوة أحدهم ؟ ان جرايته السنوية تتوقف على كل فرد من أهاليها ، فليكن الشيخ مرنا مطواعا ، وليلب رغائب الجميع •

كان الشيخ جمعة يناهز الخمسين من عمره ، ربعة أسمر اللون كث اللحية ، وقد علت فوديه بعض شعرات بيض كنذير شؤم وادبار ، رغم أن عضلاته مازالت مفتولة ورغم أن جثمانه يبدو لعين المتوسم كأنه جثمان فتى لا يتجاوز الثلاثين •

ولم يكن يساوره الشك بأن عهد شبابه قد فات فهو لا يفتأ يستقبل المرآة كل صباح مصوبا ومصعدا فى ملاحظة لحيته ، وانسجام شواربه واستقامة عمامته ، ونظافة ثيابه وكيف يتيسر له ان يغفل عن الاحتفال بهندامه ، وهو محط انظار أهل القرية جميعا ، وقد آلى على نفسه أن لايخرج من منزله صباحا حتى يكون مظهره عقلة الأنظار، لحية مقصوصة ممشوطة ، وشارب محفى مقوس، وعمامة بيضاء مكورة بنظام على رأسه ، وقميص أبيض فضفاض ونعل رفيع خفيف ، وعصا معقوفة تداعبها أصابعه •

ولكنه فى هذا اليوم يبدو مربد الوجه ، منفوش الشعر •

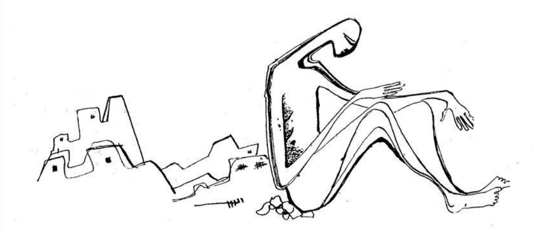
وكيف يتأتى له أن يزين نفسه وقد واصل ليله بنهاره فى توديع المرحوم الى مقره الأخير ؟

أكثر الشيخ جمعة من الدوران ، ولم يستطع البقاء ازاء حجرة المتوفى ليساعد الغاسلين كما جرت عادة من قبله ، وكيف يصبر الشيخ على الوقوف بالحجرة فى أمواج الروائح الكريهة التى تنبعث منها ، وكيف يعتذر عن الفرار من الحجرة ان لم يجد علة مقبولة تبيح تخلفه ؟ ••• أطل على الغاسلين وقد كاد يغشى عليه ثم صاح فى وجوههم عجلوا ، ان من السنة الاسراع فى غسل الميت ودفنه •

ـ لقد عملنا جهد المستطاع يا شيخ ! وسوف نتم غسله بعد قليل •

ـ عجلوا واذكروا الله عند الغسل وتناسوا مشاغل الدنيا ، وعاد الى سبحته واستند الى الجدار القريب •

ـ كلامك طيب وسديد • أجابه «عمى شعبان»



وهو يهوى بيديه على جثمان الميت فى حركات متوالية ، وكانت الستون سنة التى جاوزها لم تؤثر فى عضلاته وقواه وحينما يشعر بالتعب يزعق فى وجوه أعوانه : ناولونى الصابون أعدوا نصيبا من العطور أحضروا الكفن ، وكان الروائح التى تعكر الهـواء فى الحجـرة ولا تفتأ تداعب مسامه ومسام أصدقائه لا تعنيهم فى شىء وأى ضير عليهم فى مثل ذلك ، وقد تخدرت حواسهم الشمية ، حتى أصبحت كأنها عديمة الاحسـاس وكان عمى شعبان يرطب لسانه بذكر الله فى بعض الفترات ، ولكنه وهو أمام زميل صباه كيف ينسى ذكرياته معه فى مختلف الجهات ؟ حدق فى وجوه أعوانه والأسى يعلو محياه ، والذهن قد شرد به الى أعماق الماضى ثم صاح بتنهد :

ان أنسى يا اخوانى فلا أنسى ما وقع لى مع المرحوم فى (متيجة) أيام كان الفقر يكسـونا جميعا ، أذكر يا سادة ان المرحوم قد ذهب بنا الى المعمر « جاك » فى نواحى العفرون فعملنا عنده أياما عديدة ، وكنا نتحين غفلاته ونسرق عنبـه لنبيعه للسابلة ، أو للأهالى الدانين منا ·

ــ نذكر ذلك يا عمى شعبان وقد وقع لكل واحد منا مثله ، يا لها من ذكريات حلوة لا يمكن أن تعود ! واسترسل عمى شعبان فى حديثه :

اننـــا كنا نفوض جميع أمورنا الى المرحـوم لمهارته ، وحسن حيلته مع الكافر أواه أواه على تلك الأيام ، ونظر الى رجله وضربها بيده مغرورق العينين صائحا : يالك من رجل لطيفة طالما مشيت بجانب رجلى هذه فى قطع هذا الوادى الذى ترونه صباح مساء ·· فى الليالى الحالكة لسرقة عنب ذلك المعمر البغيض السيد « روجير » ، وكنا ننجح بحمد الله فى السرقة ، ونعود دائما غانمين سالمين، أواه أواه على تلك الأيام ، لقد مضت ومضى أهلها الأخيار ·

ــ نعم يا عمى شعبان · ان ذلك الزمان لايمكن أن يعود ·

ــ هل تذكرون يا سادة يوم ذهبنا أنا والمرحوم وعمى مسعود بستة بغال وملأناها من ثمار مسيو « جاك » ولما عدنا الى القرية اعترضنا كثير من حراس البيادر فأعطيناهم وأشركناهم فى غنائمنا، أليس ذلك نهاية التسامح والاشتراكية ؟ ورفع رأسه باعجاب ، وتطلع يمنة ويسرة ، والزهـو يهز نفسه هزا وهتف فيهم ابدوا رأيكم · فقال الجميع : لا يجاريكم أحد فى أعمالكم هـذه ؟ ان الطيبين لا يصدر منهم الا الطيب وكان الشـيخ جمعة قد اقترب من الباب بعد أن زم أنفه وتسرب الى سمعه ما يخوض فيه عمى شعبان فأجال نظره فيهم ثم صاح :

ــ لا شك أن شيطانا ينطق عن لسانك فى هذا اليوم يا عمى شعبان ؟ اعرض عما فات من الذنوب واستقبل هذا اليوم بالذكر الحميـد ، عجل اسرع ·

ــ ان التشديد فى الدين مذموم ؟ ، ونحن نذكر ذنوبنـا ، ونسـتغفر منها لتغفر لنـا ، هلا تفضلت يا شيخ لترشدنا ؟ فهمس الشـيخ غاضبا :

ــ يا له من خبيث ماكر ، لقد صدعنا بثقله ، وأرهق المرحوم بهـذيانه اننى أعانى برحاء من ثقله ، وابتعد قليلا ثم صاح اعذرنى ياعمى شعبان، فانى مريض ومزكوم بأشد زكام ، وسمع صراخ الصـبيان والصبايا وبكاء النسـاء فى الحجرات المصاقبة فهرول اليهم ليسكتهم ويسليهم وقال

مطأطىء الرأس، خفيض الطرف، اصبروا وفوضوا أمركم الى الله سبحانه ، فانه يجير المصابين ، ويداوى المكلومين ، ان المرحوم عزيز علينا جميعاً رحمه الله ولكن أى انسان يبقى فى هذه الحياة ؟ استعيضوا عن الفقيد برحمة الله ولطفه ... وعاد مهرولا وهو يسبح ويحمد الله ، وينتظر لحظة التشييع بشوق لافح ... وكم كان يعتلج فى نفسه من غيظ على الغاسل المتثاقل الذى ربطه بحبال من حديد ، الى هذا الجو الخانق .

استند قليلا الى الجدار وهو يهمس بكلمات مبهمة ، وعيناه تطرفان لمداعبة النعاس لهما ، وأذناه تتحسسان حركات الغاسلين والمارة بجانب المنزل فى الطريق ، وأغفى اغفاءة خفيفة ثم استيقظ فوجد عمى شعبان مازال فى دورانه لم يتم تكفين المرحوم فصاح فى وجهه : الى متى نبقى هنا ؟ ان الوقت لا ينتظرنا يا عمى شعبان ، أرقدت أم ماذا أصابك ؟

ــ ان الاسراع مطلوب فى كل شىء .

ــ أجل كما أن الاتقان مطلوب منا فى كل شىء والمرحوم يستحق منا أكثر من هذا رحمه الله وتغمده بفضله ولطفه .

ــ لقد استرحمنا له مرات عديدة وأرهف الشيخ أذنيه فسمع طلقات نارية آتية من بعيد فقال على اثرها : يا سادة ان هذه طلقات نارية تتبعها تحركات الجيش من المركز هنا ، وسنقع تحت طائلة اعناتهم ان بقينا فى هذا الدوران احذروا .

ــ لا خوف يا شيخ اننا فى عمل انسانى لاشبهة فيه وهل خرجنا من الغابة مدججين بالسلاح حتى يشك فينا ؟ هذه أوهام وخيالات جبناء !

فزم الشيخ جمعة شفتيه ، ووضع يده على انفه وفر هاربا من الباب مزمزما بخفوت : اخزاك الله يا ثقيل ، اننا سنتحمل منك اليوم أكثر من آلام الموت واننى أرى أن نذر الشر تحوم حولنا فى هذا اليوم ، لا حول ولا قوة الا بالله وعاد الى سبحته واستند الى الجدار فى انتظار نهاية عمى شعبان ، وكانت الوساوس تراود ذهن الشيخ ، وألوان من صور العقاب تتراءى أمام عينيه لنتائج هذا الحادث وطوحت به المخيلة الى أيام العذاب التى قاساها فى المعتقل وفى مركز الجيش ، انه يستذكر جيدا صور التعذيب بالكهرباء ، والغطس فى أحواض الماء ، ويتذكر ضروب الكتاف للرجلين واليدين ، وجلد السياط وركل الأقدام وغيرها من وسائل تدمير الشخصية ، فهلع لذلك أشد الهلع وتلبد بالجدار قليلا ، وأفزعته جلبة وحركات سريعة فى الطريق ، فخطا على أصابعه بخفة ، وهمس فى أذن الغاسلين : حذار من الحديث ، أو اثارة الضجيج فان الجنود قد مروا بنا ولعلهم يريدون تطويقنا ، كونوا على احتراس ، ودلف بحذر الى الحجرات الأخرى وهمس فى صفوف النساء والصبيان ان اسكتوا فان الجنود فى حركات مريبة حولنا .

وعاد الى مقره بالجدار ، ورفع عينيه الى السماء كأنه يدعو ، وكانت الحرارة شديدة والعرق يتنزى من جسمه ، والسحب القليلة المتقطعة تذهب وتؤوب ناشرة ظلالا كالحة ، تبذر الغم ، وتثير الكآبة ، وتقدم هذه المرة زاعقا بقوة : ان لم تسرعوا فى تجهيز المرحوم أدبرت عنكم وتركتكم وحدكم تتخبطون فى تيه .

ــ لقد انتهينا من الغسل والكفن ، وما بقى الا أن نخبر الجيران ليحملوا المرحوم الى مقره الأخير ...

وانطلق الشيخ جمعة وهو يحدق فى كل جهة حتى يتقى كل محذور ، ينادى فلان أقبل وأخبر كل الجيران بأوان التشييع ، هيا بادروا ياسادة .

وعاد الى الميت وحضر اخراجه من منزله ، وأشار الى الحاضرين أن يخرجوا بتؤدة ويشرعوا فى ذكر لا اله الا الله وقراءة البردة وأوصى النساء وأفراد العائلة بحسن التسليم ، وعدم الاكثار من البكاء ، وتسامع الجيران ، فأقبلوا مشيعين يتزاحمون على حمل نعش المرحوم ، وتقدم الشيخ ورفاقه من النعش وهم يتلون البردة وكان الشيخ غير متحمس لقراءتها فى هذا اليوم ، كعادته ، فكان يخفض صوته حتى لا تترامى أصداؤه الى جهات بعيدة ، انه يخافت به ما استطاع ، ويلوح مرة بعد أخرى الى زميله المداح بخفض الصوت ، وايثار جانب السكوت ، ولكن عمى شعبان لم يكن يأبه لتحذيره ، وكان يتخاشم ، ويحرك شدقيه فى المديح ويهيب بالرفاق أن يعاضدوه ، ولم يسع الشيخ جمعة الا أن يكظم غيظه ويبلع ريقه ، وأن يحتسب يومه بجانب عمى شعبان ،

ووصل النعش الى المقبرة وأقيمت الصـلاة عليه وأخذ اللاحدون يهيلون التراب على جثمانه ، وطفق الشيخ يتلو سورا من القرآن بمعونة زمرة من طلبة القرية وشاركهم عمي شعبان الذى كان يحفظ الآيات التى تتلى على الموتى رغم أميته ، لطـول سماعها وكثرة تكرارها •

وانتهى الدافنون من عملهم وتأهب المشيعون للعودة الى منازلهم وهم خاشعون من مثـل هـذا الموقف الرهيب ، وانتصب الشيخ جمعة وبازائه عمى شعبان وباقى الطلبة ، وأقبل اليهم أخو المتوفى فى خفة ودس فى جيب كل واحد منهم كمشـة من النقود ، فتهللت وجوههم ، وافترت ثغورهم ، ورفع الشيخ جمعة يديه الى السماء وهو يقـول بصوت حزين : اللهم اغفر للمرحوم واغفر لجميع موتانا وواس أهله بالصبر والسلوان ، واغفر لنا جميعا يا مولانا وأخيرا يا سادة :

الحمد لله الذى أنجانا من هؤلاء الجنود بعـد الحادث الذى سمعتم وقع طلقاته النارية ، الحمد لله ! ان من كانت النية الخالصة رائدة فى أعماله فلابد أن يكون مستورا محفوظا ، وهرول هو والجمـــاعة ليخرجوا من أشجار المقبرة مطمئنين وما ابتعـدوا قليلا عن المقابر الأولى حتى فوجئوا بصـفوف متراصة من الجنـد وهم يصيحون فى وجوههم بأصـــوات مزعجة : ارفعوا أيديـكم ، وسيروا أمامنا، فان الفلاقة قد اندست فى صفوفكم أو كنتم متواطئين معهم ، واستسلم الشيخ وهو مبهوت ومضطرب وقال : لتكن مشيئة الله •



(عدد خاص)

الفنون التشكيلية

فى

البلاد العربية

تعد « المجلة » لاصدار عدد خاص بالفنون التشـكيلية فى البلاد العربية ، وهى ترحب بنشر ما يصلها من صـــور ودراسات تعرض لوضع الفنون التشكيلية فى كل قطر عربى، وتحدد ملامحها واتجاهاتها وأهم مدارسها وأبرز روادها •

القصة القصيرة الجزائرية بعد الاستقلال

بقلم: عبدالله ركيبي

لا بد من التعرض ـ ولو بدون افاضة ـ للقصة القصيرة فى الجزائر أثناء الثورة، لندرك الفرق بين تلك المرحلة ومرحلة بعد الاستقلال .

***

والملاحظة العامة التى نسجلها على القصة أثناء الثورة ، هى أنها اذا أزدهرت وتنوعت أشكالها وأساليبها كما تنوعت موضوعاتها ومضامينها .. فمع الثورة التحريرية كان ميلاد القصة القصيرة الجزائرية بمفهومها الفنى السليم ، وذلك بتجاوزها للموضوعات القديمة « المستهلكة » التى ظهرت فى المراحل السابقة عليها الى مضامين جديدة ارتفعت بالقصة الى مستوى لم ترق اليه من قبل .. ذلك أن الواقع الثورى الجديد قد فرض نفسه على الكتاب فاتجهوا نحوه يصورونه تصويرا فنيا صادقا بأسلوب مقنع مبرر بعد أن كان الأمر لا يعدو أن يكون نقلا وتسجيلا له بطريقة فوتوغرافية » ، وأصبح هدفهم صياغة هذا الواقع فى صورة جديدة تعكس لنا احساس الفنان به وأثره فى أعماق النفس الانسانية .

وبهذا دخلت القصة مرحلة جديدة هى أهم مراحلها ، وأعنى بها مرحلة الواقعية الفنية التى تهتم بالانسان وتعنى به وتعالج مشاكله وقضاياه وتصور نضاله وصراعه ضد القوى التى تحاول قهره وسلب حريته . وقد فعلت هذا كله فى تلقائية وبساطة وبلا افتعال أو تكلف فى كثير من الأحيان .

يتجلى ذلك فيما عالجته من موضوعات جديدة كل الجدة تدور حول الثورة والحرب وآثارهما على الفرد والجماعة ، حول الاغتراب والهجرة الى خارج الوطن .. كذلك صورت القصة الفلاح البسيط الذى يكافح ليسترد الأرض التى سلبت منه والمرأة التى خرجت من عزلتها لتشارك فى النضال والجندى الذى فر من الجيش الفرنسى ليلتحق بالثوار كما أنها اتجهت الى الانسان العادى بطل القصة الواقعية الذى يعرف الخوف ويصارعه ويتغلب عليه .. الانسان الذى يفرح ويحزن ويتألم ويشقى ويحب ويكره ، وليس البطل النادر الخارق للعادة الذى كثيرا ما عرفناه فى أشكال القصة قبل الثورة . كما أصبح التفكير الجماعى ولروح الجماعية ابان الثورة سمة بارزة فى القصة القصيرة ، واتسم مضمونها بروح التفاؤل بالانسان وبانتصاره على الظروف والقوى الاستعمارية التى كانت تواجه الشعب الجزائرى.

ومثلما تطورت القصة فى الموضوع والمضمون تطورت فى الشكل والأسلوب فظهرت فيها أشكال جديدة مثل شكل الرسالة وطريقة « تيار الوعى » بالاضافة الى الشكل العادى لكتابة القصة من سرد وحوار .. وظهر فيها الرمز المباشر وغير المباشر واتضحت فيها سمات القصة الفنية من تعبير عن موقف معين فى تركيز وايجاز وعناية خاصة بالعناصر الأخرى من رسم الشخصية والحوار واللغة وتطور الحادثة وغير ذلك ..

***

بعد هذه المقدمة التى كان لا بد منها يأتى سؤال : **هل تطورت القصة القصيرة الجزائرية بعد الاستقلال ؟؟**

الواقع أن القصة القصيرة بعد الاستقلال قد أصابها شىء من الركود لظروف المجتمع ولظروف الكتاب أيضا . فالدوافع لكتابة القصة أثناء الثورة كانت قوية ، ذلك أن الحماس والتعاطف مع الثورة وروح النضال دفع بالكتاب للتعبير عن نماذج مختلفة من أفراد الشعب ، بينما نجد بعض هؤلاء الكتاب الآن قد قل انتاجهم أو كاد يتوقف وبعضهم استغرقته أعمال أخرى بعيدة ، عن ميدان القصة . اضف الى هذا ظروف المجتمع الذى أخذ يتحول بعد الاستقلال من مرحلة الاضطراب والفوران الى مرحلة الاستقرار المادى والفكرى .

(*) هذا المقال يتناول القصة الجزائرية باللغة العربية لا بالفرنسية .

على أن هناك جيلا جديدا من الشبان ظهر بعد الاستقلال يحاول أن يكتب القصة ولكن دوره لم يتضح بعد اذ هو في طور التجريب ، فمحاولته اليوم لا تعدو أن تكون تقليدا للموضوعات والأساليب السابقة ودوافع هذا الجيل الجديد تختلف من فرد الى آخر ، فمنهم من يمارس القصة بشيء قليل من الوعي الفني لكتابتها ، فهو يملك الموهبة ولكنه لم ينضج في أساليبه وتجاربه في الفن والحياة معا ٠٠ وفريق آخر يكتب القصة بدوافع غير فنية وبغير فهم أو وعي أو بتعبير آخر يفتقد الأصالة ٠٠٠ ومن ثمة نشاهد في القصة الجزائرية اليوم خليطا من القصص لا ملامح لها أو سمات تدل على اتجاه أو اتجاهات واضحة ٠ وهذه الذبذبة بين أساليب مختلفة لا تعطي طابعا خاصا للقصة في مرحلة ما بعد الاستقلال ، الى جانب أن كثيرا من كتاب الجيل الجديد لم ينشر سوى قصة أو قصتين على الأكثر ٠

هذه الظاهرة منشؤها ضعف النقد وندرته والحساسية المفرطة منه ، وأن البعض الذي ينقد أو يوجه فيما يتصل بالقصة على الخصوص ليست له صلة بهذا الفن ، ولهذا فالكتاب معذورون ان لم يتطوروا في انتاجهم القصصي ٠٠ ولعل هذا ما يفسر هذا الركود من جهة ، وقلة النماذج الجيدة من جهة ثانية ، والدوران حول الموضوعات القديمة الجاهزة التي سبق للقصة أن عالجتها في مراحل مختلفة ، من جهة ثالثة ٠٠ كما يفسر أيضا معالجة بعض الشبان الجدد في قصصهم للثورة دون معايشة لها نفسيا أو واقعيا ، اذ أن الكثير من هؤلاء الشبان كانوا ـ عندما قامت الثورة ـ صغارا لا يدركون أحداثها بفهم وبوعي ولم ينصهروا فيها ٠ ومن ثمة نجد ذلك الحماس الذي يطغى على أساليبهم وتلك الرؤيا التي قد نعثر فيها على تناقض بين المضمون والشكل ، وهي رؤيا سطحية للثورة لا تكشف عن أبعادها بقدر ما تتحدث عن حوادثها المادية الخارجية ٠

ولو أردنا أن نصنف الموضوعات التي دارت حولها القصة الجزائرية بعد الاستقلال لوجدنا أن معظمها عن الثورة وما يتصل بها من حديث عن الهجرة خارج الوطن أو آثار الاستعمار ٠٠ ثم التقاليد والعادات وما يتصل بهما من تصوير لعلاقة الرجل بالمرأة ، وأخيرا تصوير الواقع الجديد بعد الاستقلال ، وهناك البعض القليل الذي تعرض لقضية فلسطين وما يتصل بها ٠

معظم القصص في هذه المرحلة تتحدث عن الثورة ، عن نماذج شاركت فيها ، عن معطياتها المادية والروحية ، عن ظروفها المختلفة ٠ وبدون شك فان استمرار الكتابة عن الثورة يرجع الى حماس الكتاب لها والى أن هذا الحماس يتجدد يوما بعد يوم باعتبار أن الثورة هي التي حررت الفرد والمجتمع من العبودية والاستغلال الاستعماري ، فهي محور الجذب للكاتب والقارىء معا ، ولهذا امتدت موضوعاتها الى ما بعد الاستقلال ٠ فالمجموعات القصصية التي صدرت بعد الاستقلال أغلب موضوعاتها ومضامينها وشخصياتها يدور حول الثورة مثل « بحيرة الزيتون(١) » لأبي العيد دودو و « الرصيف النائم(٢) » لزهور ونيسي و « دقت الساعة(٣) » للبهي فضلاء ، و « طعنات (٤) » للطاهر وطار ٠٠ وكذلك الانتاج الذي نشر في الجرائد والمجلات الجزائرية لهؤلاء وغيرهم ينتمي في معظمه الى أحداث الثورة وما يتصل بها من قريب أو بعيد ٠

ومن الصعب أن نتعرض في مقال كهذا الى كل هذا الانتاج القصصي وانما سنكتفي ببعض الأمثلة والنماذج التي تعطي فكرة عن مسار القصة الجزائرية في واقعها الراهن :

ان كل قصص « بحيرة الزيتون » تستقي أحداثها من الثورة وتنقلنا الى واقعها ، وتصور حرب التحرير بأبطالها وأحداثها وشخصياتها والنماذج التي عاشتها في الداخل أو في الخارج فمنهم الشيخ والشاب والمرأة والطفل والمثقف

والراعي البسيط والزوج والزوجة ٠٠ والقصة التي عنون بها الكاتب لهذه المجموعة تصور شيخا كرس حياته لمواساة المواطنين أثناء الثورة ٠ ثم شخصية الأم التي فرحت بانضمام ولدها الى الثوار ورغم مرضها فانها كانت سعيدة وفخورة بابنها هذا ٠

أما مجموعة «**الرصيف النائم**» فهي أيضا تدور حول الثورة ولكنها تركز على دور المرأة فيها ٠٠ المرأة زوجة أو أما ٠٠ مثقفة أو أمية ٠٠ المرأة في الريف أو في الحضر ٠٠ جندية في جيش التحرير أو مسؤولة في جبهة التحرير ٠

وكذلك مجموعة « **دقت الساعة** » فموضوعاتها لا تخرج عن اطار الثورة ومعظم شخصياتها مناضلون فيها ، أما مجموعة « **طعنات** » فان بعضها يتصل بالثورة وبعضها الآخر يتصل بما بعد الاستقلال ٠

وكما أشرنا ، فان الكثير من القصص المتفرقة التي نشرت بالصحف والمجلات يتحدث أيضا عن الثورة ، وأبطالها ينتمون اليها بصورة أو بأخرى، فهناك الفدائيان اللذان يناضلان في المدينة واستشهدا نتيجة خيانة جاسوس رمز اليه الكاتب « بالظل (٥) » الذي يقتفي أثر المناضلين ويشي بهم ٠٠ وقد استخدم الكاتب الرمز غير المباشر في البداية ولكنه كشفه في النهاية بحيث ضاع الأثر المطلوب منه وان كان هذا يعد خطوة بالنسبة للحديث عن الجاسوس أيام الثورة حيث كان سافرا لا رمز فيه ، انما يتحدث الكاتب عنه بأسلوب مباشر ، يصف دوره وخيانته كما في قصة « **مليكة**(٦) » لفاضل مسعودي ٠

وقصة «**الظل**» هذه تمتاز بحركة تشد الانتباه غير أن حوارها يتسم بالمباشرة واستخدام التعابير التي ان كانت تحدث بين شخصين في مستوى الواقع فانها لا تصلح في قصة فنية ٠

وقصة « **دقت الساعة** » تعالج موضوع الثورة أيضا وتتحدث عن مناضل ترك زوجه وطفله وصعد الى الجبل لأداء واجبه المقدس كما ترك عمله كأجير في مزرعة أحد المعمرين الفرنسيين ٠٠ وقد كلف من طرف الثوار بأن يذهب الى المزرعة ليحرض زميليه هناك على الثورة والقيام بعملية فدائية ضد هذا المعمر الفرنسي الذي يمتص خيرات البلاد ثم استشهد وعرفت زوجته ذلك بعد الاستقلال ٠ وهذه القصة كغيرها من قصص المجموعة أشبه ما تكون بالحكايات أو الصور التي نجد فيها الاسلوب المباشر التقريري كما أن الوصف لايخدم القصة وانما هو عبارة عن أوصاف انشائية كثيرة لا تساعد على رسم الجو في القصة كما أن شخصية البطل اسماعيل رسمت من الخارج دون التعرض للدوافع النفسية التي تحرك الشخصية لتقوم بعمل من الأعمال ومثلها شخصية الزوجة ٠٠ فمثل هذا السرد الذي يحاول أن يتفلسف فيه الكاتب يؤثر على بناء القصة وعلى مسارها وتطورها ٠٠ وعندما أراد أن يصور موقف بطل القصة من الأعداء الذين يطاردون الفدائيين التجأ الى ما يشبه الحوار الداخلي في نفس البطل ٠٠

« وكان يبتسم ساخرا من هؤلاء الجبناء الذين ينفقون ملايين الفرنكات في استهلاك الزاد والعتاد من أجل شخص واحد ، فما أبعد الشبه بين جيش التحرير وجيش الأعداء ! فجيش التحرير لا يطلق رصاصة واحدة الا عند الضرورة ويوفرها لنفسه اذا أمكن للسكين أن يقوم مقامها ٠٠ وهؤلاء يفجرون القناطير المقنطرة من أجل صيد هزيل ٠٠ وأغرق في الضحك وقد تذكر المثل الدارج القائل « جنازة كبيرة والميت فار » (٧) ٠

وقد كتب الحوار بنفس هذا الاسلوب فهو لايراعي المستويات المختلفة للشخصيات وانما هو حوار يعبر عن رأى الكاتب وأفكاره ٠٠ أما الشكل فان القصة تتخذ شكل « الرواية » قالبا لها ، فالموقف النفسي ينعدم فيها والأحداث كثيرة والجزئيات لا تدخل في صلب القصة ، وهذه السمة نجدها في كثير من القصص في هذه الفترة ٠

وفي قصة « **الشمس لا تشرق من باريس** » لحنفي بن عيسى يصور الكاتب نموذجا آخر لشاب جزائري التحق بالجامعة بعد نضال مرير فقد كان التعليم في الجامعة مقصورا على الفرنسيين وأذنابهم ويحاول هذا الشاب أن يكون صداقة مع شاب فرنسي ولكنه يفشل في ذلك وتمر الحوادث ويلتقيان في باريس بينما تكون الثورة قد انتقلت الى هناك ويكيد له هذا الفرنسي حتى يرمى به في أعماق السجون ، ذلك لأنه مناضل جزائري يؤمن بحقه في الحياة ٠٠ والقصة فيها تصوير للروح الجماعية التي سادت أيام الثورة ، وأن مصير الأفراد لا قيمة له أما مصير الشعب كله فهذا هو المهم ٠٠ وللكاتب قصص أخرى كثيرة كلها تدور حول الثورة والنضال ٠

كما أننا نلاحظ في قصة «**فتاة الغزوات**» (٨) لعثمان سعدي التي كتبت في شكل رسالة أنها تصور كيف كان جيش التحرير أثناء الثورة يعامل أسراه أو الذين يلقى عليهم القبض من الأجانب معاملة انسانية لا أثر فيها للحقد أو الانتقام ولا

يأخذ البرىء بذنب المجرم .. وللكاتب قصص كثيرة فى أثناء الثورة ولكنه مقل فى انتاجه .

وهناك قصص كثيرة كتبها بعض الشبان من الجيل الجديد الذين هم فى بداية الطريق وكلها تعالج موضوعات مختلفة وشخصيات متنوعة تتصل بالثورة مثل ذلك الشاب الذى خرج من السجن ولم يجد له مكانا وأصبح مطاردا من الفرنسيين وكان يبحث عن طريق تصل به الى الثوار وعندما استولى على قطعة سلاح طاردته سلطات الاستعمار حتى استشهد كما فى قصة «**عندما يجوع البشر**»(٩) والقصة تمتاز بالحركة والموقف النفسى الذى رسم لنا الكاتب من خلاله هذا النموذج الذى يطمح لأن يكون ثائرا .. وهناك المناضل الذى جرح أثناء كفاحه وذهب للعلاج فى أوروبا كما فى قصة « **المنام** » (١٠) وقصة « **ليلة نوفمبر** » (١١) .

ويتصل بموضوع الثورة الحديث عن الهجرة الى الخارج بسبب الاستعمار .. الهجرة طلبا للعمل أو فرارا من الضغط والاضطهاد مثل « **من البطل** » (١٢) وقصة «**وانطفأ مشعل الأمل**» (١٣) و «اللغز» (١٤) ، وتجدر الاشارة هنا الى أن موضوع الهجرة والاغتراب من الموضوعات التى سبق للكتاب الجزائريين أن عالجوه أثناء الثورة .

واذا كانت هذه القصص قد عالجت الهجرة من الداخل الى الخارج فهناك بعض القصص التى عالجت الهجرة من القرية الى المدينة تحت ضغط الاستعمار مثل قصة « **ومضة خاطفة** » (١٥) لعبد الرحمن مضوى وهى قصة تدور حول شاب جزائرى فقير يترك القرية هربا من البطالة الى المدينة لعله يجد بها عملا ولكنه يفشل فى العثور على عمل يمكنه من ارسال نقود الى والده الشيخ الذى ينتظر منه ذلك لشبع رغبته فى الظهور أمام أعيان القرية بمظهر لائق محترم .. ويلتقى الفتى فى المدينة بامرأة فرنسية تبدى نحوه عطفا كاذبا فيقبل العمل عندها كأجير ولكنه فى النهاية يصطدم بعنجهيتها وبأنها لم تعطه حقه كاملا ، فقرر الانتقام منها بأن يسرقها فى الليل على ألا يأخذ الا حقه فقط .. وحين يهم بتنفيذ ذلك تكتشف أمره المرأة وفى النهاية تموت رعبا منه . والقصة فيها رمز للاستعمار بهذه المرأة الفرنسية وللشعب الجزائرى الذى يمثله هذا الشاب الطيب الكادح .. ومضمون القصة واسع يعالج من خلال هذين الرمزين قضايا كثيرة بتركيز واضح وبتحليل لنفسيتى الشاب والمرأة .. النفسية الشريرة التى لا يهمها الا الربح والرخاء المادى ونفسية هذا الشاب الذى تستغله هذه المرأة ولا تشفق عليه ويكون جزاؤه القليل من الدريهمات والكثير من الاحتقار .

والطريقة المعالجة فيها حيوية وبساطة والكاتب ينجح فى أن يجعلنا نتعاطف مع البطل لما أضفاه على الحدث من حركة وعلى الشخصية من سمات الواقعية فتقنعنا بتصرفاتها التلقائية ، حتى اننا لا نحس بغرابة من هذا الشاب وهو يهم بسرقة المرأة الأجنبية ، فالسرقة هنا مشروعة وكما أن هذه المرأة سرقت عرقه حاول أن يسرق من مالها حقه ولكنه قبل أن يصل الى هذه النهاية كان يعيش صراعا نفسيا بين الانتقام من هذه المرأة وبين نوازع الخير فى نفسه وكان يبحث عن مبرر لهذا كله .. واذا كان الكاتب فى هذه القصة قد نجح فى تصويره للشخصيات وللحادثة بلغة طيعة مرنة فانه فى بعض قصصه أحيانا لا يراعى اللغة الفنية للسرد والحوار ، فنجده يحاول أن يخلق بعض الصيغ والتعابير التى تؤثر على أسلوبه فى كتابة القصة كما فى قصته « **الشيخ المحتضر**»(١٦).

ونجد شخصية الطفل الفقير فى قصتى «**يدى على صدرى** » (١٧) و « **دار الثلاثة** » (١٨) لدودو فقد عالج فيهما مسألة الفقر من خلال طفلين يعانيان الشظف ويكافحان الظروف القاهرة التى تعترض سبيلهما .

وفى القصتين لمسات انسانية نلمسها من خلال براءة الطفلين ومن خلال الاشياء الصغيرة التى يطمحان لتحقيقها ، ومن خلال الأحلام والأوهام معا ويقف أمام تحقيق هذه الأحلام الوضع الصعب الذى سببه الاستعمار بطبيعة الحال دون أن يصرح الكاتب بذلك ، وأحيانا يضع موازنة بين بطل القصة الفقير وبين أحد أقاربه الذى عاد من المدينة بملابس أنيقة ومظهر جديد بينما بقى هو فى القرية ..

واذا كانت هذه القصص التى تتحدث عن الفقر لا تربط بينه وبين قيام الثورة فان قصة «**رمانة**»(١٩) للطاهر وطار تجعل من الفقر دافعا أو سببا لقيام ثورة نوفمبر سنة ١٩٥٤ من خلال فتاة شابة انحرفت وسقطت فى هوة الرذيلة بسبب الفقر وأصبحت مثل السلعة تباع وتشترى . على أن القصة اتخذت اطار الرواية لا شكل القصة القصيرة المركزة فهى مجموعة قصص لهذه المرأة مع أشخاص ثلاثة عاشت أحداثا قبل الثورة وأخرى بعدها .. فهى تتحدث عن حياة كاملة وعن تفاصيل وجزئيات كثيرة أدخل فى الرواية منها فى القصة القصيرة . ومن هنا تفتقد سمة التركيز وأسلوبها يتراوح بين التقرير والايحاء ولكن يغلب عليه التقرير فى معظمه وكثيرا ما تطغى العواطف على الكاتب فيتحدث عن أفكاره وآرائه هو لا عن الشخصية وما تحتمله وأحيانا يصبح الحوار أشبه ما يكون

بمنشور سياسى لهجةوطولا ، فعندما يجرى الحوار بين هذه المرأة وبين الثائر نجده يتحدث هكذا فى لهجة خطابية :

« حتى يفهموا ٠٠ حتى ننجح فى تنظيم صفوفهم ٠٠ وصدقينى ان هذا العمل صعب جدا وشاق٠٠ انهم كل فقراء بلادنا تعودوا منذ قرون وقرون الاستسلام والخضوع للأسياد والأغنياء والتجار يتصرفون فيهم كما يشاءون ٠٠انهم بضاعة أولية فى يد السماسرة والتجار الذين هم بدورهم بضاعة أولية فى يد الفرنسيين والمستغلين الكبار ٠٠ هل تفهمين ؟ ان بوعلام و «مجدوبا» و «صالحا» صادقون فى موقفهم من الحياة ٠٠ ذلك أنهم يخضعون لظروف معينة ونحن نريد أن نتقدم وننتقد كل الناس من هذه الظروف بتغييرها وسننجح ٠٠ سننجح اليوم أو غدا أو بعد أجيال لأننا نمثل أمل وطموح الملايين ٠٠ هل تفهمين ؟ أننا سننجح لأننا نمثل الضمير اليقظ ٠٠ لأننا نمثل وازع اليقظة ٠ هل تفهمين ؟ » ٠

ان هذا الاسلوب يطغى على كثير من قصص هذه الفترة فالكتاب لايتحكمون فى عواطفهم ومشاعرهم وأحاسيسهم ، ومن ثمة يندفعون فى التعبير عنها مباشرة بالسرد أو الحوار وقد يطيلون فى الحوار حتى يصبح مسرحيا « جهرا » مما يؤثر على البناء الفنى للقصة ويفقدها التأثير المطلوب ٠

أما القصص التى تدور حول الحب وتعالج علاقة الرجل بالمرأة والزواج والعادات والتقاليد وما الى ذلك من الموضوعات التى عالجتها «الصورة القصصية» فى الأربعينات ، فليس فيها ما يميزها عن السابق عليها من حيث المعالجة أو الشكل أو من حيث رسم الشخصية وأبعادها المختلفة وانما هى أشبه ماتكون بحكايات تتحدث عن حب نشأ بين شاب وزميلته فى العمل ، كلاهما خجول ومن أسرة محافظة ٠٠ فتقوم زميلة بينهما بدور الوسيط ويتزوجان فى النهاية كما فى قصة **«وفى الصمت أشياء»** (٢٠)

ومثل هذا ما نجده فى « **مأساة اليوم** » (٢١) وهى فى شكل رواية مضغوطة تتحدث عن نفس الموضوع ولكن بأسلوب يعالج الجنس بصورة صارخة وتفتقد سمات القصة القصيرة تماما ٠

وهناك قصة « **الأغنية اللعينة**» (٢٢)لعبدالحميد هدوقة التى تعالج قضية العزوبة والشعور بالقلق والفراغ بلا مضمون جديد فى هذا الموضوع وبلا تطور من الكاتب فقصصه التى كتبها عن الثورة تبدو أكثر نضجا من هذه وقد توقف عن كتابة القصة سنوات طويلة ٠

ولعل قصة « **الثوب الأبيض** » (٢٣) لزهور ونيسى هى أكثر القصص تعبيرا عن هذا الاتجاه فهى تركز على قضية التقاليد ووضع المرأة حين تحرم من التعليم وتجبر على الزواج المبكر من شخص لا تعرفه ولا يتناسب معها ٠٠ والفكرة المحورية فيها تتحدث عن سيطرة الرجل زوجا أو أبا ٠٠ وتمتاز القصة بأنها تصوير لما يعتمل فى نفسية هذه الفتاة التى أرغمت على الزواج وترك العلم ، وأسلوبها بسيط يميل الى الايحاء أحيانا٠

ويتصل بهذه الموضوعات القديمة الحديث عن امرأة الأب القاسية التى تضطهد أبناء زوجها ٠٠ وهذه الموضوعات لا جديد فيها من حيث الأسلوب أو طريقة الأداء ، انما هى أشبه ما تكون بالحكايات التى لا تمثل تجربة حقيقية ولا تركز على الناحية النفسية بقدر ما تصف أشياء مادية باستثناء القليل الذى يركز على العنصر النفسى كما فى قصة «**الحلم الضائع**» (٢٤) وهى قصة تتحدث عن فتاة حلمها الوحيد أن تذهب الى المدرسة ، ولكن الواقع الذى تعيشه من اهمال والدها لها وقسوة زوجته عليها واضطرارها للعمل كخادمة لدى صاحب مقهى هو الآخر غليظ القلب ٠ هذا الواقع يمنعها من تحقيق هذا الحلم ٠٠

والى جانب هذه الموضوعات الجاهزة نجد بعض القصص تدور حول موضوعات لا تعبر عن فكرة خاصة وانما قد تصور بعض النماذج تصويرا لا هدف من ورائه سوى الكتابة كـ « **نظارة الحاج شعبان** » (٢٥) و « **أمنية وباس** » (٢٦) ٠٠ وفى « **الحى** » (٢٧) و « **عطلة الأسبوع** » (٢٨) ٠٠

وهناك قصص أخرى كثيرة لم تتعرض لها بالرغم من أن بعضها فى الثورة والتقاليد وبعضها فى موضوعات مختلفة لان أصحابها لم يكتبوا سوى قصة أو قصتين على الأكثر ودون أن يكون دوافعهم قضايا ملحة أو دوافع فنية أدبية هدفها تحقيق الذات وانما قد يكون دافعها مجرد المساهمة فى الكتابة فى هذا الميدان بصرف النظر عن الفهم أو الوعى بفن القصه القصيرة ٠

وهنا نتساءل : هل أننا لانرحب بالموضوعات السابقة التى عالج فيها الكتاب أفكارا كثيرة ونحبذ الجديد الطريف باستمرار ؟

بالطبع أن الكاتب الموهوب يبحث دائما عن التجارب الجديدة وعن الموضوعات الجديدة ٠ واذا كتب فى الموضوعات القديمة أو المعروفة التى كتب

فيها الكثيرون فاننا نطالبه بشيء واحـد هو أن يصدر فيما يكتب عن رؤيا جديدة أو زاوية جديدة يقدم فيها نظرة خاصة قد تكون نقدية للحياة أو المجتمع ، فهناك من الموضوعات ما يتكرر أو ما له صفة الاستمرارية ولكنها تتطور دائما والا أصبحت عائقا لتطور المجتمع أو الفرد على السواء ٠٠ ومن ثمة فان الكاتب الأصيل يستطيع أن يعالجها من زوايا مختلفة عن معالجة السابقين لها ٠٠ ذلك أن الكاتب مرتبط بظروفه وبيئته وعصره ٠٠ فهو مطالب بنظرة شمولية للماضى والحاضر ولهذا فان موضوعات الثورة مثلا ولو انها تدخل فى الماضى الا أنها تجربة عاشها الشعب سنوات طويلة وتعد حدثا تاريخيا له قيمته فى بعث الشخصية الجزائرية للفرد والشعب معا ولهـذا فان موضوعاتها تبقى حية فى نفوس الناس وجديدة باستمرار ومتجددة والكتاب مطالبون بأن يكتبوا عنها لكتشفوا أبعادها ويصوروا أحداثها فى صدق وأن ينقلوا واقعها للأجيال التى لم تعشها او لم تشاهد وقائعها وأحداثها ٠٠ ولكن على شرط ايضا أن نخرج برؤيا جديدة ـ كما أشرت ـ لعالمة النماذج والشخصيات والأحداث وأن يقدم لنا الكاتب عن الثورة شيئا جديدا لم يعالج أو لم يعانيه الكتاب السابقون الذين كتبوا عنها ٠

صحيح اننا سنستمر فى الكتابة عن الثورة ، ولكنى أعتقد أن معالجتها فى شكل الرواية الطويلة أو شكل المسرحية ربما يكون أنسب لها من كتابة القصة القصيرة لأن هذا الشكل الفنى يتطلب لحظة خاصة أو موقفا معينا قد يمر به الفرد فى ظروف خاصة ويأخذ شريحة من الحياة والواقع المعاش٠٠ وهى تبدو أنسب للزمن الراهن وللأحداث اليومية المعاصرة ٠٠

لهذا لا نجد مبررا لهروب كتاب القصة القصيرة الى الماضى وعدم التزامهم بمعايشة الأحداث وواقع الحياة من حولهم ٠٠ صحيح أن الانسان عندما يكتب عن الماضى قد يساعده ذلك على تكوين نظرة موضوعية فى تقييمه لأحداث ووقائع هذا الماضى٠ وقد تكون هذه النظرة مطلوبة للحكم على الأشياء حكما صحيحا أو قريبا من الصحيح ٠٠ ولـكن القصة القصيرة يمكن أن تكون وثيقة وشاهدا على العصر وعلى الواقع المعاش ٠٠ لأن الفنان ـ كما نعرف ـ مطالب بأن يكون معبرا عن زمنه وعن مجتمعه وهذا لا يتأتى الا اذا غاص فىواقع المجتمع وحاول أن يكشف عما فيه من قيم سلبية أو قيم ايجابية تضاف الى القيم السابقة حتى نخرج بنظرة عميقة لحياة هذا المجتمع أو ذاك وحتىنعرف الظواهر أو المشاكل التى تطرأ على المجتمع فى ظرف كالظرف الذى عاشته الجزائر بعدالاستقلال٠

ولهذا نحن نطالب الكاتب الجزائرى بأن يتجه للواقع ليعكس ما فيه من تطور ٠٠ من تغير٠٠ من تحول من مرحلة الكفاح الى مرحلة البناء ٠٠مرحلة التحول الاجتماعى والفكرى والاقتصادى وما ينشأ من صراعات بعد الاستقلال قد تختلف تماما عن الصراعات السابقة عليه ٠

فمثلا يمكن للكاتب أن يتحدث عن القضايا التى هىمدار النقاش اليوم كقضية التعريب والاشتراكية وقضية الوحدة وفلسطين، وقضية الثورةالزراعية وقضية الأفراد الذين ركبوا الثورة بعد الاستقلال وقضية الانتهازية التى ظهرت بصورة أو بأخرى وحاولت أن تستفيد من وضع ما بعد الاستقلال الى آخر الموضوعات التى تعبر عن واقع جديد ٠٠ كما أنه يمكن الكتابة عن الثورة والواقع معا ٠٠ وذلك بالمقارنة بين الماضى والحاضر ٠٠ بين الثورة وما بعد الاستقلال ٠٠ ويمكن لكاتب القصة القصيرة أن يعالج قضية الفرد وقضية النموذج الانسانى الذى عاش الثورة بقيم وأفكار وآراء معينة وحين جاء الاستقلال تغيرت أفكاره وقيمه وآراؤه ٠ هناك من انتابه نوع من الجمود وأصيب بصدمة أمام هذا التحول فتوقف تماما عن الحركة، وهناك من استمر يكافح بنفس الروح الثورية ، وهناك من اعتبر دوره قد انتهى بتحقيق الاستقلال ٠٠ هناك أيضا الأفكار التى خلفها الاستعمار والتى تحاول أن تسترد مواقعها السابقة ٠٠ وهنـاك نماذج انسانية عاشت تناوىء الثورة ولكنها اليوم ليست لباسا جديدا يتماشى مع ظروف الاستقلال ولكنها فى أعماقها لا تؤمن بهذا الوضع بل فرض عليها فرضا وغير ذلك من موضوعات يمكن لكاتب القصة القصيرة أن يعكس من خلالها الواقع المعاش او الواقع الجديد ٠

على أن هناك من الكتاب من حاول أن يكتب عن هذا الواقع وعن المشاكل أو القضايا المطروحة وأن يربط بينها وبين الثورة وأحـداثها محاولا بذلك أن يقـارن بين هاتين المرحلتين ويوضح المفارقات التى قد يجد الفرد نفسه مواجها بهاكما فى قصة «**أغنية المساء**» (٢٩) لاحمد الرفاعى التى صور فيها حياة مناضل جـزائرى يعيش مع أمه « صحراء » ـ وهذا هو اسمهـا ـ وربما يـكون رمزا لحياته التى يحياها ٠٠ فهذا المناضل كافح من أجل الوطن ولكنه بعد الاستقلال لم يجد له مكانا فىالحياة وانما وجد أمه التىتسأله باستمرار اذا كان قد وجد عملا ٠٠ كانت تلاحقه بهـذا السؤال فى كل وقت حتى وهى تعد الطعام :

« عمار .. ماذا قالوا لك اليوم ؟ » ..

وسـؤالها هذا هو الذى يؤرقه ، فامه كانت تعتقد أن ابنها قد كافح من أجل حياة كريمة فهى تتطلع الى شىء جديد لم يكن قد تحقق لهـا ولا لابنها أيضا وكانت تلومه وتتهمه بالخجـل لأنها لسذاجتها كانت تظن أن مرضها مبـرر كاف لأن يعطى العمل لهذا المناضل فكانت تقول له :

« قل لهم اننا نموت .. قل لهم
ان أمى مريضة ، انت لا تعرف كيف
تتكلم عنى وعن نفسـك .. آه ..
سأذهب بنفسى غدا وأفهمهم .. »

ولـكن هذا المناضل حين وجـد العمـل تأتى المفارقة ، فقد ماتت أمه دون أن تعرف شـيئا عن ذلك .. وماذا يفيده اذا وجد مكانه وفقد أمه نهائيا ولم يحقق أملها .. ان هـذه القصة تصور نموذج المناضل الذى استرد حريته وحرية بلاده وساهم فيها ولـكنه فقد أمه.. فالقصة هنا تمثل صراعا حقيقيا عاشه مناضلون كثيرون وأحسـوا بالفرق بين حياتهم فى الجبل أثناء الثورة وحياتهم بعد الاستقلال التى تتطـلب الى جانب النضـال أشياء أخرى قد تتصل بالكفاءة أو بالثقافة أو غير ذلك .

ومثل هذه القصة « **عرجونة** » (٣٠) مع فارق أنها رواية مضغوطة جمعت بين أحداث كثيرة فى قصة واحدة ، تمثل الفلاح الذى التـحق بجيش التحرير واستشهد وترك زوجته التى ناضلت هى الأخرى .. ثم تأتى المفـارقة حين تتزوج بخائن نتيجة اختلاط القيم وتغيرها بعد الاستقلال !

فقـد شاهدت الصراع من أجل الاسـتقرار والرخاء المـادى ووجـدت حتى أولـئـك الذين ناضلوا بالأمس قد نسوا أهدافهم الماضيةليتساقوا وراء هذا الصراع من أجل المادة فاختلطت المفاهيم والقيـم وأصبح الناس يبحثون عن السـيارات والفيلات ــ كما يحدث فى أعقاب كل ثورة ــ حتى أن هذه المرأة أصبحت لاتفرق بين الخـائن للوطن والمخلص ولهذا تزوجت بهـذا الرجل الذى باع وطنه فى يوم من الأيام :

« تزوجت .. أعلمت بمن ؟ . انه
صاحب الفيلا والسيارة الفخمة ..
الخائن الذى باعنا ذات يوم للسلطات
العدوة .. تزوجت خائنا يا الهى ..
هى أيضا باعها فاحرقت قريتهـا ..
هل نسيت ذلك ؟

ــ انها تزوجت الحياة التى يوفرها
لهـا » ..

ومن هذا الحوار نرى أن أسلوب الكاتبة لا يعنى بالتعبير وانما يعنى بالتسجيل فقط .. ولذا فهى تتحدث بأسلوب مباشر فى سردهـا وحوارهـا وكثيرا ما تطنب وتستطرد عن أشياء لا صلة لهـا بصلب الموضوع وانما هى خواطر تتوارد على ذهنها فتسجلها ، وهى تكرر بعض الجمل والتعابير كما تسعى للبحث عن معانى بعيدة لا تخدم القصـة وانما تشتت بناءها .. أضف الى هذا أنها تطلق أحكاما ومواعظ كثيرة كما تستطرد الى بعض القصص المعروفة أو التاريخية :

« آه . مرغريت حين فقدت التاج
لم تعد تفكر الا فى الخلاص بالانتقام
.. لقد قال ذلك شكسبير العظيم »

أو قولها :

« لعل الكاهنة فى قبرها راضيـة
عنهـا وهى تحث الخطى قرب بئرهـا
العظيمة لا لتتكهن أو ترى .. الخ » .

وهى فى سردها هـذا وحتى فى المونولوجات الداخلية تكتب بالأسلوب التعليمى الذى لا يخدم القصة فنيا وكثيرا ما نرى هذا فى مواضع شتى من قصصها المختلفة كقولها :

« وثورتنا العظيمة ستقهر الزيف
.. ستخلد .. ستشرق فى كل لحظة
.. انها لا تموت .. »

ولا تعنى الكاتبة برسم شخصياتها مما يوضح ملامحها وقسماتها الخاصة وانما تتكلم على نماذج عامة مطلقة يمكن أن تطلق على أى امرأة أو أى فرد .. وهى تحتاج الى الأصالة لا الى التقليد فـكثيرا ما تقلد غيرها من كتاب القصة الآخرين .

وقصة «**الطاحونة**» (٣١) للطاهر وطار تعالج قضية المناضلين الذين كافحوا أثناء الثورة ولكنهم بعـد الاستقلال تحولوا الى موظفين روتينيين بالمكاتب بعد أن فقدوا ذلك الحمـاس الذى كان يلازمهم أثناء الكفاح المسلح .. وفيها نقد لبعض العقليات أو الأفكار السلبية أثناء الثورة ومناقشة لدور المثقفـين فيهـا ثم دورهم اليوم وما قـد يتعرضون له من سوء فهم وللحساسية التى تنشأ بين رجال السياسة والمثقفين كما تناقش قضية الخبز وأثره فى حياة الفرد .. ولـكنها لا تضيف جديدا بالنسبة لأسلوبها ، فهى وان كان حوارها الى حد ما فيه تركيز وتعبير عن المواقف النفسية للشخصيات التى تتحدث عنها الا أنها فى سردها

أحيانا تقترب من الأسلوب الصحفى أو الأسلوب المباشر الذى لا فن فيه ٠٠ فالكاتب عندما يتحدث عن المناضلين بعد الاستقلال نجده لا يكبح جماح عواطفه مثل قوله :

« مسكينة هذه المكاتب لا تستطيع أن تنظم نفسها بنفسها ٠٠ الثورة أول مهمة تنجزها هى تحطيم الشكل القديم للمكاتب ٠٠ خطر ببالى ٠٠ مساكين أيضا أصحاب هذه المكاتب أبناء الفلاحين الفقراء والعمال الكادحين ومعلمو القرآن الذين تحولوا الى جنود والى ضباط بحكم البدلة العسكرية ، لا تستطيع نفسياتهم أن تنتظم عفويا ومن تلقاء نفسها ٠٠ الثورة ليست عاصفة هوجاء تقتلع الاشجار وتخرب السدود وتحطم القرميد وانما غيث سحساح يجرف الطحالب والأغصان الهشيمة ويغذى العروق الحية لتزهر وتخصب وتثمر ٠٠ آه لو كلفت بمهمة لحققت ٠٠٠ »

ان هذه الفقرة جاءت على لسان بطل القصة وقد كان خيرا للقصة لو أنها جاءت فى حوار أو نقاش أو جاءت فى موقف تصاحبه حركة أفضل من هذه الأحكام العامة المطلقة التى تؤثر على بنائها .

وللكاتب قصتان تعالجان موضوع العمال الأولى هى « **اليتامى** » (٣٢) والثانية « **البخار** » (٣٣) ، فالأولى تعالج قضية التسيير الذاتى بعد الاستقلال وهى احدى القضايا التى ظهرت بظهور هذا الحدث وقد استخدم فيها اسطورة شعبيــة معروفة فى بيئة الكاتب وهى أحسن توفيقا من قصة البخار التى تصور موقف عامل ماتت زوجته وطفلتــه بالسل وهو فى السجن وعندما خرج لم يجد عملا فاغرق أحزانه فى الخمر ٠٠ وأحسن ما فى القصة هو اتخاذها المونولوج الداخلى طريقــه للتعبير عن أزمة بطل القصة الذى كان ينفس عن حالته هذه فى الخمر ويلقى بالكلمات أحيـانا بلا معنى وبلا هدف وادمانه للخمر ليس هدفا فى حد ذاته وانما بسبب البطالة والمشاكل المادية والنفسيـة التى يتخبط فيها ٠٠ والكاتب يعد من القلائل الذين عنوا بموضوعات العمال ومشـــاكلهم والظروف القاسية التى يعيشون فيها ٠٠ على أنه من الناحية الفنية لم يتطور كثيرا فى هذه القصص ٠٠ ورأيى الذى قلته فيه منذ سنوات هو أنه ينجح فنيا فى القصة التى تدور حول الحب والمـرأة وعـلاقتها بالرجل أكثر مما يتعرض لقضايا من هذا النوع ٠

وهناك قضايا تتصل بما بعد الاستقلال ولكن جذورها ترجع الى الثورة وهى تمس أسر الشهداء والعائلات التى فقدت ذويها فى الثورة واستشهد أبناؤها مثل قصة « **المصير** » (٣٤) التى تعالج هذا الموضوع فتتحدث عن رجل مسن فقد ابنه الوحيد فى الثورة وماتت زوجته حزنا على ابنها وبقى هو وحيدا يجتر الذكريات التى حطمته وجعلته موضع رثاء أهل الحى وعطفهم واحسانهم بعـد أن كانوا يلتجأون اليه لحل مشاكلهم أو التخفيف من آلامهم ٠٠ والكاتبة تركز على شخصية هذا الشيخ الذى أصبح يتردد كل شهر على مكاتب الاعلانات لصرف المنحة المقررة له ولأمثاله ولكن الموقف النفسى الذى يلح على مشكلته هو انه تردد كثيرا وانتظر طويلا وكانت العبارة التى تواجهه دائما ان دوره لم يأت بعد أو أن ملف ابنه لم يدرس ، ومن هنا تنتقد الكاتبة الروتين الذى يتسبب فى تعطيل مصالح الناس ٠٠ ولكن القصة يبدو فيها نوع من التكلف والافتعال اذ أن هذا الشيـخ تذكر فجأة بأن له أختا فقدت هى الأخرى أسرتها فى الثورة فذهب ليعيش معها وبهذا حلت مشكلته ٠٠ والواقع ان هذا حل ساذج لقضايا من هذا النوع فالمفروض أن يواصــل هذا الشيـخ عمله لينال حقه ، أما الهروب أو السلبية فانها لا تخدم القصة ٠٠ ولكن الكاتبـة كعادتهـا فيما نشرته من قصص تعنيها الأمور الانسانية ولا تعنيها الأشياء التى تتصل بالناحية الفنية ٠٠ والواقع انها فى كل ما كتبت ترسم لوحات أو صـورا قصـصية من المجتمع لا ترقى الى مستوى القصة الفنية ٠

وهناك بعــد ذلك قصص أخرى ـ وان كانت قليلة ـ تصور بعض الشخصيات التى تمثل الواقع الجديد أو تنقـد بعض أنمـاط من السلوك لبعض الأشخاص أو الأفراد الذين يبحثون عن الشهرة بلا أصالة وينتهزون الفرصة لمجرد أن الظروف مواتية

او ان الفراغ الفكرى أو الأدبي يساعد على وجودهم مثل قصة « معدن الكلمة » (٢٥) لأبي العيد دودو وهي تصور نموذجا من المتطفلين على الحياة الادبية والثقافية الذين يظهرون على السطح بلا مدايات ولا ملكات عن طريق السطو على انتاج الاخرين ونسبته لأنفسهم بهذا الشاب الذى سطا على محاضرات أستاذه ونشرها باسمه بعد ان غير منها شيئا ما ..

والقصة من ناحية المضمون لاتقدم الشيء الكثير وانما نلاحظ ان فيها شيئا من الجدة من حيث الشكل وأظن أن الكاتب قبل هذه القصة وفي مجموعته لم يعن عناية كبيرة بتطور قصصه من ناحية الشكل وان عنى بالمضمون ، ولكنه في قصته هذه بالذات عنى بالشكل .. فهي أشبه ما تكون بالصورة «الكاريكاتورية» الساخرة وهذا بالطبع هدف من أهداف الكاتب حيث أراد أن ينقد هذه الظاهرة بأسلوب فكاهي ساخر ، ولكن العنصر الوحيد فيها الى جانب الفكاهة هو غلبة الحوار على السرد ، ولست أدرى ما اذا كان الموضوع هو الذى فرض هذا الشكل اذ ان الحوار بين صديقين أحدهما هو الذى أوحى لصاحبه بالسطو على محاضرات أستاذه ونشرها حتى يشتهر اسمه وبعد أن اشتهر لم يجد ما ينشره فذهب الى صديقه وأخذا يتحاوران حول هذا الموضوع حتى نهاية القصة .. أم ان الكاتب قصد اليه كشكل جديد مثلما نجده لدى نجيب محفوظ في قصصه الأخيرة ؟!

على أن الملاحظ أن هذا الحوار يأتي في صورة مسرحية وهذا يتضح بعد لقاء هذا الكاتب « المزيف » بصديقه الذى يبتسم ويرحب به :

« ـ أهلا .. أهلا بأبي صعدة

(يقوم اليه ويصافحه معانقا اياه)

ـ أهلا ، أخي .

(يدخله الى مكتبه ويجلسه قبالته)

ـ كيف حالك .. كيف حالك .. ؟؟

ـ شكرا .. مع الوقت .

ـ (ينظر اليه) مع الوقت .. مع الوقت .. هذا هو الجواب الصحيح .. أراك قد استفدت من نصيحتي !

ـ الى أبعد حد .. لولاها ..

ـ (مقاطعا اياه) لولاها لما اتخذ وجهك هذا الصقل والبريق ، ولما أصبح لابتسامتك وزنها في المحافل .. والمقاهي ..

ـ (يحني رأسه) اعترف بهذا ..

(يفتح محفظته) أقرأت كل ما نشر لي حتى الآن ؟

ـ (بعد ضحكة مدوية) لا داعي لذلك .. لا داعي لذلك .. دع مقتطعات الجرائد والمجلات في المحفظة لقد قرأت كل كلمة .

ـ (مبتسما) دون أن تشعر بالملل؟

ـ (يواصل الضحك) بالعكس . بالعكس . كنت أجد لكل كلمة طعمها الخاص » .

ومن هذا الحوار يتضح لنا الطريقة المسرحية فيه فيسجل الكاتب الحركات هكذا بين أقواس ولست أرى داعيا لاستخدام هذه الطريقة في القصة القصيرة ، فالقارىء لها ليس في حاجة الى أن ينبهه الكاتب بمثل هذه التنبيهات التى يحتاجها ممثل المسرح ليقوم بحركة مثلا ، ولكنه في استطاعته أن ينبهه في السرد .. لأن القصة حين تلجأ الى الحوار بهذا الشكل تدخل في اطار المسرحية أكثر من القصة القصيرة .. والواقع انني لا أتعاطف مع هذا الشكل في كتابة القصة الذى يعتمد على الحوار بصورة كبيرة دون اعتناء بباقي العناصر الاخرى كرسم الشخصية مثلا لأنها بهذا تفتقد الحركة من ناحية وتصبح قصة ذهنية تناقش الافكار بصرف النظر عن الشخصيات من جهة ثانية .. والمفروض أن القصة ترسم لنا الشخصية من خلال أشياء كثيرة منها الحوار .

واذا استثنينا قصة أو اثنتين للكاتب حاول فيهما أن يطور أسلوبه ومعالجته للقصة القصيرة فان قصصه الاخرى التى عالج فيها الثورة أو ما يتصل بها من قضايا يغلب عليها الطابع التسجيلي .. واذا كنا قد بررنا للكاتب مثل هذا الاسلوب عندما كان بعيدا عن وطنه فان رجوعه اليوم ومعايشته للواقع تفرض عليه أن يغير من رؤيته ومن أسلوبه للتعبير عن مجتمعه والواقع الذى يعيش فيه .

على ان هناك كتابا آخرين ساهموا في القصة القصيرة بمجهودات تختلف مستوياتها مضمونا وشكلا وموضوعا ، لم نذكر أسماءهم أو نتعرض لانتاجهم لأن المقال لا يسمح بالتحليل وبالافاضة ـ كما سبق ان ذكرت ـ ولهذا اقتصرت فقط على

بعض النماذج للتعريف واعطاء صورة عن القصة القصيرة فى المرحلة الحالية .

واذا كانت القصة القصيرة فى هذه الفترة قد تعرضت لواقع ما بعد الاستقلال بشيء قليل من العناية فان كتاب القصة عندنا لم يولوا عناية كبيرة لأحداث ٥ يونيو وقضية فلسطين باستثناء بعض القصص القليلة التى لا ترقى فى شكلها ومضمونها الىدرجة تستحق الكتابة عنها والتنويه بها .. ولكن الكتاب الذين ظهر لهم انتاج غزير حول هاتين القضيتين هم الكتاب العرب الذين يعيشون فى الجزائر منذ سنوات ولكن مستويات هذا الانتاج تختلف من أديب لآخر وليس هذا مجال الحديث عنهم .. ومن حقنا أن نتساءل : لماذا لم يعن الكتاب الجزائريون بهاتين القضيتين بينما عنى بهما الشعراء بشكل واضح وبصورة تستحق التنويه ؟؟

وفى نهاية هذا المقال يمكن تسجيل بعض الملاحظات حول القصة الجزائريةفى واقعها الراهن وهى انها لم تتطور كثيرا فى أسلوبها وشكلها وان نقلت لنا مضامين مختلفة وعالجت موضوعات متنوعة منها ما يتصل بالماضى ومنها ما يتناول الحاضر .. والطابع العام لطريقة المعالجة يغلب عليه الواقعية التسجيلية لا الواقعية الفنية ، لكنها تختلف من كاتب الى آخر وان كانت فى معظمها يغلب عليها طابع التسجيل لا التعبير .

كذلك فان الشخصيات فيها يغلب عليها النموذج العام لا النموذج الخاص الذى يتمتع بخصوصية معينة ، صحيح ان الملامح المحلية فيها واضحة ولكنها محلية تحتاج الى صقل والى عناية خاصة لتجتاز الحدود وتعبر عن سمات تلتقىفيها مع الانسانية عامة .

والقصة الجزائرية فى اعتقادى تحتاج الىجرأة فى المعالجة ، ولكنها جرأة الواعى بالتجارب السابقة فى المغرب والمشرق وفى العالم كله والاستفادة من هذه التجارب كما تحتاج الى وضوح فى الرؤية وفى الاتجاه ولعلها فىالمستقبل تحقق الأصالة والتجديد والتطور وتسهم فىتطور القصة فى الادب العربى عامة .

هوامش المقال

(١) بحيرة الزيتون — الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٦٨ .
(٢) الرصيف النائم — الكاتب العربى للنشر ١٩٦٧
(٣) دقت الساعة — الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٦٨ .
(٤) طعنات — الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٧٠ .
(٥) الظل — أبو العبيد دودو — المجاهد ٩ نوفمبر ١٩٦٦ .
(٦) مليكة — فاضل المسعودى — « صور من البطولة » — الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٥٨ .
(٧) مجلة « المعرفة » الجزائرية — أغسطس ١٩٦٤ .
(٨) المجاهد الثقافى — العدد ٩ — ١٩٦٩ .
(٩) بقطاش مرزاق — مجلة « آمال » يناير ١٩٧٠ .
(١٠) أبو العيد دودو — المجاهد ١٢ ديسمبر ١٩٦٥
(١١) بوهلال أحمد — المجاهد ٢٩/١٠/١٩٦٧ .
(١٢) زوليخة السعودى — « آمال » ابريل ١٩٦٩ .
(١٣) غلاوى عبد الله « آمال » يناير ١٩٧٠ .
(١٤) مصمور محمد الصغير «آمال» يونيو ١٩٦٩ .
(١٥) « آمال » سبتمبر — أكتوبر ١٩٦٩ .
(١٦) المجاهد الثقافى — مايو ١٩٧٠ .
(١٧) جريدة الشعب يوليو ١٩٦٨ .
(١٨) مجلة « القبس » ابريل ١٩٧٠ .
(١٩) مجلة « آمال » مارس — ابريل ١٩٧٠ .
(٢٠) عبد المجيد حروز — مجلة « آمال » يونيو ١٩٦٩ .
(٢١) محمد فيصلى « آمال » مارس ١٩٧٠ .
(٢٢) « آمال » يونيو ١٩٦٩ .
(٢٣) « الشعب » ١٧ مايو ١٩٦٧ .
(٢٤) تغدوين محمد « آمال » يونيو ١٩٦٩ .
(٢٥) محمد خوخه «الشعب» ٩ فبراير ١٩٦٨ .
(٢٦) بلقاسم بوربيع «الشعب» ١٩ مارس ١٩٦٨ .
(٢٧) أحمد حمدى « الشعب » ٢٨ ابريل ١٩٦٨ .
(٢٨) بلحسن أحمد « المجاهد » ١٩ مايو ١٩٦٨ .
(٢٩) مجلة « العروبة » يناير ١٩٦٤ .
(٣٠) زليخه السعودى « آمال » مارس — ابريل ١٩٧٠ .
(٣١) « آمال » ابريل ١٩٦٩ .
(٣٢) « الشعب » ٣ مايو ١٩٦٨ .
(٣٣) « المجاهد » اول مايو ١٩٦٦ .
(٣٤) زهور وينسى — «الشعب» ٩ ابريل ١٩٦٨ .
(٣٥) « آمال » مايو ويونيو ١٩٧٠ .

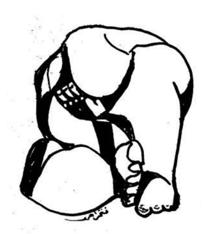


الدّيدان التى تغنى

بقلم : محمد زفزاف

مر علينا يومان فقط ، فى هذا المكان . شرعنا فى العمل الذى بدا لى لاول وهلة انه متعب الى حد الموت ، لانى شخصيا ، لم أتعود على أرض صلبة مثل هذه . ليس ذلك فقط . لكن المياه تغمر تلك الحفر التى يوسعها العمال ، بعد نهار كامل . حاولت ان اتخلص من هذا الماء فلم أستطع . قلت هذه هى البداية . ولم أكن أعرف عن النهاية شيئا . تركت ذلك لزمن سوف يأتى ولا أدرى عنه شيئا . وقررت بعد تجربة هذين اليومين أن أستمر فى العمل الى أن ننتهى منه . فكرت اننا خلال المدة التى اعطيت لنا ، لابد أن ننجز الاعمال التى طولبنا بها ، مهما كلفنا ذلك من جهد أو وقت . سمعت انه على بعد كيلومترين منا ، هناك مجموعة اخرى من العمال ، تابعة لنفس الشركة . سمعت كذلك : ما ان تنهى الشركة اشغالها هنا ، الا وستوجه مجموعة أخرى من العمال ، بعد ستة اشهر في الجنوب الشرقى . حيث تحتاج تلك الارض لا الى طريق واحدة ولكن الى عدة طرق . ربما سيكون حظى الالتحاق بالعمل هناك . ربما سابقى بالشركة ، حيث أنضم الى المجموعة العاملة فى المكاتب . كنت مرشحا دائما لمغادرة المكاتب ، نظرا لاشياء خاصة، ونظرا ايضا للمهارة التى أعمل بها خارج الحيطان كما يقول المهندسون الذين كنت تحت تصرفهم ، وعملت مساعدا لهم . حظنا الآن هذه المرة الجنوب . لم أكن ادرى بالضبط فى آية بقعة من الخريطة كنا نعمل . على كل حال ، لم تكن الارض صحراوية كما كنت اتوهم قبل المجىء . ومن يدرى ، فربما كانت المجموعات الاخرى التى تعمل فى نفس الاتجاه توجد على مقربة من الصحراء . آمنت بادىء الامر اننى لن أستمر فى العمل اقل من يومين . لكن ، ها قد مر يومان .. فى الواقع لم يكن هناك ، بالنسبة الى ، اى سبب للانزعاج . فلا شىء ، هنا ، يزعج او يقلق ، رغم صلابة الارض احيانا ، رغم هذا الماء الذى يطفر فى وجوهنا ـ نعم ماء في الجنوب ، وقرب الصحراء ـ . لم اكن أجد مبررا او سببا للقلق والانزعاج .. اما حياة الخيمة فهذه اشياء مالوفة بالنسبة الى . الماء عندنا فى البراميل والارض لا تخلو من اعواد جافة تصلح للنار . وهناك ، ايضا ، كيسان من الدقيق . تعود العمال ان يعجنوا بعد نهاية العمل أو أثناءه ، ويطبخوا طعامهم الذى الفته ، شخصيا ، بعد ما كنت أتأفف منه لدى اول علاقتى بالعمل . تلك اشياء طبيعية فى حينها . كنت ما ازال مراهقا ، صغير السن ، غادرت المدرسة الثانوية وانا احمل أفكارا مثالية لا حدود لها ولا فاصل . أوهام انسان مريض ، لا يعرف عن واقعه شيئا ، يتخيل الحياة بشكل سيارات متنوعة الالوان والاشكال ، وفتيات كثيرات ، ثم أمسيات على الكورنيش . كل هاته الأشياء لم تكن سوى مرض ، ادركت فيما بعد انه كان ضروريا بالنسبة لحياتى . عرفت فيما بعد الا شيء أشد واقعية وارتباطا بالحقيقة ، على مرارتها ، أكثر من العمل . العمل وحده هو الذى يصنع الرجال . لست أدرى كيف يستطيع ان يعيش رجل دون ان يحرك يديه ولا ان يعملهما في شىء .

كنت قد بدأت وقتها بالقضاء على ذلك الشخص النزق المراهق ، الذى كان يرقد فى داخلى ، فى افكارى ، في تصرفاتى ، فى حياتى . وبالفعل ، فقد انتهيت الى القضاء عليه ، وأعتقد بصفة نهائية . فكل تلك الافكار الحالمة التى كنت اضعها فى ذهنى عن المستقبل تغيرت تماما ، لتحل محلها افكار اخرى . تعودت شخصيا على حياة هؤلاء العمال : أنام معهم فى الخيمة رغم انى رئيسهم ، وان لى خيمتى التى وضعتها الشركة رهن اشارتى ، كما هو الشان اثناء كل ورشة اترأسها . لا أنام معهم فقط .. لكنى اضع نصيبى من النقود ، عندما يجمعونها لشراء جميع المستلزمات التى تخصهم طيلة الاسبوع الكامل . فى بعض الاحيان كنت أدفع لهم ثمن وجبة غداء او عشاء . ولم يكن يكلفنى ذلك قدرا



ماليا ضخما ، فنظرا لامتيازاتى الخاصة عليهم ، كانوا ينظرون الى تلك الوجبة باعتزاز ، ويظلون يتذكرونها طيلة الاسبوع ، أو على الاقل يذكروننى بها ، ويظلون - أيضا - ينتظرون يوما آخر كى أدفع لهم ثمن وجبة غداء أو عشاء . الحقيقة أننى أعرف ان تلك أشياء فوق طاقتهم . كانوا ثلاثة عشر عاملا ، أغلبهم متزوجين ، وحتى الذين لم يتزوجوا ، كانوا فى الطريق الى الزواج ، أو كانوا يطعمون عائلة كبيرة العدد ، غالبا ما كانت تسكن فى ضواحى المدينة ، بتلك الاكواخ القصديرية القذرة ، التى هى بمثابة بيت سكنى ومزبلة ومرحاض فى نفس الوقت ، لذلك عندما كنت أدفع لهم ثمن هذه الوجبة ، أشعر في داخلى ، انهم يريدون ذلك لانهم يقتصدون . وحاولت قدر المستطاع أن أقيم أكثر من وجبة فى الاسبوع ، حسب ما تسمح به ظروفى الخاصة ، كان هؤلاء الثلاثة عشر عاملا ، هم المجموعة التى تعمل معى فى الغالب . وقد جبت بهم كثيرا من الاماكن ، وكانوا دائما هكذا : العمل المتواصل ، تلبية كل ما اطلبه بسرعة فائقة ، ربما كان ذلك راجعا الى معاملاتى الخاصة لهم .. فزملائى الذين لهم نفس الرتبة ونفس العمل فى الشركة ، يسيئون فى الاغلب الى هؤلاء العمال . لم يكن هؤلاء الزملاء يتورعون عن ايلامهم وتكليفهم بالقيام بساعات اضافية فى العمل دون تعويض عليها . ولم يكن هناك أى تساهل من طرفهم تجاه هؤلاء العمال . ولطالما فكرت : هؤلاء الناس يرزحون تحت اعباء ثقيلة ، المشاكل ، الآلام النفسية والبدنية التى لا يستطيع مخلوق أن يتحملها . كنت شخصيا أعرف هذه الاشياء وأعيها جيدا . وأحاول أن أوضح هذه الاشياء للمهندس الذى أعمل لفائدته . خصوصا اذا ما كثرت الاحتجاجات من طرفه عن التأخر فى انجاز العمل ، وأوضح له بالخصوص ان هؤلاء الناس ليسوا حيوانات ، لكنهم بشر مثلنا . غير انه يقول : ان هؤلاء الناس لا يجدون ذواتهم الا في العمل المتواصل الشاق . وكان أغلب المهندسين الذين عملت معهم يعلنون تذمرهم من هذه الانسانية المبالغ فيها . التقارير تصل الى مدير الشركة ، فأستدعى على الفور وأؤنب على التأخير فى العمل ، وعلى تساهلى المبالغ فيه . باختصار ، كنت نغمة نشازا فى هذه الشركة . وأعتقد ، أن بسبب تساهلى وانسانيتى ، هو طبيعتى الخاصة . لذلك فانى أنعت نفسى بالرومانسية . ولطالما اتخذت قرارا ، تجاه نفسى وحياتى : أن أواجه العالم بخشونة وصلابة . وأحيانا أجد أن هؤلاء الذين يأخذون على تساهلى ، هم على حق ، وأن الحياة تفترض أحيانا قدرة فائقة على العنف . وشخصيا لم يكن من طبيعتى العنف . صحيح اننى كنت شديد الانفعال ، شديد التأثر ، لكن هذا لا يعنى اننى كنت عنيفا . طبيعتى كانت بعد ما تكون عن العنف . وكنت مستعدا بين الحين والآخر ، لان أتجاوز نفسى ، وأتسامح ، بل وأتنازل عن الاشياء الضرورية من حقوقى ، على الاقل كفرد .

كنا قد وصلنا ، الى هنا ، قبل يومين حوالى الساعة السابعة صباحا . وعلى الفور ما أن نصبنا الخيمتين ، خيمتى ، وخيمتهم ، وأنزلنا المعدات ، حتى سيارة للتنقل . قيل اننى لست فى حاجة اليها ، لان العمل هنا لا يتطلب التنقل الكثير من مكان الى آخر . هناك فقط بعض عربات اليد الحديدية التى تستعين بها عادة لمثل هذه الاعمال . وهناك أيضا البولدزر ، الرابضة فى مكان بعيد . حيث لم يحن موعد استعمالها بعد . فآخر ما نفكر فيه ، بعد الحفر ، وتسوية التراب ، ونشر الحصى ، هو البولدزر . وأحيانا كنا فى حاجة الى سيارة جيب صغيرة لتربطنا باقرب مدينة الينا . لكن هذه المرة ، نحن محرومون من سيارة الجيب .. البولدزر فقط التى تربض وحدها في المكان ، استعنت بارشادات المهندس وشرعنا فى العمل . كان المهندس نفسه هو المكلف

بالمجموعة التى توجد على بعد كيلومترين هنا . لذلك فقد تنقل خلال هذين اليومين مرتين بيننا وبينهم . وأغلب الظن انه سيظل يتنقل حتى ننتهى من العمل . توصيات عادية . اعرفها جيدا ، لاننى عملت معه مرارا « عباس . كن متشددا .. يبدأ العمل فى السادسة صباحا ، وينتهى فى السابعة والنصف . اذا اقتضى الامر ، اشتغلوا ليلا . الشركة تطلب هذه الاشياء . » وافقت .. ليس بمستطاعى أن أعارض ولا أن أحتج ، لانى أعرف أن أية مبادرة من هذا القبيل ستتعرض للرفض والسخرية . وقلت ساحاول أن أفعل ما فى المستطاع . لكن عادتى دائما هى عادتى : كنت أسمح لهم بقدر الامكان بان يستريحوا. وأحيانا ، أن يشربوا الشاى على رسلهم . وأحيانا ، اذا ما شعروا بالتعب ، يمكنهم أن ينصرفوا ليناموا . كنت أعرف اننى لو ضبطت لاديت الثمن غاليا : تخفيض الاجرة ، وتوجيه أنذارات بالطرد .. الخ . تلك هى العقوبات التى تلحق بامثالى . وغالبا ما لم تكن الشركة تستطيع ان تستغنى عن احدنا ، حتى ولو فعل ما فعل ونفس الشىء بالنسبة للمهندس . فقد ضبط مهندس قام بعملية تزوير قائمة بمستلزمات الاعمال فى احدى الورشات . وبدلا من الطرد ، عوقب بتخفيض اجرته لمدة شهر واحد . ذلك نوع من العقوبات التى تلحق برؤساء العمل أو المهندسين . الخصم فقط . سبب ذلك أساسا النقص الذى تعانيه الشركة من هؤلاء المستخدمين . كنت أفعل ما اريد تقريبا ، مراعيا عدم المبالغة فى العصيان وخرق قوانين العمل . كانت بضعة خيام ، هنا فقط ، تلوح لنا من بعيد متفرقة ، وغير ذات قيمة ، وكانت أيضا بعض الدواب ، وبعض الاشجار القصيرة ، متفرقة على مدى البصر من جميع الجهات . وخلفنا كانت هناك طرق كبيرة تؤدى الى مكان الجنوب ، ربما الى مدينة رئيسية فى المنطقة . وكان على أن اكتشف المكان على الاقل لكى أعرف أين يمكن أن أقضى نهاية العطلة . لقد سألت المهندس ، وقال انه يمكن ان توجد هناك ـ اذا لم تخنه الذاكرة ـ على بعد عشرين كيلومترا ، مقهى تديره اوربية لم يحدد جنسيتها . وفكرت بادىء الامر ان هذا شىء مسل حقا ، بل شىء رائع وانسانى . لكن ، كيف امضى الى المكان ؟ ليس فى حوزتى سيارة او شىء من هذا القبيل. اقنعت المهندس أن يتوسط لدى الشركة كى احصل على سيارة جيب . كان هو يملك سيارته الخاصة ، التى يستعملها بمقابل . ونظرا لان العلاقة بيننا لم تكن الى حد ما قوية ؟ فقد كنت اتلافى ان افاتحه فى مسالة نقلى معه ، عند نهاية الاسبوع الى المقهى ، حيث نستطيع ان نقضى ليلتنا بالشكل الذى تسمح به الظروف . كان شابا من « تارودانت » معتزا بنفسه ، رغم قصره المبالغ فيه ، وهيئته التى لا تبعث على الاحترام . كنت أعرف مدى الزهو الذى يشعر به رجل فى مثل وضعيته ، خصوصا مع اناس هم دونه فى العمل والمرتبة . ورغم انه لم تكن له امرة على ، فقد كان يعتقد مع نفسه انه يستطيع أن يامرنى باشياء خارجة عن عمله ، كنت فى الغالب أرفضها ، متحديا زهوه وغروره . كان العمال المرافقون لى يعرفون هذه الاشياء فى ، لذلك غالبا ما كانوا يعتبروننى واحدا يستطيع أن يحميهم .. من ماذا ؟ ـ لا أدرى . كانت هذه هى الفرقة التى تعمل معى فى الغالب ، فانا الذى اخترتهم واحدا فواحدا ، بعدما نظرت في أوراقهم الشخصية . وتعرفت الى هوياتهم ووضعياتهم . فالواحد منهم يستطيع أن يلبى رغباتى بالقدر الذى اطلبه ، وبلا مراوغة . ولم أكن شخصيا ، استغل هذه الطيبة فى ارواحهم . فقد كان نوع من الاحترام الذى افرضه عليهم ، كافيا لتمهيد الطريق الى تنفيذ اية رغبة . تلك كانت هى المسالة بحذافيرها .

قضينا ليلة البارحة ، أنا فى خيمتى ، وهم فى خيمتهم بشكل غير عادى لان التعب أنهكنا طيلة ذلك اليوم . فمن نقل المستلزمات ، الى بناء الخيمتين ، ثم الشروع فى العمل مباشرة ، كل هذه الاشياء كانت دافعا لتعب شديد ، ملك علينا جميعا كل قوانا ، فانهكنا ، ونمنا من آخرنا دون ان نتحدث او نشرب الشاى او نلعب الورق . كانت الليلة غير عادية . وكنت أشعر بتوتر اعصابى ، وتعب لا حدود له ، بحيث كنت أرى القمر مستطيلا لا مستديرا . وكانت خيالات شتى متزاحمة فى الليل ومتدافعة . ومع ذلك ، نمت دون ان اتحرك او اعى شيئا . شعرت ان العمال لم تكن لديهم اية رغبة فى العمل ، هذا اليوم . كانوا يتلكاون ، وحاولت أن اتجاهل هذه الاشياء . قلت ، انها ضرورية ولابد منها . نحن لا نستطيع ان نعمل مثل الالات ، فجسم الانسان لا يقد من حديد ، انه من لحم ودم . ثم راودتنى فكرة ، طيلة اليوم ، ان اذهب لاكتشاف نواحى المنطقة . وفكرت أن ربما ساتعرض لاخطار ، فى هذا الليل ، خصوصا واننى لا أعرف طبائع ناسها ولا حيواناتها . وشعرت بتعب موئس . ومع ذلك ، ارغمت نفسى على الصعود .

**

هناك أشياء لا يعرفها احد .. اشيائى تلك . حتى الذين يعرفونها لا تهمهم بالقدر الذى تهمنى . لكل واحد اشياؤه وحقيقته . ـ فكرت ـ وأضفت : ان الحياة هى حيز خاص . حيز ؟ ما حجمه وما كثافته ؟ لست ادرى . ولكن اعتقد ان الحياة ، هى تلك الافعال اليومية ، التى قد لا نعيرها اهتماما ولو ضئيلا . والحياة هى تلك العلاقة البسيطة او المعقدة المتشابكة بيننا وبين الناس . لذلك فحياتى ، هى هذه الحوادث التى جرت لى بعلم أو بغير علم منى . ليس هذا مجاله . ولكن بواعث داخلية دفعتنى الآن للتفكير فى مثل هذه الامور . قد يعتقد البعض أن هناك دوافع تبرم من العمل مثلا هى التى املت على افكارا مثل هذه . لكن الحقيقة هى العكس . احب هذا العمل ، رغم التنقلات الكثيرة ، ورغم الانقطاع الذى يدوم اياما ، واحيانا شهورا .. المسالة مسالة عادة والفة . فى بادىء الامر كنت أجد صعوبة كبيرة فى الانقطاع عن حياة المدينة ، والانعزال فى الخلاء ، مع مستلزمات العمال والبولدزر والجيب وبراميل الماء ،

لكن الامر اصبح على عكس ما كان عليه . اعنى ان حياتى اليوم اصبحت ذات ارتباطات خاصة ، وذات طعم خاص كذلك . ثم ان العمل احيانا ، لا يفترض الانعزال التام عن جو المدينة . فقلما تحدث امور مثل هذه ، مثلما هو الشأن اليوم . ومن يدرى فربما يجيء امر خاص من فوق فانتقل دون ان اتمم العمل ، ويتولى آخر المهنة التى اقوم بها . كل شيء محتمل ، وكل شيء قابل للتغيير ، ونحن لا نسير حياتنا بانفسنا . ان سلطتنا على حيواتنا بسيطة للغاية ، وضئيلة جدا . فكثيرا ما تفشل نوايانا ، ومطامحنا لان الظروف ليست بيدينا ، ولكنها بين ايد خفية لا يعلم سوى الله وحده لمن هى . هل هى للشياطين ام للملائكة ؟ فمثلا ، كنت انوى ان اصبح وانا شاب طبيبا كبيرا له شهرة وصيت ومال . ولكن هل تتحقق كل المطامح ؟ ابدا لا .. الامور معقدة جدا . وهذا ما كان غائبا عن ذهنى ، الا انى اصبحت اعيه جيدا ، واعرفه معرفة قوية على ما اعتقد .

لم اتمم دراستى لاسباب خاصة ، لا تعنى احدا ، كانت مطامحى بعيدة جدا ، وكنت متفتحا على عالم هو من اختراع احلامى المريضة . وفجأة ، لم اعرف كيف التحقت بالعمل . لم اكن اجاوز الثامنة عشرة ، ولم اتم حتى دراستى الثانوية . فجأة ، فر العجوز ابى ، مع عشيقة .. هكذا وبلا ادنى مراوغة . وتركنى وامى . ولم اعرف ما الذى افعله . من يعولنى ومن يعول امى ؟ اسئلة لم تحيرنى كثيرا . لانى ، وبلا تفكير وجدتنى اشتغل بالشركة . كنت محظوظا الى حد بعيد ، فانسان فى مستواى ووضعيتى لا يمكنه بحال ان يعثر على عمل حتى ولو دفع ماء وجهه وكرامته .

دخلت على امى .

— سى عباس .

— اى نعم .. انى .

— تعال يا ابنى . اقترب . اقترب .

واقتربت ، وجلست مطرقا ، كانت عجوزا لا تقوى على شيء ، شديدة الضعف ، خالية من اية رغبة جنسية . ولم يكن فى عينها ذلك البريق الشهوانى الذى نجده عند غالبية النساء . كان قد انهكها زوجها . ولم تعد تصلح لشيء . جلست بجانبها ، وامهلتها حتى تنفست او لنهدت بياس مر . ثم قالت :

— ابوك دارها (اى فعلها) .. تعرف هذا . ماذا تقترح يا ابنى على امك ؟ الزواج من جديد ، ام العمل فى احد المعامل ؟ اقترح على امك يا ابنى وقل ما شئت .

ظللت ساكتا وفهمت ما كانت تعنيه بالضبط . العمل ؟ هى لا تستطيع ان تفعل شيئا . لقد اصبحت جثة . مجرد جثة . الزواج ؟ هذا ايضا شيء مستحيل . ولا يمكن ان اسمح لامى بذلك . ثم . ثم من يستطيع ان يتزوجها وينفق عليها وعلى رجل فى سنه . وفكرت . كنت امام الامر الواقع . الحياة صعبة . والظروف تسير كما تريد . واقترحت :

— امى . لا تفكرى فى هذه الاشياء . سأتولى الامر .

— نظرك يا ابنى . رد بالك وافعل ما تشاء .

وبدأت أشتغل لم أعد أسمع شيئا عن ابى ، فى اية مدينة هو ، وهل انجب اولادا ؟ كنت اريد فقط ان اعرف انى هذه الاشياء . وفى الواقع لم اكن اشعر باى حقد تجاه والدى . فهمت ظروفه وقدرتها . ان الانسان غريزى .. حيوان غريزى . واكثر من ذلك ، يستطيع ان يتخلى عن كل شيء مقابل لحظة خاصة . الرجل والمراة على السواء . وفكرت لنفسى : يعلم الله ماذا كانت تفعل امى عندما كانت شابة .. هل هى قديسة ؟ لا .. ليست قديسة ولا شيطانة . ولكنها واحدة كالاخريات وكالآخرين . هى مثل ابى . ومثل التىذهبت مع ابى . مثل كل الرجال ومثل كل النساء . فلا احد يتورع من ان يفعل انعجب عندما تتاح له الفرصة لذلك طالما شعرت بعاطفة خاصة تجاه ابى . وتمنيت فقط لو يزورنى حتى ولو مع زوجته ، ولكن اين هو ؟ وهل يعقل ان يعود ؟ كان قاسيا ، فظا ، غليظ العاطفة والقلب . وفى نظرى ان الاب ، اى اب ، ليس من حقه ان يكون خشنا الى هذا الحد . فنحن مطالبون ولو بقسط بسيط من الانسانية ومن الرحمة . من يطالبنا بذلك ؟ لست ادرى . ولكننا مطالبون وكفى . الحياة تمضى تحت المطالبة والطلب . وهذا الطلب والمطالبة ، هو ما يسمونه فيما اعتقد بالمسئولية . لم يكن ابى مسئولا فى يوم من الايام ، لا امام نفسه ، ولا امام اى احد كان عديم الثقة بالنفس الى جانب ذلك . وكان لا يفكر فى لحظاته ولا فى لحظات غيره . وقلت لامى باننى ارغب فى رؤية ابى ، قلتها مرارا ، ولطالما انتظرت غضبا ناريا منها ، ولكنها على العكس لم تكن لتثور ولا تجحظ عيناها كما كنت اتخيل .. كانت تنظر الى بهدوء وبوقار وبالفة كالقطة العجوز ، امام صغارها . ثم تقول : « ابوك اين هو ؟ لا احد يعرف . هو لا يرغب فى رؤية احد . سنوات عشر تمضى . ولا يفكر فى ابنه ، او فى زوجته التى قضى معها عمره كله . » ثم تصمت . ولا تضيف شيئا . نفس الكلمات تتكرر ونفس البرود ، ونفس الحركات . واحيانا كانت تضيف : « فتش عنه الدنيا ، ابو المسخوط . ابوك العاهر .. تجد الشياطين فى طريقك ولا تجده . » عشر سنوات مضت ، بل اكثر من ذلك . اين ابى ؟ لست ادرى . وربما يكون قد مات ، قد رحل . فغير معقول ان يتصف اب بمثل هذه القسوة .. عشت مع امى . كانت البائسة تشكو من تركى لها اول الامر . ولكنها عندما تعودت ، اصبحت قادرة على الصبر . كانت تلزم البيت وحدها ولا تغادره الا لماما .. احيانا كانت تصلى . واحيانا اخرى كانت تخرج لتثرثر ، او تنبش فى الارض ، تحاول ان تغرس البصل او الثوم او البطاطا او النعناع . وكانت تقول : « الحركة بركة » فلم تكن تطيق الجلوس المستمر وحدها

فى البيت .. فطولة خير من لا شيء ، وربطة نعناع خير من لا شيء كذلك . ثم انه بالرغم من التعب الفيزيولوجى الذى كان يبدو عليها ، كانت تتحدى وتتحدى دائما ، وتتحرك ، وتخرج ، وتفعل أشياء ، ربما هى ليست فى مستطاعها . كنت أدرك انه ليست لها قدرة على العمل ، وان ما تفعله ليس سوى محاولة تغطية ، ومحاولة شغل البال ، وإراحة الضمير غير العامل .

عندما التحقت بالشركة ، لم أكن أتوقع أن الامور ، أية أمور تسير كما نريد . ببساطة التحقت بالعمل وبسهولة كذلك . كنت ولا بالمكاتب .. تقلبت فى أغلبها . ولكن التجربة دلت على أن لى قدرة خارقة على تسيير الاعمال خارج الجدران ، واننى رغم التهم التى توجه الى من كونى شديد الحساسية ، بالرغم من هذه الاشياء جميعا ، كنت معروفا على انى من الذين ينجزون الاعمال على أتم وجه . ثم . ثم أن ما كان يتمتع به زملائى من سمعة سيئة فى الغالب : السرقة والتوقف عن العمل بلا اذن ، كل هذه الاشياء كنت منزها عنها . جبت تقريبا أرجاء البلاد . وكنت مرشحا الى الذهاب الى دوله افريقية ، تعاقدت الشركة مع حكومتها على انشاء طرق صغيرة وكبيرة . كنت مرشحا لذلك . ولكنى رفضته ، فقبل الرفض بسهولة . أسباب خاصة ، فى الواقع ، هى التى كانت تدفعنى الى الابتعاد عن الهجرة ، حتى ولو كان مردود ذلك كبيرا . الاجور تتضاعف ، والامتيازات كثيرة ومتنوعة . ولكنى كنت دائما أرفض . فمناسبات مثل هذه لم تكن تعطينى سوى الشعور بالتفاهة . ولست أدرى بالضبط لماذا ؟ فالتفاهة غالبا ما تنتج عن أفعال يقوم بها المرء ، وليس راضيا عنها . أما ، شخصيا ، كان شعورى بالتفاهة يزداد ويتفاقم . ولم يكن هناك سر فى ذلك . ربما لانى فقط ، لم أكن أرغب فى أن أصبح غنيا . ان مجرد التفكير فى انفنى يجعلنى تافها ، وغير ذى قيمة . كنت بدو لنفسي حقيرا كالجرذ عندما افكر فى الثروة ، بل أحقر من الجرذ . وعلى العكس من ذلك كانت امى تدفعنى ، كلما أتيحت الفرصة لها ، نحو ما تسميه بالمجد . وشخصيا ، كنت أعتقد ان اوان المجد فات . تلك أوهام يتعلق بها شبان فى سن معينة من حياتهم . كنت أرغب فقط فى أن أعيش ، أنام وآكل ، وارتدى ثيابا نظيفة ، وأملك بيتا لا أدفع ثمن اجاره (ولحد الآن لا املك هذا البيت) ويبدو لى أحيانا انه من الصعب على المرء أن يكسب مأوى يلجأ اليه . فالحياة معقدة تتطلب المزيد من الفلوس ، والمزيد من الرغبات الجامحة ، التى ليست فى جوهرها سوى دناءة وخساسة لذلك ، فعندما اقترح على العمل هذا ، فى هذه المنطقة بالجنوب ، لم أبد أى تأفف ولا تبرم ، بالرغم من انى لم أكن أعرف المنطقة ، ولم يسبق لى أن زرتها . كانت قرى منتشرة هنا بفوضى ولا نظام ، بل انها لم تكن قرى بما لكلمة قرية من معنى . مجرد خيام فقط متباعدة بعضها عن بعض ، وأحيانا يستطيع المرء أن يرى بعض البيوت البيضاء أو الحمراء على مد البصر . لكن ذلك

قليل .. وأحيانا أخرى طيلة اليومين ، لم نستطع أن نشاهد ولو حيوانا بريا او اليفا مع أن هـذا الخلاء الواسع يغرى بتكاثر الحيوانات . الارض صلبة وطازجة . لكن هذا لا يمنع من انتشار الخضرة والنباتات حتى ولو بين الاحجار .. أغلب الظن ان الصحراء بعيدة عن هذا المكان ، بالرغم من انها تبدو قريبة جدا على الخريطة . ومن يدرى فربما تكون الصحراء هنا على بعد عشرين كيلومترا فقط .. لا شك ان المهندس يعرف الامر ، ويعرف مقاييس خطوط الطول والعرض هنا . لأن ذلك كما يبدو لى هو شيء من اختصاصه ولابد قبل ان يعطى الاوامر ببدء العمل ان يتعرف على طبيعة الارض التى سيشرع فى اصلاحها او تعبيدها . قلت للمهندس عندما نزلنا فى الصباح ، ان الارض هنا شبيهة بالتى اشتغلنا عليها قبل ثلاثة أشهر ، هناك قرب تارجيست .. لكنه لم يوافق ولم يعارض . ولربما كان على حق لانه لم يزر المنطقة . اشتغلت فيها برفقة مهندس آخر تشيكى الاصل يعمل لحساب شركتنا .. لكن المهندس نظر فى وجهى مليا وقال من خلال أنفه بلغة مزكومة :

ـ هل تعتقد ان العمل هنا صعب ؟

قلت وانا أدق الارض بحذائى :

ـ هنا ؟ لست أدرى .. الارض شبيهة بتلك التى قرب تارجيست ، ومع ذلك انجزنا العمل .. ومن يدرى؟ فربما تكون أسهل .. هناك البولدزر ، وهناك الفؤوس والادوات والعمال .. كل هذه الاشياء تسهل العمل حتى ولو كان تحطيم الحديد .

قال المهندس الشاب :

ـ الحديد يمكن أن يصهر . أما الارض ؟ المسألة بنظرى ليست مسألة صعوبة ، لكن مسألة تأخير العمل . عليك أن تعجل ما أمكن حتى ولو اقتضى الامر اضافة بعض الساعات .

قلت وانا انظر تجاه المكان الذى نصبنا فيه الخيمة :

ـ اضافة بعض الساعات معقول . لكن العمال لا يعوضون على ذلك .

قال وهو يدخن

ـ هذا أمر لا يعنيك ولا يعنينى . انه أمر يخص الشركة .

ثم تركنى . وبقينا هناك نعد اللوازم لنشرع فى العمل ، فى نفس اليوم . كنت أشعر أن الامور اوضح فى ذهنى . سوف نخطط أولا وسوف نمضى فى العمل طيلة هذه المدة ، ولست أدرى كيف بدأت افكر فى مى العجوز آنئذ . بالرغم من انه لم يكن هناك أى سبب لذلك . تلك حالات خاصة كانت تنتابنى فى بعض الفترات ، سواء وقت العمل ، او خارجه .. حتى فى المقهى أو فى قاعة السينما ، أو فى الشارع ، كانت تبدو لى أمى

بائسة شقية ، ومهزومة . وكنت أفكر دائما أن أبى هو الذى هزمها . لقد تركها جثة ، أو كما يقول العرب القدماء ، تركها هامة ، لا تصلح لاى شيء .. لعل هذا ما كان يجعلنى أفكر فيها باستمرار . لكن . عندما كنت أتذكر أعمالها اليومية البسيطة كنت أشعر براحة ، وأتيقن انها ليست قلقة ولا متألمة ، خصوصا وانه لم يكن في امكانى أبدا تقدير الالم الذى يشعر به الآخرون ، فذلك خارج عن طاقتى ، أعرفه ولا أتجاهله .

**

كانت الاحجار ناتئة ومدببة تحت أقدامى . رأيت طيور القوبع تحلق بعيدة حول الخيام ، تحوم فى الوقت الذى كنت أسمع فيه أصوات الفؤوس ، وهى ترتطم وترن فوق الاحجار .. مشيت ببطء ، واتكأت فى ظل البولدزر .. وغابت طيور القوبع .. نباتات ميتة وخضراء ، كثيفة ومقصوصة بين الاحجار .. الاجسام ترتفع تنحدر وتتكور على نفسها كالدود ، ورنين الفؤوس ، وصمت غير شرعى يحتوى المكان تحت ظل البولدزر الممتد الى بعيد ، من جذر العجلة الحجرية .

تعبت كثيرا اليوم ولم تكن لى أية رغبة فى العمل . كنت أسير ، أتغيب احيانا وأعود لاتأمل طيور القوبع التى تملأ الفضاء . وأحيانا أنظر بالحاح الى جبل مسنم أحدب كالتل ، احيانا أخرى أتصور الجمال تلالا متحركة فى فيلم حربى .. لا أحب أفلام الحرب . نظرت ، وفكرت ، وأحببت الظل . لم يكن الهواء كثيفا خانقا ولا حارا . رياح خفيفة ومعتدلة من شهر نوفمبر هى التى تهب ، تاتى مسرعة ثم تتوقف لتمتلك قوة جديدة تستأنف السباق بعد ذلك . اخرجت سيجارة وفكرت فى الريح ، الريح التى تاتى من أى مكان أو من لا مكان . هل هى نفس الريح يا ترى تمضى لتعود بشكل أو بآخر ؟ ورأيت الاجسام المنحنية كالديدان ، الملتوية كالديدان . صوت الفؤوس وارتطامها بالاحجار باهتة الى حد الملل . الى حد الانتحار . وقفت ونظرت خلف البولدزر . ولم يكن هناك سوى لون أبيض بشكل قبة بعيدا فى الاتساع الغربى .. أنغام وهمية تاتى من هناك . أنغام لكن بلا وقع تتمطط وتنحدر الى أسفل . أحيانا تختلط مع رائحة ابطى النتنة . وأحيانا أخرى تتجه بسرعة وتخترق تلك الاجسام التى تنبش الارض . كنت أتصورهم وقد استمعوا لها ، ثم سقطوا جميعا من جراء الانفعال الى الارض . وفى الواقع .. لم تكن هناك أنغام . هناك هاوسات فقط ، وخيالات كثيرة التعشب . دخنت وملأت صدرى ورئتى . واتجهت وسط حجم ظل البولدزر .. ووقفت قرب الاجسام المنحنية التى تنبش الارض . واقترحت لاشعوريا على أحدهم :

ـ اسمع ، يمكنك أن تمضى خلف قدور .. هذا المتر يستطيع أن يحفره برواك . وهز برواك رأسه ، وأراح الفاس على نصفه التحتى ، ونظر جهة الخيمتين ، وقال بانشراح :

ـ أى نعم سى عباس ! أنا أفعل هذا .

ولم يتكلم قدور . كان لا مباليا بالحوار . ترك الفاس فى الحفرة وأمسك بالبالة ، مضى بها وهو يضعها فوق كتفه . سار كمن يمشى نحو هدف بعيد ، وفكرت أن هؤلاء لا يعرفون تلك الانغام التى تنحدر من ذواتنا . نظرت الى رقعة كبيرة فى مؤخرته ونظرت الى رجليه الحافيتين اللتين ترتطمان بالاحجار .. ولست أدرى اذا كان يتالم أم لا .. سار أيضا واغرق فى المسير . وقلت لبرواك :

ـ تضرب بالفاس أولا .. خذ بالة بعلى .

أجاب :

ـ سى عباس . أنظر هناك . البالة لن تفعل شيئا . الفاس أولا تقلع الحجر .

بعلى .. الارض رطبة أمامه وهو يحتاج الى البالة . أنظر هنا ، الارض طايبة .

ـ صحيح .. اضرب أولا تحت الاحجار . واذا انتهيت خذ عربة يد وانقل التراب من هناك .. لتملأ الثغرات .

قال نعم برأسه ، وزقزقت القوابع فوقنا . وأزاح بعلى طاقيته وترك رأسه تحت الشمس الدافئة . كان يتنفس بهدوء وينظر باتجاه الطريق . بل ينظر نحو أشجار صغيرة كثيفة ومتماسكة بشكل غابة . ولكنها نادرة وقليلة ولا تملأ الافق . أشجار كالدوم بلا قامات .. كالحلفاء .. وشعرت برأفة تغزو قلبى . رأفة على من ؟ لست أدرى . ربما على نفسى ، ربما على الآخرين . واخرجت سيجارة وبدأت أدخن . كنت كثير التدخين فى حالات خاصة ، أشعر فيها بيأس من كل شيء وبجدوى لا شيء . ونظر بعلى فى وجهى :

ـ سى عباس ، أعطينى واحدة !

ورأيت رأسه العارى ينتفخ وينتفخ حتى يصير بحجم القبة . أخرجت سيجارة وأعطيته اياها . كان معى نصف علبة . وقدمت الباقى لهم . وذهبت الى رأس الطابور ، والاحجار تخز قدمى ، ورنين الفؤوس يتواتر فى الهواء . وقلت لبحرى ، فى مقدمة الطابور :

ـ هل تسير على الخط دائما ؟

ـ نعم ما يزال مرسوما . أسير دائما فى الاتجاه .

ثم توقف بصلابة :

ـ سي عباس .. هل تدرى ماذا هناك ؟ البيت الثانى على اليمين ؟

قلت :

ـ لا ..

ـ امس .. ذهبت وحدى ، وتحديت نباح الكلاب ، ودخلت . هل فهمت ؟

قلت :

ـ نعم . تقصد ان هناك وليات .

ـ نعم . وليات واى وليات ! خمنت ذلك عندما رايت حركة غير عادية دخولا وخروجا .

ونظرت فى البيت الثانى الى اليمين . لم يكن هناك اى آدمى يتحرك . هل صحيح ان الوليات يوجدن حتى هنا ، فى هذه المناطق النائية .

وقلت لبحرى :

ـ هل انت متأكد ام انك تتهكم ؟

ـ والله يا سى عباس . تستطيع ان ترى ذلك بنفسك . اربع وليات صغيرات . جئتك امس ووجدتك نائما . لم ارد ان اوقظك ، كنت نائما وكتاب فوق صدرك مفتوح فى نصفه . كنت تقرا ولا شك ثم نمت . لم اجب بحرى ، بل نظرت فى الطابور خلفى ، ورايت اجسامهم منحنية كالديدان . ثم سمعت هدير محركه قادم من بعيد . وسمعت الضربات وتوقفت السيارة عند الخيمتين خلف البولدزر ، وخرج المهندس الشاب ونادى على .

قلت لبحرى :

ـ هيا اعملوا ، ودائما فى نفس الاتجاه .

قال نعم ، وانحنى .. ثم صار دودة مثل باقى الديدان الاخرى ، وتعثرت بالاحجار . ورايت المهندس يدور على نفسه ويدخل فى السيارة . وادار المحرك وعاد من حيث جاء . اخرج رأسه ولوح لى بيده . « ساعود بعد قليل ربما .. » ثم لبثت واقفا فى مكانى قرب البولدزر ، وحولت عينى الى البيت الثانى عن اليمين . وبقيت مركزا وعيى حاضرا كالزمن . ولم يمر هناك اى آدمى . فلاوليات ولا اى شىء . رنين الفؤوس فقط ، وظل الالة الضخمة يمتد نحو الرجال الذين انحنت ظهورهم وتقوست كالديدان فوق التراب ، ورايتهم ينبشون ويهوون على الارض .

**

مد بحرى يده الى عندما تعثرت بالارض ، ثم اخذ يلهث كالكلب وسط الليل الخفيف . وتجاوزنى بحرى بعدة امتار وتوقف . ظللت فى الحفرة بضع ثوان وخرجت فلحقت به . وجدته لا يزال يلهث كالكلب . بحرى يلهث كالكلب . وكان البيت الثانى عن اليمين هادئا وفيه ضوء . ومد بحرى يده تجاه البيت فى سواد الليل وقال :

ـ هيا . نحن هنا .

قلت لبحرى :

ـ انهن نائمات .

قال بحرى :

ـ لا يهم . سيكون الشيخ خلف ضلفة الباب .

قلت :

ـ من الشيخ ؟

ـ هو ، ابوهن او اخوهن . او .. الوليات .

ـ هل معهن الشيخ ؟

ـ نعم قالت احداهن انه عمهن .

قلت :

ـ اذهب وحدك .

ـ سى عباس !

ولم اجب ولم اتحرك . توقفت قدمى اليمنى عند حافة الحفرة فى الليل الخفيف ، وبدا لى بحرى جزءا من الليل . ولم يكن ، فى حقيقة الامر ، شيئا كالليل . الليل هو الذى يشبهه . او ان كليهما لم يكن يشبه الآخر . ثم اخذت الحفرة تغور تحت اقدامى ، والضوء يزداد لمعانا فى البيت . وسار بحرى بعيدا وغاب ، دخل فى ثقب ليلى وغاب . ثم خرج من نفس الثقب ومشى نحوى . ونظرت اليه ، لكنى لم اكن اراه ولا اميزه .



ـ سي عباس . هيا فالوليات موجودات . الشيخ وراء الصلفة كالجرو ، وقبل ان ندخل في الثقب ، تنفست، ورايت اضواءنا الباهتة في البعيد . لقد توقفت الاجسام عن الالتواء والانحناء الآن . وهم ربما يلعبون الورق ، او يطبخون اوراق الشاى ، أو يمتصونها ، لانها تحتفظ بلذة فائقة ، وتختزن كمية من السكر مسيلة للعاب . بل ربما كانوا يفعلون شيئا آخر . وربما خرجوا للتفوط في الخلاء بين الاحجار الناتئة . غدا في الصباح سيجدون فضـلاتهم وقد فقدت لونها الاول ومبتلة بالندى . وربما دفنوها في حفرة صغيرة مثلما تفعل بعض الحيوانات . بل ربما اخطاها بعضهم ووقع فيها فيضحك عليه زملاؤه . وعندما تنفست رايت جسما مكوما في الثقب ولم يكن له اى شكل ، ولاتظهر منه اية علامة تميزه . وبدا وجه له عينان وانف وفم مثل السيكس . وعندما تحرك ظهر وجه وسط دائرة من القماش ولما انفتح الفم وانغلق اتضح انه بالفعل مثل السيكس . سيكس، عجوز وقذر ، ثم غطى القماش بسرعة ذلك الوجه الذى يشبه جـذع البلوط ، واختفى الانف والعينان ، واستعاد الشكل وضعه اللاشكلى . وقال بحرى :

ـ الليل جميل !

قلت :

ـ الهواء رائع !

قال : ـ الوليات انسانيات .

قلت : ـ الناس كرماء .

قال : ـ سنذهب لنرى .

قلت : ـ لا داعى لذلك . لاننا لسنا فى حاجة الى.

قال : ـ الارض صلبة وفيها احجار .

ـ اى صحيح . وستعملون مدة اربعة ايام اخـرى او خمسة .

ـ وماذا بعد ذلك ؟ هل ننتقل ؟

ـ مكان آخر ينتظركم خلف المجموعة الثانية .

قال بحرى :

ـ سى عباس .

قلت : ـ بحرى ؟

قال : ـ الوليات انسانيات .

قلت : ـ الانغام تكثر وتتكاثف وانتم تبدون كالديدان فى النهار .

قال : ـ سى عباس ..!

قلت : ـ بحرى ؟

قال : ـ سى عباس ..!

قلت : ـ نعم بحرى !

قال : ـ الوليات انسانيات .

قلت : ـ الشيخ ليس اباهم ولا امهم .

قال بحرى : ـ سى عباس ..

قلت : ـ نعم .

قال : ـ رايتك تعلو بالجزء الاسفل من جسمك ؟!

قلت : ـ تكذب بحرى .. كيف رايت ذلك .

قال : ـ رايتك رغم ان الغرفة كانت مظلمة . الم ترنى ؟

ـ لا ..

ـ لماذا ؟ سى عباس .

ـ كنت افكر فى الشيخ .

قال بحرى :

ـ سي عباس ، هل ناتى كل مساء .

قلت : ـ نترك المجال للآخرين .

قال : ـ سى عباس . لا تقل هذا . انهم يخافون من العقاب .

قلت : ـ اى عقاب ؟

قال : ـ الله ! سى عباس .

ـ انه ليس قاسيا بالشكل الذى يتصورون .

ـ من ادراك سى عباس . الحق . الله اعلم .

ومد لى بحرى يده فى الظلام ولم اسقط فى الحفرة هذه المرة . كان هناك نتوء فى الارض ، بل نتوءات . وكانت الاضواء كثيرة وباهتة ومتفرقة فى هذا الخلاء الاسود الضوء فى البيت الثانى عن اليمين . والضوء فى الخيمتين . وظهرت لنا الآلة البولدزر عالية وضخمة كالجبل . ولاول مـرة شعرت اننا فى صحراء . وتخيلت ان مئـات من الجمـال العشارية تهجم علينا وترفسنا وهى تزبد تعضنا وتجرجرنا حتى نموت . ان الجمل العشارى بامكانه ان يهز خيمة بسهولة وان يدوس عشرة اشخاص دفعة واحـدة . وقلت لبحرى :

ـ بحرى . هل لك فكرة عن الابل العشارية ؟

ـ آه ، سى عباس . لا تتحدث عن ذلك . انها تقتل فى ثانية .

قلت :

ـ هل سبق ان رايت شخصا قتله جمل عشارى .

ـ الحقيقة سي عباس ، لا ..

قلت : ـ انظر الخيمتين . انهما تشبهان جملين عشاريين .

ـ آه سى عباس . صدقت .. الاحجار ناتئة وهـواء الصحراء رطب فى الليل .

قلت : ـ بحرى ، هل نعود ؟

ـ سى عباس ، الى اين ؟

- البيت الثانى عن اليمين .

- يقال ان الاكثار من ذلك يذهب بالصحة ، سى عباس .

ومضيت صامتا قرب بحرى . وسمعت الانغام ، وحاولت ان أتخيل الانغام فلم أستطع . الضوء باهت فى المكان ، وهواء رطب آت من الصحراء ، وتخيلتهم جميعا يتحدثون عن ابنائهم ومشاريعهم . وتخيلت احدهم وهو ينفخ على النار فى الموقد ليهيىء البراد الثالث أو الرابع. وانتبهت الى أن بحرى يجب الا يكون مكانه الى جانبى . ونظرت اليه فى الليل وهو يتعثر . ثم قلت له :

- بحرى عم مساء .. اذهب فهم ينتظرونك .

قال بحرى :

- عم مساء ، سى عباس . الهواء جميل وربما لن انام بعد .

قلت : - عم مساء . الساعة السادسة صباحا غدا .

ونظرت نحو الاضواء الباهتة ، حيث الوليات ، وحيث الشيخ الذى لاشكل له ، ولكنى لم اكن افهم شيئا. وتنفست ودخلت الى الخيمة . وسمعتهم يتحدثون ايضا، ولم أفهم مايقولون . كان هواء الصحراء يدخل من ثقوب الخيمة الفوقية .

**

خرجت من تحت الخيمة فى الصباح فلفحنى الهواء. ومشيت فوق الارض وفتحت عينى جيدا . خيمتهم ماتزال نائمة . رأيت الندى فوق الاحجار ، ورأيته فوق الخضرة القليلة على التراب ، ورأيت الشمس كذلك . أما البولدزر فرابضة كالجمل بعيدا بلا حراك ، وسمعت همهمة فى الخيمة المجاورة ، وأصواتا تلغط ، فرجعت الى خيمتى ونمت من جديد .

استيقظت فى العاشرة ، وذهبت الى المجموعة ، واخذت فاسا وضربت امام الطابور على الارض . وقلت للذى خلفى : «الارض سهلة نوعا ما .» ثم استمر فى الحفر ،ولم أستمر فى الكلام . وعندما ذهبت تحت البولدزر رأيت أمى، وهى تحفر مثلهم : دودة مثل باقى الديدان ، تغرس البصل وتنبش باظافرها التربة التى تتجمع تحت جذور النعناع ، ثم تفتت الروث أو البعر باصابها المتشنجة وتوزعها بالتساوى قدامها ، وتنفض أصابعها ويديها ثم تقف بتعب وتدخل الى المطبخ . رأيتها كذلك تقشر البصل فتدمع عيناها ، وتضعه فى صحن وتطلق صنبور الماء فيغرغر بحرية وحشرجة كالبول . صوته منغم كصوت البول الذى يسيل من قامة طويلة . رأيتها وقد انهت عملها فى المطبخ . ثم خرجت لتتحدث فى العتبة وهى تقول : «ابنى سى عباس.. سيتزوج نصرانية (أى أوروبية) .. يعرف الكثير منهن . حميلات كالملائكة .. » ثم بعد ان تنهى حوارها مع نفسها أو مع غيرها تدخل لترفع غطاء الاناء ، وتشم رائحة البصل من جديد ، خلال سحابة البخار المتصاعدة . ثم اذا احرقها الاناء تضعه بخفة وتستغيث بسيدى هدى : « الله .. أسيدى هدى !» وربما يسمعها سيدى هدى أو لايسمعها. وتحت البولدزر رأيت اشياء اخرى كذلك . الديدان بشكل اقواس لها اشياء تنخفض وتعلو فى أيديها ، وينبعث من اقدامها رنين حاد أو خافت . وترتفع البالات ، فتنتقل التراب بسرعة الى الى عربات اليد . ثم تسرع عربات اليد فتفرغ ما فى جوفها فى الجانب الايسر ، وتعود خاوية ، كما كانت فى السابق ، وأسمع وأتامل اصواتها :

زيط ليط .. زيط ليط
زيط ليط
زيط ليط .. زيط ليط
ليط
زيط ليط

ثم تهوى الفؤوس وترتفع البالات وتملأ عربات اليد من جديد . شعرت بتنمل فى قدمى ، وببرودة تحتى ، فوسعت رجلى . واخذت أسمع صوت ابنة جارتنا المدللة وهى تتحدث الى أمى . الكنى تخليت عن ذلك ولم اسمع صوت ابنة جارتنا ولا حتى صوت امى ، بل اخذت أسمع: زيط ليط زيط ليط زيط ليط زيط ليط .

وافرغت عربات اليد من جديد . وذهبت قدام الطابور ، وقلت لبعلى أن يناولنى البالة فقلبت التراب. وشعرت بعضلاتى تتوتر ، وباقدامى تغوص فى بحيرات صغيرة من الماء ، فسحبت قدمى اللتين ابتل حذاؤهما ، واستمررت فى تقليب التراب وأدرت وجهى الى بعلى وقلت : هيا استمر . فاخذ البالة واستمر فى تقليب التراب ، ورأيت اغناما بالقرب ترعى الارض الجرداء فتلهيت بالقاء الحجر عليها . تفرقت الاغنام ورجعت بعيدا عن الرجال . فلحق بى قدور وقال بتوسل :

- سى عباس .

قلت :

- نعم .

- أريد ان اطبخ شايا .

نظرت فى أسفل قدميه ، ورأيت فردتى حذائه المزقتين ، وأصابع رجليه ناتئة كجذوع الاشجار ، بل كالبطاطا ، ورفعت عينى الى وجهه فبدا لى فى سواد اصابع قدميه قلت : « اذهب واعمل حسابك» .

قال بفرحة كبيرة :

- ولم لا ياسى عباس ؟ كاسك هو الاول .

- أعطه النار كثيرا .

- كما هى العادة سى عباس ، مشحرا كما هى العادة .

قلت :

- هل تطبخ فى القازانة هذه المرة ؟

- أى نعم سي عباس . شايها رائع . أحسن من البراد . البراريد لاتكفى .

ـ طيب ، اطبخ جيدا .

ـ نعم سي عباس .

ومشيت حيث مشت الاغنام وتفرقت . ورأيت بيوتا قصيرة ملونة ، وباهتة اللون متفرقة في فسحة ، واخذت اسمع اصواتا ضعيفة : زيط ليط زيط ليط ليط زيط تك تك تك تك زيط .

ومشيت بعيدا قليلا ، وبدأت اراهم وقد تجمعوا ثم تفرقوا حول الارض كمن يوزعون غنيمة . ولم اعد اسمع الاصوات او رنات الفؤوس . وسمعت صوت موتور ضخم لشاحنة ربما .. التفت لكي لا اجد شيئا . كان قليل من الوهم مسيطرا على حياتي . كنت وحدي وحككت اسفل بطني .. اسفل أسفل بطني ، عند العانة مباشرة . ثم بدأت أسمع في لا وعيي : زيط ليط زيط ليط زيط ليط زيط ليط .. الخ . وعندما سمعت هذه الاصوات . اعجبتني ولم تضايقني فاخذت اردد وانا اتمشى بعيدا عنهم : زيط ليط زيط ليط ليط زيط . وسمعت ايضا : دك تك دك تك زيط .

كانت الشمس حارة نسبيا ، فجلست تحت شجرة ، ورأيت مجرى مائيا يتجه نحو اشجار قليلة كثيفة . البيوت قليلة بيضاء وغير ذات لون . البيوت قليلة قليلة . فضاء فسيح فقط في المكان . وبدأت البولدزر تهدر في سمعي ، وتخيلتها تدك صلابة الارض ، وتسوى الاحجار . ورأيت عجلتيها الحجريتين الضخمتين فخفت منهما واصابني رعب حقيقي ونهضت ومشيت نحوهم وانا اسمع زيط ليط زيط .. زيط .

**

اخذت ادوس الارض بشقة والم . كانت الاحجار منتشرة وملساء ، نابتة في الرطوبة والوضوح . بعض الاحجار حادة وتخترق اللحم حتى العظام ، بل تخترق العظام حتى العظام . الدكان فسيح وممتد ، وسمعت الاصوات . الخلاء غريب . وسمعت الاصوات ، مشيت من جديد نحوهم وظهورهم مقوسة وقد برزت اعضاؤهم من اثيابهم الممزقة . وخطوت فوق الممشى الترابي على جانب الطريق التي بدأت تتضح معالمها آنئذ . ونظرت الى بحري الذى لم يكن ينظر الي . وتوجهت بقوتي الى بعلي الذى تتناسق مع رنين الفأس والمعول . وانسحبت اخيرا وسط الخيمة . ناديت على قدور وقلت له هات الشاي .

بعد فترة دخل !

ـ سي عباس هو ذا الشاي .

ـ اين هو ؟

ـ ماذا تفضل ؟ الكاس ام الغراف

ـ كيفما تريد .

ـ اقترح الغراف سي عباس . فهو يحتفظ بالحرارة

ـ اعتقد ان الكاس الزجاجيـــة هي التي تحتفظ بالحرارة .

ـ أعتقد الغراف سي عباس .

ـ طيب ، هات الغراف .

وجلست عند باب الخيمة المنصوبة كالجمل ، في مواجهتهم ، واخرجت سيجارة . وجعلت ادخن ورأيتهم يعملون . كانوا قد بدأوا يبعدون الآن عن الخيمتين . اقتربوا ثم اقتربوا ليبتعدوا .. وأعطيت سيجارة لقدور الذى لم يكن يدخن ، فتناولها ووضعها عند اذنه اليمنى . ومشى نحوهم فتجمعوا حوله ولم اقل لهم شيئا . كانوا اشقياء يحملون بؤس العالم على اكتافهم . لذلك لم اقل لهم ولن اقول لهم شيئا . ومع ذلك فقد كانوا سعداء الى حـــد الحرية . ورأيتهم وقد تجمعوا وارتفعت أيديهم الى افواههم. وفي تلك الفترة خفتت الاصوات ولم يعد هناك رنين ، بل كان الدخان والشـــاي . ثم استرخيت بجسمي كله على الارض وغرست حذائي في الارض ، ودخنت بنهم وتفكير ، وشربت الشاي الدافئ في الغراف المعدني . ورأيت الارض واسعة واشكالا باهتة للبيوت والاشجار . وعندما وقفوا واتجهوا نحو الادوات اخذت اراهم كالنمل ، واختفت صورة الديدان في مخيلتي . وبدأوا يرسمون شبكة شـــديدة التعقيد . دخلت الى الخيمة ثم خرجت ، وتمططت في الهواء . وارتفعت اصوات حادة حينا وخافتة احيانا .

وذهبت الى رأس الطابور الذى بدأ يبعد عن الخيمتين وتناولت الفأس ، واخذت اسمع لنفسي الرنين ، واتسلى بالنغم الحجري .

**

كف المطر عن السقوط ، وظهرت الشمس في السماء وراء الاشجار . مشينا نحو النهر وكنا خمسة : الكبير لا يتجاوز خمسة عشرة سنة والصغير لايقل عمره عن الثالثة عشرة . الصغير هو أنا . ظهرت الشمس في السماء ، وكفت الامطار عن الانسياب ، ضربنا الارض باقدامنا وهي واسعة وفجة . فيها الفيس والطين . ومشينا نحو المجرى الصغير. مسحنا اقدامنا بالعشب ودلينا ها في الماء . نظر الواحد للآخر وقلنا هيا لنعوم . وضعوا رأسي في الماء وتثاقلت أكفهم فوق جمجمتي فاكلت الطين وشربت الماء . وسمعت الضـــفادع تنقنق وهي تقفز . وجاء دور أكبرنا فوضعنا اكفنا على رأسه ، وشرب الماء وقال : «مت ، اتركوني لقد مت » ولم نتركه حتى مات .. وفررنا وكنا صفارا . ثم نظرت في وجه المهندس وقلت :

ـ بكم تبعد هذه المنطقة عنهم ؟

ـ انهم هناك ، وهم اقرب الينا فلا تخف . عشرون كلهم عل الاقل .

ومشيت نحو الماء ، وادخلت قدمي في الرمل المبتل، وسمعت هدير البحر . وتخيلت الافاق البعيدة بشـــكل مدن حامية ، فيها كلام كثير ، وفيها اناس تختلف لغاتهم عن لغتنا ونظرت الى المهندس وقلت :

ـ هل نذهب الى البار مرة ثانية ؟

ـ ننظر في البحر ونستنشق الهواء . ثم نعود بعد ذلك .

وعندما احسست ببرودة الرمل تحت قدمي ، لاح لي وجه أكبرنا من جديد . عيناه لامعتان . في وجهه صرامة

طفولية ، وامتعاض من النتانة ، مشينا ، وكنا خمسة . الارض متبقعة ، وقد كفت الامطار عن السقوط .
ونظر أبى الى وهو يقول :
ـ من أين لك هذا الغيس فى سروالك ؟
قلت بثقة :
ـ دفعنى حمادى فى بركة مائية .
ـ هذا الغيس هو غيس النهر وليس غيس البرك . انظر الطين • هل تكذب ؟
ـ لا أكذب . كيف أذهب الى النهر وهو بعيد .
وعندما امسكنا برأسه ، ودفعناه فى الماء زعق كالكلب وقال انه يموت . غير أن احدا منا لم يعترف بموته . وعندما مات صمتنا وحدقنا فى وجوهنا . ولم تكن الشمس غائبة وراء الاشجار ولكنها مشتعلة وكثيرة الالتهاب . وسمعت حفيف الخطى مع حفيف الماء فى البحر . وقال المهندس :
ـ هذا المكان قريب من افنى . الطريق التى ننشئها ستؤدى الى موريطانيا .
ـ سمعت انها تؤدى الى مالى .
ـ غير صحيح . مالى لانتعامل معها . ولكن الطريق ستؤدى الى موريطانيا .
ـ هل كان الناس يزورون موريطانيا فى السابق ؟
ـ كانوا يفعلون . وكانوا يركبون الابل . اعرف تجارا كانوا يخترقون موريطانيا ويذهبون الى السينغال .
ـ أعتقد ان صاحبة البار كانت تتعامل مع أولئك الناس فقط .
لا .. أولئك الناس لا يعرفون البارات . انهم يعرفون الابل ويتحدثون عن الصحراء والنخيل والصلوات الخمس ولايضيعون أوقاتها .
ومشيت نحو الماء عندما رأيت الامواج قادمة بيضاء ، وتلهيت بالصمت . وشممت رائحة النبيذ من فم المهندس ، ثم ابتعد عنى فلحقت به . وظللنا ننظر الى شاحنات تمر من الطريق . وتعالى هدير الشاحنات وارتفع الدخان . وتكورت الارض وقفزت الضفادع فاكلت الطين من جديد وشربت ماء قذرا . قلت للمهندس الشاب :
ـ لا أطيق طعم الطين .
ـ ماذا تعنى ؟
ـ الطين .. لاأطيق طعمه .
ـ هل أنت مجنون ؟ مالك ومال الطين . هل انت سلحفاة ؟
ـ لا .. لست سلحفاة .
وسمعت أكبرنا يزعق كالكلب وهو يموت . وتوقف اربعة صغار . قال الاول : نحن جميعا قتلناه . قال الثانى : لم نقتله ولكنه مات وحده . قال الثالث : لن نقول لاحد والا قتلونا . وبكى الرابع فى صمت . بينما الخامس كان قد مات . وبدأت أحرك شدقى واتلاقى مضغ كمية الطين ، فبصقتها على الشاطىء بقرف ومرارة .

وقال المهندس الشاب :
ـ يبدو أن حالتك سيئة . هل ترغب فى كؤوس أخرى ؟
قلت :
ـ نعم . لا طيق طعم الطين . انه فى فمى .
ـ ابصقه اذا كان فى فمك
ـ لاأستطيع . بل انه فى دمى .
مشينا وسمعنا الماء خلفنا . وسبقنى الى الباروبقيت فى الخارج أنظر فى الطريق الطويل . ليس هناك شاحنة . وقلت للمهندس الشاب :
ـ متى ننتهى من هذا الطريق ؟
ـ أنت أدرى منى بذلك .
ـ اقصد آخر اجل لاتمامه .
ـ اعتقد انه لن يتم الا بعد شهرين .
ـ هل يمتد حقا الى موريطانيا ؟
ـ سمعت ذلك .
ثم بعد صمت :
ـ لماذا لايقيمون مدينة هنا فى هذا الشاطىء .. مدينة جميلة ؟
ـ مثل اكادير .
ـ نعم .
ـ ان الارض هنا خراب ولاتعطى شيئا . لماذا مدينة ساحلية بلا ميناء ؟
وشربت ونظرت من خلال الزجاج . وخرج المهندس الشاب . وتفسح قليلا ولم يعد . انتظرته طويلا واعتقدت انه سكر . غير أنه عاد فى الاخير . وضرب على كتفى وقال :
ـ اشرب أيضا يارئيس الورشة .
فضحكت قلت :
ـ اشرب أيضا ، يامهندس الورشة .
فضحك رئيس الورشة ومهندس الورشة معا .
وعرف رئيس الورشة أن مهندس الورشة ورئيس الورشة قد شربا كثيرا . شاب طيب ولكنه ليس مغرورا . اعتقد بادىء الامر انه مزهو بنفسه . ولكنه فى الواقع لم يكن سوى انسان بسيط ، جعلت منه حياته ذلك الانسان الغامض ، والذى يبدو للآخرين انه لايحب سوى نفسه . فى الواقع لم يكن يحب الا الآخرين . كان منطويا وغامضا . ولم يكن يشبه كبيرنا الذى قتلناه ولم يعرف بموته احد . كبرنا ونسينا موته .. غير انه حاضر فى كل لحظة بالنسبة لى . وأبعدته من ذهنى وانا اقول :
ـ هل تاخذنى الى الورشة ؟
قال : ـ نعم .
وأدار المحرك . وتوقفنا عند الورشة فانسحب . ومشيت الى خيمتهم وشربت الشاى فى الكاس . وقال بحرى :

ـ سى عباس ، هل تذهب الى الوليات ؟

قلت : ـ لا .. ساذهب لاكتب رسائل وسانام . انا تعب .

قال : ـ سى عباس . لقد سالن عنك .

قلت : ـ قل لهن سأجىء غدا .

ونظر بعلى فى وجهى وهو يقول :

ـ سى عباس . نزيدك أتاى .

قلت : ـ شكرا . أتاى يؤرقنى . وأنا فى حاجة الى النوم . ليلة سعيدة .

وخرجت من الخيمة وتوجهت الى خيمتى . كانت الارض حجرية صلبة . مشيت فوقها ورأيت ضوء الوليات البيت الثانى على اليمين . ثم ترددت فى الفضاء أنغـام كالزعيق : زيط ليط زيط ..

وتوقفت عند باب الخيمة . وبصقت كمية كبيرة من الطين فى فمى . وأشعلت سيجارة لكى اشوه بها طعم الفيس فى فمى . وشممت رائحة التبغ . غير انى سمعت الضفادع تنقق . وذهبت وأشعلت اللمبة ، فانتشر ضوء خفيف . وبدأت أكتب رسالة لامى كى أطمئنها على حالتى .

*****

استيقظت مبكرا ففقد فمى طعم الفيس والطين . خرجت وكانت ملامح من الشمس فقط مرسومة وراء الحواجز هنا الارض تشبه تلك التى قرب تارجيست . هناك الجبال المرتفعة السامقة وهنا الارض بلا جبال . لكن الصـلابة واحدة . والعنفوان والقوة متشابهان . وزقزقت فى ذلك الصباح المبكر طيور القوبع ، فاستفقت بصـفة نهـائية وأيقظتهم ، فخرجوا ولووا ظهورهم وصاروا كالديدان . جاء برواك وطلب أن يهيىء شـايا فقلت له أن يفعـل . وجاءت الشاحنة ثم اختفت . وجر قدور عربة الزفت . ورش الحصى الابيض . وأخذ البياض يستحيل الى سواد. وكانت مناطق أخرى كثيرة بيضاء ، وفوقها التواءات وانحناءات تنبعث منها أنات . وعندما انتصف النهار جاء بحرى وهو يقول :

ـ سى عباس ! ان الوليات قد هيأن الطعام .

ـ ماذا ؟ هل نتغدى عندهن ؟

ـ أى نعم سى عباس .. لقد تدبرت الامر .

قلت : ـ لماذا تدبرته وحدك ولم تخبرنى ؟

قال بحرى وهو يتمخط :

ـ اسمع سى عباس . أنت شـاب . والشـبان لايستشارون فى أمور مثل هذه .

مشينا نحو الكورنيش على الاقدام . وتحت البنايات واحدة توقفت ، وقلت للاحمر أن يمضى قبلى . فأصر على أن أمضى وحدى وسيتبعنى بعد ذلك . قلت :

ـ الاحمر .. انها تنظر اليك

ـ لا .. بل تنظر اليك أنت .

ـ طيب . اذا اصطدتها لاتقل شيئا .

ـ لن أقول شيئا .

اقتربت وتحدثت اليها . ونظرت فى وجهى تحت الظل . خلف زجاج المقهى لم أكن أرى شيئا . سوى الاشباح . وقالت بغضب شديد :

ـ أمثالكم كثروا فى الكورنيش .

قلت بكبرياء :

ـ من تقصدين ؟ أنا ..

ـ نعم أنت .. من أقصد ؟ هيا تحرك والا خـرج لك .

ولم أتحرك . لكنى تلقيت ضربة قوية . ورأيت الأحمر قادما فى غضب . ورأيت أيادى ترتفع وتهوى . وسحبنى الاحمر الى الخلف . وقال : « لنـأخذ تاكسى ولنهجر الكورنيش . » كانت الأرض صلبة والأحجار مدببة تحت قدمى . سبقت بحرى لأنى كنت اعرف أين أسير . البيت الثانى على اليمين . توقفت وتنفست ، وشعرت بالطين فى انفى وفمى . وقلت لبحرى :

ـ هل الشيخ ما يزال هناك ؟

قال بحرى :

ـ أى نعم .. سى عباس ! وماذا تعتقد ؟ انه كالعلقة يتغذى من دمائهن .

ـ هل تعتقد ان الشيخ يقوى على الشجار ؟

ضحك بحرى ، وبانت أسنانه الغليظة اللامعة :

ـ مالك سى عباس ؟ هل خفت منه ؟

ثم استمر فى ضحك عنيف :

ـ قيش مثله لا ينفع ولا يضر . ان لكمة واحـدة تلحقه بالجنة فورا .

وتجنبت فضلات آمية أمامى . ومشيت نحو البيت الثانى على اليمين . وقال بحرى :

ـ سى عباس ! نهار جميل !

قلت : ـ اى نعم . الشمس غير حارة ولا باردة .

قال بحرى :

ـ الوليات اغتسلن هل تشم رائحة شىء ؟

قلت : ـ نعم . رائحة اللحم المطبوخ .

ـ لا سى عباس . شىء آخر .

ـ رائحة ابطى .

ـ أوه ، سي عبـــاس • كلنا لنا روائحنا • شيء آخر •

ـ رائحة السفرجل المطبوخ •

ـ لا سي عباس • انا لا اقصد الطعام •

ثم اخذ يضحك بهيستيريا • توقفنا لحظة • سمعنا هدير محرك سيارة قادمة نحو الخيمتين • قال بحرى :

ـ سيارة المهندس • ماذا يريد سي عباس ؟ ساذهب اليه انتظرني •

ومشى يركض كحيوان وحشي في الخلاء • كانت رجله اليسرى لاتتوازن مع الرجل اليمنى. وظللت انظر اليه وهو يركض ثم اختفى قليلا • اختفى جزء من جسمه وراء نباتات خضراء • ولاح جسمه كله • ورايته يحرك يديه ويشير الى • حرك المهندس يديه ودخل في سيارته • ثم اختفى • قال بحرى :

ـ انه يريد ان يقول لك اشياء خاصة • قلت له : قل لي • فلم يرد قال في المساء سيراك • لا داعي لان يضايقك الآن •

ودخلنا ولم نر الشيخ • ووقف بحرى وصاح باعلى صوته : « فاطمة ! » . وخرجت الصغرى من ثقب وكانت حمراء الوجه • قال بحرى :

ـ اين هو ؟



ـ ادخل واسكت • قالت •

ـ اين هو ؟ سي عباس يريده •

قلت بغضب :

ـ اسكت بحرى لا اريده . من قال انك ذلك ؟

وضحك بحرى . ورايت اسنانه الغليظة اللامعة تهتز ويخرج منها الحلب • حلب ابيض مختلط بصفرة • قلت : « اجمع لعابك اولا ، بحرى • » وقال بحرى : « سي عباس •• انه هنا • اراهن على انه نائم . »

وعندما خرجنا ، توقفت امام البيت الثاني على اليمين • وتبعني بحرى وهو يقول :

ـ سي عبـــاس • لقد خرج الآن • كان نائما • الم اقل لك ؟

ـ سي عباس . انه كالعلقة يعيش من دمهن .

ـ لا تقل هذا . انه شيخ . ماذا تنتظر من شـيخ ان يفعل ؟

ـ يفعل اى شيء سي عباس • انه ينام معهن ايضا •

ـ لا تقل هذا • هن حرام عليه •

ـ انت لا تعرف شيئا سي عباس • من قال لك هذا ؟

ومشينا نحو الخيمتين • ورايت البولدزر • وتحاشيت الفضلات الادمية • وقال بحرى :

ـ سي عباس • النهار جميل •

قلت : ـ اى نعم •

ـ انظر الشمس ، سي عباس •

ـ لا حارة ولا باردة •

فسكت بحرى • واضفت :

ـ انتم ستفعلون هذا اليوم . وتوشـكون ان تنهوا الطريق •

ـ الطريق طويل سي عباس • يقال ان امامنا شهرين • انظر الخيمتين . انهما تبدوان بعيدتين عن مكان العمل .

قلت في قرار حاسم :

ـ ستنتهون •

قال بحرى :

ـ عندما ننتهي سنتاسف على الوليات •

قلت :

ـ هنـــاك وليــات في كل مكان بحرى • حتى في تارجيست •

ـ الأرض متشابهة في كل مكان سي عباس •

ـ انظر انها صلبة . ومع ذلك ..

ـ ومع ذلك سي عباس . نحن وطيناها .

وصمت بحري قليلا . وقبل ان نتجاوز الحفر الى الخيمتين . قال وقد لاحت اسنانه الفايقة اللامعة :

ـ هل تدري سي عباس ؟

ـ اي نعم .

ـ لقد رايتك تهتز هذه المرة بنصفك الاسفل فقط.

ـ رايتك كذلك بحري . اذهب وقل لهم بعد نصف ساعة ان يبدأوا العمل سانام .

ـ لقد كنت تهتز سي عباس . رايتك بعيني هاتين .

قلت ببرود :

ـ رايتك كذلك . زيط ليط . قل لهم ان يبـدأوا العمل . زيط ليط . بعد نصف ساعة . زيط ليط .

قال بحري :

ـ ساقول لهم سي عباس .

ثم مضى ودخلت في الخيمة . رايت البولدزر رابضة . والظل قصيرا ممتدا من عجلتيها الحجريتين . ورايت الفؤوس متكئة ، ورايت البالات مكومة . واخذت اسمع الهدير مختلطا بزقزقة طيور القوبع في الصحراء . وامتد نغم حزين في المكان . !

تمددت لأستريح واخذت افكر في الشيخ العجوز وفي بحري . ورايت وجه فاطمة مستديرا احمر ، يطفر الدم اليه . وشعرت بتعب ، وبرغبة في ان انام . تمددت واغفيت .

**

نزلت امي الى تحت . فتشت في التراب تحت جذور النعناع والبصـل . فشـممت رائحته . وذرذرت العدس والشـعير فطقطقت الدجاجتان وطارتا بسرعة . تفرقتا ثم اجتمعتـا . واكلتا ثم ضربتا الأرض بمنقاريهمـا . اختفتا ثم عادتا للظهور . حركت امي يديها وقالت :

اش .. كتكتكتكت . فتفرقت الدجاجتـان وطارتا وقطقطتا . اختفتا ثم عادتا للظهور . فصبت امي الماء في المقراج على النعناع ؛ فلوى النعناع راسه واخضر واخرج رائحة مشهية . وعندما سمعت صوتا في الباحة اطللت براسي من النافذة . فقالت امي : « ان الدجاجتين لا تريدان ان تأكلا . انظر النعناع وقد لوى عنقه واخضر . » فلم اسـمعها جيدا وادخلت راسي وشممت البصل ؛ ورايت البولدزر ورايت كذلك الديدان ملتوية تنبش الارض وقد ابتعدت هذه المرة عن الخيمتين . ثم جاء بحري واعطاني الرسالة ففتحتها وقرات ما يلي : « .. أبوك ما يزال غائبا . انه مسخوط ورجل قاس ما عرفت مثله في حياتي قط . هل يعقل ان يذهب هـذه السـنوات ولا يزورنا ولو مرة واحـدة فقط . اني أحترمه كثيرا يا ابني . فلنطلب مغفرة ربنا من أجله . » ثم بعيدا عن السطور .

قرات هـذه الآيات : « ومن النـاس من يعبـد الله على حرف ، فان اصابه خير اطمان به ، وان اصابته فتنـة انقلب على وجهـه ، خسر الدنيـا والآخرة ، ذلك هـو الخسران المبين . يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه، ذلك هو الضـلال البعيد ، يدعو لمن ضره اقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العسير .. » وتوقفت الرسالة عند هذا الحد . ورايت امضاء ابن جارتنا . شـاب معتوه يحفظ القرآن ويظل يردده . واذا طلب منه ان يكتب رسـالة اقحم فيها آية او آيات . يدخل الى البيت ويقرا القرآن . يخرج منه ويقرا القرآن . يردد آيات . ويقول : هـذه في النهي عن التدخين . وهذه في النهي عن تقليد الغرب . وهذه عن تحريم السينما والافلام الماجنة . كل مالا يرضيه يردد عليه آية من الآيات . ثم طويت الرسالة ورايت عربة الزفت . وادخلتها في جيبي ، فرايت عربة الزفت . كانت الحجار صغيرة ناتئة تحت اقدامي . فرايت الزفت اسود يرش فوق الحصى . وفجاة قفزت الدجاجتان ؛ ورايتها ترش الماء من المقراج على النعناع ؛ فاطللت من النافذة وقلت : « هات الفداء » وجاء بحري وفي يده الفاس :

ـ خير سي عباس .

ـ خير ، بحري . الحياة عادية .

ـ كيف حال الوالدة سي عباس ؟

ـ بخير .

ـ حمدالله سي عباس .

ثم انحنى بعيدا وحفر في التراب وارخى فاسـه . واختفى وراء بغل وانت عربة يد بين ذراعيه : زيط ليط . وصب التراب ، فرايت الدجاجتين ورايت الزفت . وقلت :

ـ كيف حال قدور ؟

ـ ما يزال نائما سي عباس .

ـ ما الذي يؤلمه ؟

ـ لا شيء سي عباس . اوه .. كل شيء سي عباس .

ـ كيف ذلك ، كل شيء ؟

ـ به حمى . في الحقيقة لم يعد يطيق العيش هنا ؟

ـ اعتقد انه به روماتيزم .

ـ اشنوروماطيز ، سي عباس ؟

ـ الروماتيزم مرض قبيح .

ـ الله يحفظنا سي عباس . حماه مرتفعة وهو يئن ويكاد يموت .

ـ بحري اين المهندس ؟

ـ جاء قبل لحظة سي عباس . واختفى فجاة . انت تعرف سي عباس . كالبرق بسرعة ياتي ، وبسرعة يمضي .

اطرقت وتحسست الرسـالة في جيبي . وكانت عربة الزفت ما تزال تسود بياض الطريق ، تئن عربة اليد في مكان بعيد ، تنقل الحصي ، تئن . وقلت من خـلال ياس شديد :

ـ اشتغلوا ، ساذهب لأراه .

ـ سى عباس ! قال ان أطبخ له شايا .

ـ تعال معى . لكن ليس فى تلك القازانة القذرة .

ـ لا سى عباس . عندنا البراد .

ورايته وقد اصفر . ارتفعت حماه ، وارتعشت شفتاه وامسك بيدى وهو يقول فى الم حاد :

ـ سى عباس . اموت . اوصيك . اوصيك .

ثم سكت واغلق عينيه وفتحهما . قلت بحزم :

ـ هيا قدور .. الحمى شيء بسيط . كل الناس تمرض بالحمى .

قال الآخر :

ـ لكنه يتالم سى عباس بكثرة .

قلت : ـ الالم بسيط . اطبخ الشاى واسكت . هيا اشعل النار .

قال قدور :

ـ ليس بسيطا سى عباس بالقدر .. بالقدر الذى ..

قلت : ـ اشرب شايا وستعود الى حالتك الطبيعية .

ـ شكرا سى عباس .

واختفيت خارج الخيمة . كانت براميل الماء مصطفة وفارغة . رايت الزفت ورايت الدجاجتين . شممت البصل وتحسست الرسالة . جاء بحرى . ذهب بحرى . ارتفعت الفاس . رش الزفت . ابيضت الأرض . اسودت الأرض . قطقطت الدجاجتان . اطللت من النافذة . قلت : الغذاء . زقزقت طيور القوبع . لاحت براميل الماء . زيط ليط . تحركت عربات اليد . زيط ليط . سمعت القوابع . زيط ليط . ارتفعت حمـاه . زيط ليط . جاء بحرى . زيط ليط . مضى بحرى . زيط ليط . نتؤت الأحجار . زيط ليط .

مشيت وابتعدت قليلا . كانت اصـواتهم بعيدة . وتوقفت وقلت للمهندس :

ـ ان حالته خطيرة . هل هناك سيارة جيب عند الفرقة الأخرى ؟

ـ نعم . هناك سيارة . لكن لماذا ؟

ـ ناخذه الى اقرب مستشفى . المسـالة اعوص من الحمى .

ـ ثلاثون كيلو مترا كلها . المستشفى بعيد .

ـ ناخذه مع ذلك . ابعث معه سائقا ياخذه على الأقل الى هناك . بعد ذلك يتدبرون امره .

حملناه وشفتاه ترتعشان . القيناه فى الجيب فان انينا شـديدا حتى بكى . قال انه يحس بالبرد . مد يديه بارتعاش :

ـ سى عباس . اشعر بالبرد . قل لهم ان يعالجونى .

ـ لا تخف . سيعتنون بك .

ـ شكرا سى عباس .

قلت للسائق ان يمضى . فارتفع غبار بعيد . وانتشرت اذ ذاك نباتات قصيرة فى الارض . لاصقة بها بلا سيقان . التفت نحوهم . فقلت ان يذهبوا الى عملهم . جاءوا ليروا صديقهم . قلت بحزم :

ـ لا شيء . انه مريض بالحمى . يعطونه قرصا صغيرا فيشفى .

قال بحرى :

ـ لا أعتقد سى عباس . الم تر صفرته ؟

قلت بحزم :

ـ اذهب واعمل . تجعل من الحبة قبة .

تفرقوا . ثم انحنوا والتووا . دست الأحجار . وظهروا لى كالديدان . سـمعت زيط ليط . ورايت الدجاج . واطللت من النافذة . وقلت : هات الطعام . وشممت البصل . ورايت السبنية الملونة فوق راس امى ، وهى تحرك يديها ، وتنثر العدس والشعير وتقول بصوت وزه : كتكتكتكتكت . وتلمع السبنية مع الشمس . فارى ابى وقد غضب واطل وراء الخيمتين فيلوح لى البيت الثانى على اليمين ، وتبدو الحفرات كخنادق فى ساحة القتال ، واسمع زيط ليط . الهواء جميل سى عباس . زيط ليط . رايتك تهتز . زيط ليط . الولية تريد لو .. زيط ليط . عنده حمى . زيط ليط . اتبعها انت . زيط ليط . الأحمر ؟ اتبعها انت .

ثم ذهبت وشربت شـايا وجلست فى ظل الخيمة القصير . وجاء بحرى ونظر فى ساعتى .

ـ الثانية عشرة سى عباس .

قلت بوضوح :

ـ هيا توقفوا وتغذوا

ـ هل تاتى معنا سى عباس ؟

ـ ساتى .

ـ شكرا سى عباس .

وتبعته الى الخيمة الأخرى .

بعد الظهر عادت سـيارة الجيب . اخترقت النباتات الكثيفة الخضراء ، فغطى هديرها قضقضة الأغصان التى تدلت كالياس . ذهبت على الفور وناديت على بحرى فاخرجت قدور والقيناه داخل الخيمة . وفجاة اكتشفنا انه مات . اكتشفه بروك عندما دخل ليهيء الشاى . قال له ان يهيء له شايا فلم يجب . ثم خرج وهو يركض صارخا فى وجوهنا : « لقد مات ! لقد مات ! » وشهق شهيقا قويا مؤثرا . ورفع يديه الى رأسه حتى ارتفع قميصه عن بطنه . وقبل ان ندفنه كنت قد ترددت فى الأمر . هل المكان صالح للدفن ؟ هل ندفنه بلا اذن . لكن المجموعة كلها اتفقت على الدفن فى المساء ، قبل ان يتعفن الجسم . كان كل واحد يتحمل مسؤولية نفسه . هكذا فكرت . وحفرنا له حفرة بعيدا عن الطريق . ثم دفناه تحت ضوء اللمبات الباهت دون ان نصلى على جثمانه . لأن احدا لم يكن يعرف الصلاة . فكل العمال لا يصلون . وانا بدورى لم اصل فى حياتى قط . ولم يسبق لى ان دخلت المسجد . اهلنا عليه التراب . ثم

وشمنا قبره بالماء . « سطلان اثنان كافيان » قال برواك . فتكفل هو برش القبر . ولم ادر ما الذى كنت افعله انا . دخلت الى الخيمة واخذت مفكرة صغيرة وسجلت ما يلى :

الاسم : قنوز على .

تاريخ الازدياد : 1935 (بلا شهر ولا يوم)

مكان الازدياد : اى زفزافن (جبال الريف)

عدد الأولاد : ...

الرقم :

ثم نظرت فى الصفحة المقابلة للمفكرة الصغيرة ، وقرات فيها ــ كانت الكتابة بقلم الرصاص ــ :

1 ــ معجون للاسنان .
2 ــ صابون تايد .
3 ــ سطل ميكا .
4 ــ كريم للحلاقة .
5 ــ منفضة .
6 ــ ... (لا شيء) .

تركت المكان فارغا ، لأننى سمعت اصــواتا خارج الخيمة . كان احد ينادى على لم اتبين صوته الا فيما بعد . قفزت خارج الخيمة . وادرت اصبعى فى اذنى فهبت على ريح خفيفة انعشتنى . قلت بتعب :

ــ ماذا ؟

قال احدهم :

ــ سى عباس . يجب أن نبحث عن امراة تهيىء لنا قصعة كسكسو .

قال آخر :

ــ ليس الليلة سى عباس . قلت له ان يؤجل ذلك الى الغد . العادة تقضى ان يهيأ الكسكسو بعد وفاة الميت بليلة .

قال الأول :

ــ فى بعض المناطق . سى عباس . يهيأ الكسكسو فى الليلة الأولى لوفاة الميت .

قال آخر :

ــ من الأفضل أن نهيئه اليوم . كل حبة كسكسو بالف حسنة .

ــ اذا هاتم الكسكسو اليوم فســوف تذهبون جميع الحسنات .

قلت بنبرة حزينة :

ــ اتفقوا اولا . اليوم أو غدا سواء .

فقال بحرى :

ــ ولكن ايها الســادة اين نجد المراة التى تهيىء الكسكسو ؟

قالوا جميعا بصوت واحد :

ــ نعم . أين نجد المراة ؟

ثم بعد لحظة صمت حاسمة ، تقدم بحرى من اذنى والجميع ينظرون اليه . قال بصوت منخفض : « الوليات سى عباس . هل نذهب عندهن ؟ » ولســت ادرى كيف استطاع ان يسمعه الآخرون . فقال صوت المجموعة :

ــ هذا شيء غير لائق سى عباس . لا يمكن للعاهرات ان يصنعن طعام الميت . سوف يذهبن جميع حسناته .

قال آخر :

ــ مالك ومال العاهرات ؟ هل لك دخل اذا اردن ان يمحين ذنوبهن ؟

قلت موافقا :

ــ صحيح . نترك لهن الفرصة كى يمحين ذنوبهن . اليس كذلك ؟

فقال بحرى :

ــ سى عباس . اذهب عند الوليات . هاتو الفلوس يا جماعة .

قلت وانا اخرج عشرين درهما من جيبى : « خذ ! »

وانسحب الى الخلف . ورايته يختفى فى ظلام الليل . كان الضوء باهتا ينبعث من ثقب خلفى فى البيت الثــانى على اليمين . شعرت بكثير من التعب واليأس من لا شيء . دخلت الى الخيمة ونشرت فى أوراقى الخاصة تحت ضوء اللمبة . وقررت ــ ولست ادرى لماذا ؟ ــ ان آخذ اجازة مرضية . كنت احس بضيق المكان ، وتعفن الهواء من حولى. وفكرت ايضا ، ولأول مرة ، بان هذا عمل لا يليق بى ؛ وانه يتعبنى . تمددت فوق الفراش واخذت استرجع كل شيء ، واتذكر احيانا بعض الأشياء التافهة ، التى حصلت لى والتى حصلت لغيرى . وترددت كثيرا فى اتخاذ قرارى الفجائى . ولكنى فى الصــباح حزمت امتعتى ، وركبت الجيب . قال السائق الذى كان يعرفنى جيدا :

ــ يبدو عليك التعب الكثير ، سى عباس .

لم اجب . فاضاف :

ــ عليك أن تستريح قليلا . انت دائما خارج المدينة. لماذا تنفى نفسك سى عباس .. ؟ لو كنت مكانك لـ ..

وصمت ، فاكملت الجملة فى ذهنى . وظللت اتمايل بجواره عندما تهتز سيارة الجيب . نظرت عن يمينى فلم يكن هناك شيء سوى الخلاء المقفر . ونظرت عن يسارى فكان هناك الســائق . ثم نظرت امامى وكان الخـلاء كذلك . سيارة الجيب تخترقه . وكان هناك ازيز حاد ؛ واصوات الدجاج والطيور وعربات اليد ، ورنين الفؤوس وهدير آلة البولدزر . ثم اطللت من النافذة وصرخت : « هات الغداء » ففرت الدجاجتان ووقعتا فوق النعنــاع وبعثرتا أوراقه . وسمعت صوتا بجوارى :

ــ سى عباس .. هل اثر فيك الموت الى هذا الحد ؟ كلنا لله .

قلت :

ــ لا لا .. لا موت ولا اي شيء . لا ادرى .. فقط اريد راحة ،